المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

المنظرى الغرناطى مؤسس تطوان

غيرمو غوثالبيس بوستو



ترجمة
ممدوح البستاوى

مراجعة وتقديم
جمال عبد الرحمن

1187

المنظرى الغرناطى

مؤسس تطوان

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١١٨٧
- المنظرى الغرناطى ، مؤسس تطوان
- غيرمو غوثالبيس بوستو
- ممدوح البستاوى
- جمال عبد الرحمن
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

AL - Mandari El Granadino,

Fundador De Tetuan

Por: Guillermo Gozalbes Busto

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

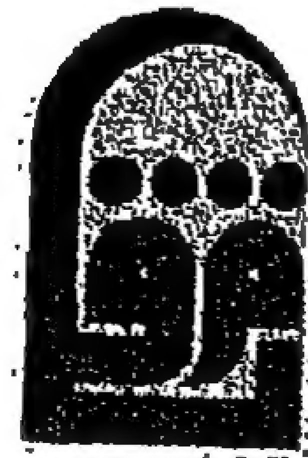
المنْظَرى الغرناطى

مؤسس تطوان

تـأليـف : غيرّمو غوثالبيس بوستو

ترجمـة : ممدوح البستاوى

مراجعة وتقديم : جمال عبد الرحمن



٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بوستو ، غيرمو غوثاليبيس
المنظرى الغرناطى مؤسس تطوان
بقلم : غيرمو غوثاليبيس بوستو، ترجمة : ممدوح البستاوى ، مراجعة وتقديم : جمال عبد الرحمن - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٨ ،
٣٥٦ ص ، ٢٤ سم (المشروع القومى للترجمة ؛ العدد ١١٨٧)
١ - المغرب - وصف ورحلات
٢ - تطوان ، المغرب - وصف ورحلات
(أ) البستاوى ، ممدوح (مترجم)
(ب) عبد الرحمن ، جمال (مراجع ومقدم)
(ج) العنوان
(د) السلسلة ٩١٦,٤٢

رقم الإيداع ٢٠٠٨/٥٤٦٥
الترقيم الدولى 977-437-663-3
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقدمــة المراجــع

هذا هو الكتاب الثانى للدكتور غوثالبيس بوستو حول الأثر الأندلسى الموريسكى فى المغرب. كان الكتاب الأول بعنوان "الموريسكيون فى المغرب"، وقد نشره المجلس الأعلى للثقافة منذ نحو عامين، وكان يتناول الوجود الموريسكى فى المغرب بشكل عام. أما هذا الكتاب فيتحدث عن منطقة مغربية محددة هى تطوان، ويذكر أن قائداً أندلسيا هو الذى أعاد بناء المدينة بعد أن كانت أطلالا.

لم يكن سقوط غرناطة مفاجئا للمتابعين لتطور الأحداث فى شبه جزيرة إيبيريا فى نهاية القرن الخامس عشر، وقد ذكرنا فى مقدمة الكتاب الأول للمؤلف أنه بعد سقوط دولة الإسلام فى الأندلس – بل وقبيل السقوط – كانت الهجرة إلى بلد إسلامى تعد فى كثير من الأحوال هى الحل الأنسب، فقد رأى نبلاء غرناطة أن الأمور فى بلدهم تسير من سيئ إلى أسوأ وأن دولة الإسلام منهارة لا محالة، ولم يكن من الممكن آنذاك عمل أى شيء يوقف زحف الملك الكاثوليكى.

ذكرنا أيضا أن تلك الهجرة كانت لها نتائج ملموسة، سواء على الذين هاجروا، أو على بعض البلاد التى هاجروا إليها. وتعرض لنا صفحات الكتاب بعضا من هذه النتائج: لقد أعاد فارس غرناطى مهاجر تأسيس مدينة مغربية.

***

تعتبر قصة "ابن سراج وشريفة الجميلة" من أهم القصص الموريسكية وأجملها. القصص الموريسكية هى التى تتحدث عن الموريسكيين بإعجاب، وقد اختلف النقاد

حول شخصية مؤلفها، فمنهم من قال إنه مسيحي دفع له النبلاء مالا حتى يظهر الموريسكيين بشكل طيب فيتعاطف معهم الناس وهكذا لا يتم طردهم من إسبانيا، ومنهم من رأى أن المؤلف موريسكي أراد أن يدافع عن بني وطنه وأن يظهر إيجابياتهم كرد على كتب الأدب الإسباني التي يظهر فيها المسلم بشكل سلبي[١].

لن نتوقف الآن عند هذه القضية رغم أهميتها، لكننا نوجز القصة.

كان الفتى المسلم "ابن الرئيس" وهو من بني سراج في طريقه للقاء خطيبته "شريفة" الجميلة، وكان يتعين عليه أن يمر بمنطقة يسيطر عليها المسيحيون. يعترضه فرسان مسيحيون، فيصرع منهم ثلاثة، ويفر الرابع طلبا للنجدة من القائد نارباييث. يأتي القائد ويبارز الفارس المسلم فيصرعه " لأنه كان جريحا وكان قد فرغ لتوه من مبارزة ثلاثة فرسان". يقول ابن سراج للقائد المسيحي إنه انتصر عليه، لا لتفوقه في القوة، ولكن لأن الله أراد أن يمنعه من رؤية محبوبته. يعجب القائد المسيحي بشجاعة الفتى المسلم ويدور بين الاثنين حوار. يقص ابن سراج على القائد المسيحي أنه يحب شريفة وأنه كان في الطريق إليها ، فيعرض عليه القائد أن يطلق سراحه لمدة ثلاثة أيام يعود بعدها إليه. ينصرف ابن سراج ويلتقي بمحبوبته ويتزوجها، ويعود- ومعه زوجته- إلى الأسر. يعجب القائد المسيحي بوفاء المسلم فيطلق سراحه بلا فدية. يتوجه الزوجان إلى بلدهما ويرسلان إلى القائد المسيحي هدية تتكون من أسلحة وجياد وعملات ذهبية. يقبل القائد المسيحي الأسلحة والجياد "للدفاع عن الزوجة المسلمة ضد الأخطار التي قد تتهددها" ويرد إليهما العملات الذهبية شاكراً. تنشأ بين المسلم والمسيحي صداقة تدوم مدى الحياة[٢].

هذه القصة، التي تبدو وكأنها لا يمكن أن تحدث إلا في عالم الخيال، تستند إلى واقع تاريخي ، وقد كتب البروفيسور لوبيث إسترادا بالفعل أن هذه القصة الجميلة ما كان لها أن تصل إلى عالم الأدب لولا أن لها أصلا تاريخيا. على أن جهود ذلك العالم الإسباني في التوصل إلى حقيقة الأمر ذهبت سدى، فالراوي يزعم أن الأحداث وقعت في آلورا وأن القائد المسيحي اسمه نارباييث... إلخ. يستعرض لوبيث إسترادا التاريخ

الإسباني فيكتشف أن أنتيكيرا ظلت إسلامية حتى عام ١٤١٠وقد تولى قيادتها ناربابيث، وبالتالى فلا يمكن أن يكون قائداً لأنتيكيرا وآلورا - التى كانت إسلامية حتى عام ١٤٨٢ - فى آن واحد. يخلص استرادا فى النهاية إلى أن التاريخ المشار إليه فى القصة لا يتفق مع الوقائع الموثقة، لكنه يؤكد - كما أشرنا - وجود حدث تاريخى استند إليه مؤلف القصة الموريسكية. ما الحل إذن؟

الكتاب الذى بين يدينا الآن يجيب على تساؤلاتنا، إذ يحدثنا عن عروس غرناطية استوقفتها مجموعة جنود إسبان مسيحيين وهى فى طريقها لكى تزف إلى زوجها الفارس المسلم فى المغرب. وقد تحلى القائد المسيحى بشيم الفرسان وأفرج عن العروس التي واصلت طريقها. اعتباراً من ذلك التاريخ نشأت علاقة ودية بين فارسين نبيلين ، أحدهما مسيحى إسبانى ، والآخر مسلم غرناطى كان قد هاجر لتوه إلى المغرب.

أما الفارس المسيحى فهو السيد إنييغو لوبيث دى ميندوثا، ماركيز مونديخار وكونت تينديا، والمسلم الغرناطى هو أبوالحسن على المنظرى، قائد قلعة بينيار الغرناطية الذى أسس أو أعاد تأسيس مدينة تطوان المغربية، والفتاة التى ظهرت فى القصة الموريسكية إذن هى النموذج الأدبى لفاطمة خطيبة على المنظرى.

***

فى السطور التالية نعرض بإيجاز شديد مضمون فصول الكتاب. الفصل الأول يتناول جغرافية تطوان وما حولها، وهى الساحة التى ستجرى عليها الأحداث بعد وصول الموريسكيين المطرودين من إسبانيا أو قبيل سقوط غرناطة. يتوقف المؤلف كذلك عند الفترة السابقة على وصول الأندلسيين. ويتحدث الفصل الثانى عن تاريخ غرناطة فى الفترة التى سبقت سقوطها مباشرة حتى يتعرف القارئ على المنظرى الذى كان أحد قواد جيش أبى عبد الله الصغير، ويخلص المؤلف إلى القول بأن المنظرى قد رحل

عن إسبانيا قبل سبتمبر عام ١٤٨٥، يتحدث المؤلف كذلك عن عائلة المنظرى استناداً إلى مصادر إسبانية وبرتغالية، بالإضافة إلى مؤرخين عرب مثل لسان الدين بن الخطيب والمقرى صاحب "نفح الطيب".

الفصل الثالث يحدثنا عن خطيبة المنظرى الغرناطية – وهى فاطمة ابنة بن كماشة وقريبة الملك أبى عبد الله الصغير– التى تعرضت للأسر وهى تعبر نهر شنيل ولم يكن برفقتها سوى بعض الخدم. فور علم المسلمين الغرناطيين بما حدث أطلقوا سراح فارس مسيحى لكى يبلغ كونت تينديا استعداد ملك غرناطة لدفع فدية مقابل إطلاق سراح العروس. إزاء هذا الاهتمام يطلق القائد المسيحى سراح العروس دون فدية، وهى بادرة كان لها صدى كبير فيما بعد. يتحدث الفصل الثالث كذلك عن زوجة أخرى للمنظرى، مغربية هذه المرة، وهى ست الحرة ابنة على بن راشد – صاحب السلطان الفعلى على المنطقة الغربية من شمال المغرب آنذاك – التى سيكون لها شأن عظيم فى تاريخ تطوان.

الفصل الرابع يحدثنا عن النشاط الجهادى للمنظرى – استناداً إلى مصادر برتغالية – ضد البرتغال وإسبانيا برا وبحراً، ويخصص المؤلف جانبًا من الفصل للحديث عن القرصنة (من وجهة نظر المؤرخين الإسبان) أو الجهاد البحرى (من وجهة نظر المؤرخين العرب)[٣]، وكيف أن فك أسر المسيحيين الإسبان كان يكلف الدولة الإسبانية مبالغ طائلة كانت تدخل فى خزانة أصحاب السلطة فى المغرب .

الفصل الخامس يتناول إدارة المنظرى لشئون تطوان بعد إعادة تأسيسها، وكيف أن بن راشد – والد ست الحرة[٤] – ساعده فى ذلك. يذكر المؤلف أن المنظرى ظل يحكم المدينة دون منازع حتى تقدم فى العمر وفقد بصره. يتحدث المؤلف عن يأس كل من المنظرى وبن راشد فى الحصول على الاستقلال المطلق عن فاس، ويقول إن هذا أدى إلى إجرائهما محادثات مع البرتغاليين بهدف توفير سفن تسمح لهما ولعائلتيهما بالرحيل إلى تونس وتسليم مدينة تطوان للبرتغاليين. يقول المؤلف إن لديه وثائق تثبت ما يقول، لكننا لا نملك سوى إبداء التحفظ إزاء ما يذكره، فهو لا يعرض وثيقة وقعها

المنظرى أو بن راشد، ثم إننا لا نطمئن كثيرا لكتابات المؤرخين الأوروبيين فى ذلك العصر (انظر على سبيل المثال حديثهم عن الذهب الكثير الموجود فى المغرب والعصا السحرية التى تدل على مكانه).

الفصل السادس يتحدث عن العلاقة بين القادة فى شمال المغرب وإسبانيا. يعرض المؤلف وثيقة عبارة عن محضر شرعى قام بمقتضاه أشخاص رسميون إسبان مسيحيون بتنفيذ حكم الإعدام فى مواطنين مسيحيين إسبان مقيمين فى مدينة ترغة. يرى المؤلف أن قيام رسميين مسيحيين بتنفيذ حكم الإعدام فى بلد مسلم لم يكن ممكنا دون اتفاق مسبق بين السلطات فى إسبانيا والمغرب. يتحدث كذلك عن وجود اتصالات بين ثافرا وبن راشد ، وبين كونت تنديا والمنظرى. يعرض رسائل متبادلة بين أولئك القادة.

الفصل السابع يتحدث -استنادا إلى مصادر برتغالية وقشتالية- عن محاولة ملك إسبانيا غزو فاس. يذكر المؤلف أن البرتغال كانت تعارض دائما أى تدخل إسبانى فى فاس، ولهذا أخفى الملك الكاثوليكى نيته عن الجميع تقريبا وأراد أن يقود الحملة بنفسه. يسوق المؤلف أدلة على أن الحملة كانت موجهة إلى فاس رغم أن المصادر الإسبانية لا تكاد تذكر شيئا عن هذا الموضوع.

الفصل الثامن يتحدث عن السنوات الأخيرة التى عاشها المنظرى ثم وفاته. يفرد المؤلف صفحات للحديث عن صداقة جمعت بين القائد الغرناطى والراهب كونتريراس. يتحدث بعد ذلك عن ست الحرة التى حكمت تطوان بعد وفاة المنظرى.

الفصل التاسع يتحدث عن آثار عائلة المنظرى فى غرناطة بعد سقوط دولة بنى نصر، فيعرض وثائق تتحدث عن أملاك عائلة المنظرى وعن أن أحد أفراد العائلة استطاع تهدئة ثورة أقرانه من الموريسكيين.

الفصل العاشر يتحدث عن آثار المنظرى فى تطوان ومن بينها برج أو قلعة المنظرى، وبوابات سور مدينة تطوان، وضريح القائد الغرناطى.

يتضمن الكتاب عدة ملاحق وثائقية: وثيقة برتغالية تتحدث عن انهيار مدينة تطوان قبل أن يعيد المنظرى تأسيسها، ووثيقة ثانية تتحدث عن زوجة المنظرى، فاطمة الغرناطية، ووثيقة ثالثة تؤكد وفاة المنظرى فى أواخر عام ١٥٤٠ أو أوائل عام ١٥٤١، أما الملاحق من الرابع إلى السادس فهى تعرض وثائق خاصة بممتلكات عائلة المنظرى فى إسبانيا وتعود إلى الفترة ما بين عامى ١٥٤٤ و ١٥٧٦ .

***

هناك عامل مهم يضفى على هذا الكتاب أهمية خاصة، وهو يتمثل فى الوثائق البرتغالية التى يعرضها، والتى تتناول العلاقة مع تطوان فى القرن السادس عشر. لا نظن أن هذه الوثائق قد ترجمت إلى العربية، ونأمل أن تؤدى الفقرات المترجمة منها فى هذا الكتاب إلى إدراك أهميتها و - بالتالى - إلى ترجمة الكتاب كله من البرتغالية إلى العربية مباشرة.

هذا الكتاب يثير قضية مهمة إلى أقصى حد. إن أصحاب النفوذ فى المغرب العربى -طبقا لرواية المؤلف- قد تعاونوا مع الملك فيرناندو مما أسهم فى التعجيل بسقوط غرناطة، والأمر هنا شديد الوطأة على النفس، ويبقى أن يتسلح مؤرخونا بالوثائق لدحض هذا الرأى أو الاعتراف بصحته وإعادة كتابة تاريخ سقوط غرناطة. (إن صدق ما يرويه المؤلف فسيكون لدى مؤرخينا سبب آخر لكيلا يتحدثوا عن خيانة أبى عبد الله الصغير. يحضرنى هنا أن صديقنا غوثالبيس بوستو كان يرى أن الكتابات التأريخية العربية قد ظلمت آخر ملوك غرناطة ظلما واضحا، فقد حمّلته مسئولية ضياع غرناطة، فى حين أن سقوط المملكة الإسلامية لم يكن سوى محصلة لعقود طويلة من الضعف والتهاون من جانب أسلافه)(٥).

يذكر المؤلف - فى الملحق الوثائقى الثالث - أن المؤرخين المغاربة لم يتمكنوا من رصد تاريخ وفاة المنظرى وأنهم - لهذا السبب - حاولوا ملء الفراغات بأحداث بعيدة

الاحتمال، وهذا ما أثر فى الكتابات التأريخية المتعلقة بالمغرب. والمؤلف يعتمد على مصادر إسبانية وبرتغالية لترتيب الأحداث.

نستطيع أن نقول - بناء على هذا الكتاب (الفصل السابع) - إن الحرب التى أعلنتها فرنسا وفينيسيا ضد إسبانيا هى التى منعت فيرناندو الكاثوليكى من الاستيلاء على مملكة فاس.

إذن فهذا الكتاب مهم لتصحيح بعض الأخطاء الواردة فى الكتب التى تتعرض لتاريخ المغرب، أو يسد فراغات يمكن أن توجد فى هذه الكتب.

يطرح الكتاب الذى نقدم له قضية ينبغى التوقف عندها. هل كان مسلمو الأندلس يقدمون "جنسيتهم الإسبانية" على هويتهم الإسلامية؟ هل كان أبو الحسن على المنظرى مؤسس تطوان على استعداد لتسليم المدينة لفيرناندو الكاثوليكى؟ يقول المؤلف إن تسليم المدن والقلاع لم يكن شيئا غريبا على القادة المسلمين فى شبه جزيرة إيبيريا ، وبالتالى فهو مستعد لقبول فكرة أن المنظرى كان بصدد تسليم تطوان للملك الإسبانى.

على المؤرخ العربى أن يدلى بدلوه فى هذه القضية، وإن كان هذا لا يمنع من أن نتساءل: إذا كان المنظرى ممن يبيعون أنفسهم بهذا الشكل المخزى، فلماذا هاجر إلى شمال إفريقيا حيث المعيشة الصعبة؟ ألم يكن من الأنسب له أن يعرض خدماته على الملك فيرناندو وينضم إلى حاشيته؟

***

لعل المشكلة الأولى التى يصادفها من يتصدى لهذا الكتاب الذى نقدم له تتمثل فى قلة المصادر العربية التى كان يمكن أن تحل قضية كتابة أسماء الأعلام، وقد حاولنا التغلب على المشكلة كما حدث فى كتاب غوثاليبس بوستو الأول، فاجتهدنا قدر الإمكان فى التعرف على الاسم الصحيح لكل شخصية تاريخية بارزة، أما أسماء الأعلام الأقل أهمية فلم يكن التعرف عليها بالأمر اليسير، لكننا اجتهدنا على أية حال، ونحسب أننا

وفقنا فى بعض محاولاتنا، بل نحسب أننا فى هذا الكتاب الثانى كنا أوفر حظا من هذه الناحية، فقد رجعنا إلى مصادر لم تكن متاحة عند ترجمة الكتاب الأول، وهكذا تمكنا الآن من كتابة كثير من أسماء الأعلام بشكل صحيح.

الكتاب مفيد بلا شك، ونحسب أنه يمثل إضافة إلى مكتبتنا العربية الخاصة بتاريخ المغرب العربى وبالنتائج التى ترتبت على سقوط غرناطة الإسلامية.

لست فى حاجة إلى إعادة تقديم الدكتور غوثالبيس بوستو إلى القارئ العربى، لكننى أكرر هنا أنه كان يرسل إلىّ أبحاثه أولا بأول ومعها كلمات طيبة كإهداء، وحدث أن سمعت عن هذا الكتاب الذى نقدم له اليوم، وأدهشنى أنه لم يرسل إلى نسخة كعادته، فكتبت إليه أعاتبه، وحمل إلى البريد نسخة بدون إهداء ففهمت أن الأسرة هى التى أرسلت الكتاب وأن صديقى قد رحل عن عالمنا مأسوفا عليه.

لا يسعنى فى النهاية سوى أن أعبر عن جزيل الشكر والامتنان مرة أخرى لكل من أرملة المؤلف وابنه الدكتور إنريكى غوثالبيس أستاذ التاريخ بجامعة غرناطة على تعاونهما فى إصدار هذا الكتاب.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

جمال عبد الرحمن

القاهرة فى الثانى عشر من رجب عام ١٤٢٨ هـ .

الهوامش

(١) انظر دراستنا " صدى سقوط غرناطة فى الأدب الإسبانى"، أعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية، تونس، ١٩٩٣. انظر كذلك كتاب سوليداد كراسكو " مسلم غرناطة في الآداب الأوربية" ترجمة شرين محمود الرفاعى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، وكتاب سوليداد كراسكو "المسلم عدوا وصديقا" ترجمة وتقديم عبد العال صالح، مراجعة جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥ .

(٢) Anónimo: Abencerraje, edición de López Estrada, ed. Cátedra, Madrid, 1982.

(٣) انظر على سبيل المثال بحث الدكتور رأفت غنيمى الشيخ فى المؤتمر الذى عقد فى تونس بمناسبة الذكرى المئوية الخامسة لسقوط غرناطة لإسلامية .

(٤) السيدة الحرة هى عائشة بنت الأمى على بن راشد الحسنى، تزوجت من القائد أبى الحسن المنظرى حاكم تطوان.

(٥) جاء ذلك فى مداخلة طويلة للمؤلف الراحل تعقيبا على رغبة أحد المخرجين التونسيين فى عمل فيلم عن سقوط غرناطة، وكان ذلك ضمن أعمال مؤتمر عقد فى تونس نظمته رابطة الجامعات الإسلامية بالتعاون مع مركز الدراسات الموريسكية والعثمانية والتوثيق والمعلومات بمناسبة الذكرى المئوية الخامسة لسقوط غرناطة الإسلامية.

إلى أبنائى

الذين ولدوا فى تطوان

مقدمة الطبعة الثانية

فى عام ١٤٩٢، فى نفس الوقت الذى كانت تولد فيه آمال عريضة فى البلاد المسيحية الغربية، كان جزء كبير من المغرب الإسلامى يهوى. بينما كان ينشأ عالم جديد، كان ينهار عالم آخر. إن التاريخ لا يمكن أن يكون محايداً مهما سعينا نحن الذين نزاوله إلى الموضوعية والتخطيط العلمى.

فى الأيام الأولى من عام ١٤٩٢ عندما كان المسيحيون يحتلون غرناطة، كان عند كثير من سكانها التقليديين الأمل اليائس فى وجود تعايش بين الأديان فى المستقبل. باستثناء الانفجارات الوقتية التى نشبت من عدم التسامح، كانت الأندلس فى عصر ازدهارها نموذجًا للتعايش بين مسيحيين ومسلمين ويهود، نموذجًا لاحترام الاختلاف. إن ملوك قشتالة كانوا قد أصبحوا كذلك يحترمون رعاياهم من الديانات الثلاث.

بالإضافة إلى ذلك فإن اتفاقية تسليم غرناطة، التى أُبرمت فى سانتافيه، كانت تشير لذلك بشكل حاسم: المسلمون مثلهم مثل اليهود الغرناطيين، سوف تُحترم نزاهتهم وملكيتهم ودينهم وعاداتهم.

لكن إلى جانب المتفائلين الذين وقعوا الاتفاقيات، مقتنعين بأنهم كانوا يقدمون إلى مواطنيهم الغرناطيين معروفًا كبيراً، كان هناك آخرون كثيرون، متشائمون جداً. كان البعض منهم قد استبق الأحداث بشكل جيد. لقد أدركوا منذ سنوات سابقة أن عالم مملكة غرناطة، الجزيرة المنعزلة الأخيرة للسلطة الإسلامية فى شبه الجزيرة الأيبيرية، كان ينهار بشكل لا يمكن تفاديه.

كان أحد هؤلاء بالتحديد هو على المنظرى، قائد قلعة بينيار القوية وإقليمها. كان هذا الرجل ينتمى لواحدة من أنبل العائلات الغرناطية التى كانت تمتلك أراضىَ فى مناطق شتى بالمملكة. كان المنظرى شاهداً على أنه فى سبتمبر من عام ١٤٨٥ كانت قلعته، وكل منطقة الجبال الشرقية تقع بشكل لا يمكن تجنبه فى حوزة المسيحيين.

لم يشأ أن يرى ما سوف يأتى بعد ذلك: توطين المسيحيين فى مجموعة الـ "سبع مدن" التى بحثها مؤخراً رفائيل غ بينادو ببراعة كبيرة. كان المنظرى محارباً وزعيماً سياسياً بكل ما تحمل الكلمة من معنى. لقد تغلب الحدس على حبه لأرضه. كان سقوط بينيار وإثنايوث وكل محيطها بالنسبة إليه مؤشراً لما كان يقترب. لم يقبل الخضوع للمسيحيين، الذى كان يعد اتجاهاً فى ذلك الوقت، ولم يقبل أيضًا المهمة النومانثية البطولية وغير المفيدة على حدٍ سواء، للدفاع عن غرناطة.

قرر المنظرى الإبحار مع جزء من جيشه والعبور إلى المعين الشمالى الغربى للمغرب. كانت البديهة والإحساس تحددان له عديداً من الأفعال، كان أحدها خطأ بلا شك: لم يكن يتعيَّن عليه الابتعاد أكثر من اللازم من أجل إمكانية العودة. فى وادى تطوان، الذى كان قد هاجر إليه من قرون مضت قديسون غرناطيون، وجد ما كان يبحث عنه. السهل الخصب كان يُذكِّره بغوطته الغرناطية. كانت المدينة فى حالة دمار من جرَّاء الهجمات البرتغالية.

عرف فلاحو المنطقة المنظرى مجاهداً. لقد رأوا فيه قائداً ذا صفات عظيمة ويتمتع بمكانة. رأوا فى جنوده الغرناطيين جبهة آمنة ضد هجمات برتغاليى سبتة، الذين كانوا فى كل وقت ينهبون محاصيلهم ويسرقون منهم المواشى. بدأ المنظرى فى رفع أسوار المدينة من جديد وانتشرت البيوت. بدءاً من عام ١٤٩٢ حضر مواطنون جدد قادمون من مملكة غرناطة ليعيدوا تعمير هذه المدينة التى كانت فى مرحلة ازدهار: تجار، صنَّاع، فنانون، يهود...

بعد ذلك بسنوات، سبب ضغط المسيحيين هجرة حتى لقرويين غرناطيين. نعلم، أن مسلمى ماراسينا Maracena عبروا بأعداد كبيرة ليستقروا فى تطوان. لكن كل

موجة من اللاجئين، مع أنها كانت تزيد من قدرته، لم تكن تجعل محارب بينيار العجوز، بشكل أو بآخر، يتخلى عن يأسه. إن القتال ضد "الحاميات" البرتغالية فى سبتة والقصر الصغير وطنجة وأصيلة، لم يكن يحرز انتصارات بل كان النزاع ينتهى بالتعادل. لم يكن البرتغاليون يقدرون على تطوان، وكانت هذه المدينة تتحول إلى مركز نشط لبيع الأسرى، إلا أن المنظرى لم يكن يستطيع أن يسدد ضربة بارعة تؤدى إلى استيلائه على أحد مواقع البرتغاليين.

كان القائد القديم لبينيار، مُعيد تأسيس تطوان وحاكمها القوى، ييأس شيئًا فشيئًا من العودة. ينبغى الإعجاب بشجاعته واحترام هذه الدراما الإنسانية لمنْ لمح، قبل أى شخص، سقوط نظام، لكن لم يتحمل أبداً ما كان يعرفه جيداً كل الذين كانوا يحيطون به: استحالة العودة.

هكذا يبرهن لنا هذا المنظرى المُسن الذى كان يستدعى إلى جانبه الأب كونتريراس لكى يحدثه بإسهاب عن أرضه الغرناطية. حتى أن القس رأى طموحات القائد فى العودة قوية جداً، لدرجة أنه صار يثق فى ارتداده إلى المسيحية(*).

من المحتمل أن هذه التفاصيل هى المكان الذى نجد فيه العظمة الكبيرة، الإنسانية، فى شخصية غرناطية عاشت فى ملتقى منطقة، المنطقة الإسبانية - المغربية، فى ظروف كانت بالنسبة إلى الكثيرين المهزومين، درامية على نحو خاص.

إنريكي غوثاليبس كرافيوتو

غرناطة، ديسمبر ١٩٩٢

(*) الحنين إلى البلد لا يعنى بالضرورة الرغبة فى التنصر ، فلو كان الأمر كذلك لما خرج من غرناطة أصلا . (المراجع)

مقدمة المؤلف

تُحْدِثُ كتابة التاريخ من وجهة نظرى سلسلةً من حالات الرِّضى المختلطة بسلسلةٍ أخرى من حالات التردد وخيبة الأمل. فبينما تتسبب الحالات الأولى على نحوٍ خاص فى اكتشاف بيانات جديدة تأتى بشىء موصوفٍ إلى أحداث الماضى، تتسبب الثانية فى الشعور الدائم بعدم جودة العمل والشكوك فى الموضوعية ذاتها أو فى التحليل السليم للبيانات الموجودة.

ويُصْبِحُ كل هذا أكثر وضوحًا عند الكتابة أو البحث فى التاريخ الدقيق، بحيث يكون من السهل جداً سكْب العاطفة ذاتها، عندما يتدخل منْ يقوم بالسَّرد فى الخبر أو المبتدأ الذى سَرَدَه. يبدو أنّ هذا الأمر لا يمكن تجنبه.

فى حالة كتابة سيرة حياة فإن تجنب الميل أو الرفض من جانب كاتب السيرة لا يزال يُعَدُّ أشد استحالة حيث إنه فى أحيان كثيرة وبحجة الحيادية يُغْرِق أو يُمجِّد الشخصية.

تهدف الدراسة الحالية إلى أن تكون سيرة حياتية. سيرة حياتية غريبة نوعًا ما حيث إننا نكاد لا نعرف بيانات شخصية عن صاحب السيرة. لكن هذه البيانات القليلة التى أخذنا نجمعها بطول أناةٍ على مدى سنين طويلة تقودنا أيضًا، إلى حدٍ ما، إلى سيرةٍ بضعة آلاف من الكائنات البشرية التى عاشت وقاست وماتت فى فترة صعبة من عصرها.

إن كل لحظات المسيرة الإنسانية صعبة حقيقةً.

نستطيع أن نقول، مقتبسين التشبيه الوارد بالكتاب المقدس، إن الإنسان يَلِدُ التاريخ بألم أحشائه. كان الإنسان الأوروبى فى نهاية الفترة الثانية من العصر الوسيط يخرج من نهاية طريق شاقٍ وخشن ليبدأ طريقًا آخر مليئًا بالآمال والطموحات.

إن الموقف الأوروبى الإسبانى يُعَدُّ موقفًا مماثلاً، لكنْ به – كإضافة – واقعتان أساسيتان: الأولى هى الإنجاز بنجاح لحربٍ قاسية وممتدة، من أجل الحفاظ على هذه الهوية الأوروبية بالتحديد؛ الأخرى، هى التوسع إلى عوالم جديدة ذات نتائج لا تُحسب سواء للشعب الإسبانى نفسه، أو للعالم عامةً.

لا شك فى أن كلتا الواقعتين، سوف يكون لهما وقع سلبىّ على الأقليات الإسبانية التى عاشت، إحداها بالحرب والأخرى بدونها، مع المسيحيين على مدى كل الفترة الثانية من العصر الوسيط، أى من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر.

لقد وجدت الأقلية اليهودية والأقلية المسلمة على حدٍ سواء نفسيهما مهمشتين من المؤسسات الوطنية الكبيرة، وتحولتا، خاصةً الأقلية الثانية، إلى شريحة اجتماعية مرفوضة من قِبَل باقى مواطنيها.

لا نريد أن نعرض لهذه المشكلة التى قام بتحليلها العديد من المؤرخين، بل أن نذكرها كمنشأ ومصدر لهذا الإبعاد الإسبانى المسلم المستمر الذى يأخذ بدءًا من القرن الثالث عشر فى إفقار إسبانيا المسلمة ديموغرافيًا ويثرى، بشكلٍ ما، الدول القريبة بشمال إفريقيا.

على رأس كل العلامات الأخرى، توجد علامتان تاريخيتان تميزان المرحلة الأكثر حِدَّة لظاهرة الإبعاد الإسبانى هذه، إحداهما هى السقوط النهائى لمملكة بنى نصر فى غرناطة، والأخرى هى الطرد الكلى الذى أصدره الملك فيليبى الثالث فى عام ١٦٠٩ .

إن السيرة الحالية فصل من الواقعة الأولى. إن إثبات أن المسلمين الذين رحلوا كانوا إسبانًا مثلهم مثل المسيحيين الذين بقوا، يُعدُّ أمرًا خارجًا عن نطاق دراستنا.

من خوليان ريبيرا حتى اليوم، يتعين علينا أن نتفق على أن النزاع لم يكن عنصريًا، بل دينيًا واجتماعيًا.

إن نتائج هذين العاملين على الطبيعة الوطنية شحذت مواقف كلا الفريقين.

إن مغامرات الغرناطيين التى سوف نراها منعكسة فى الفصول التالية، مغامرات لإسبان فى أراضٍ غريبة. لا نهدف بذلك إلى أن نضع أنفسنا فى موقفٍ قومى ومفرط فى الوطنية، بل أن نعرض ببساطة حقيقة واضحة جداً.

لقد كانت إسبانيا، بسببٍ أو آخر، بلداً ذا هجرة غزيرة ومستمرة وقد نسى التاريخ، عمومًا، منْ رحل إلى الخارج.

نَسِىَ التاريخ، على سبيل المثال، أولئك الغرناطيين الذين أسسوا تطوان، أو فتحوا جزءًا من النيجرNiger، بعد أن كسبوا معركةً حاسمةً ضد الأسرة الحاكمة المغربية. سوف ينسى التاريخ فيما بعد، أهل إكستريمادورا الذين أسسوا الرباط، بعد أن عاشوا كجمهورية مستقلة فى مواجهة القوى الأجنبية.

إذا كانت البطولات الإسبانية فى أمريكا يتم الإعلان عنها، لماذا لا يتم عمل نفس الشيء مع الوقائع التى لا تقل روعة لإسبان مسلمين فى إفريقيا ؟.

نستطيع أن نرد على أنفسنا بأنَّ السبب كان بالتحديد هذه الرؤية القومية الضيقة التى كثيراً ما شوَّهت تاريخ الشعوب.

لكننا نحن أنفسنا ننزلق، فيما يبدو، نحو ما هو سطحى وفارغ، بينما مقصدنا هو شيء آخر تماماً.

نتساءل ما إذا كانت الهجرات الإسبانية المسلمة إلى شمال إفريقيا تشكل رداً على الاختراقات الإفريقية فى شبه الجزيرة، وأن كلا التيارين هما أيضًا جزء من ظاهرة طويلة البقاء، مشتقة من الوضع الجغرافى الإستراتيجى لشبه الجزيرة بالنسبة إلى القارة الإفريقية؛ إنه جُهد أوروبا من أجل تثبيت جبهتها الطبيعية مع إفريقيا بشكل حاسم.

لكن، وأمريكا؟. لماذا ينزف الإسبانى هناك ولا يحدث ذلك فى القارة الإفريقية الأكثر قربًا؟

ليست هناك أية إجابة نراها صالحة بالكامل. عمليًا يتم التخلى عن الجبهة البحرية البحر متوسطية، بعد أن وثقوا، مثل السيد برناردينو دى مندوثا، فى هذا الخندق المائى الذى يبلغ طوله ١٤ كم ويتم البدء فى طريق العالم الجديد.

تُهمل إفريقيا نفسها، تتحول إلى بلد البرابرة، بلد القراصنة، الذين يتعيَّن الوقاية من غاراتهم بالأبراج التى تنتشر على كل الساحل الإسبانى.

أن نوضح الآن إذا ما كانت إسبانيا قد أدت أولاً دورها التاريخى بالنسبة إلى إفريقيا، بالتحديد لشمال إفريقيا، يبدو إذن أمرًا خياليًا وبعيداً عن الواقع؛ ليس هذا هو الموضوع. وإذا تركنا الوصايا الملكية جانبًا، فإن إسبانيا أدت دورها، أو أدوارها، فى التطور التاريخى للشعوب ومثَّلت دورها تمامًا كما فعلت باقى بلاد العالم.

بيد أنه إذا كان التاريخ ينبغى أن يُؤخذ كعبرة، فليقدم ويبرز الأحداث التى طورها الإسبان فى كل العصور وفى كل الأماكن.

وليكن هذا الحدث الخاص بتأسيس مدن فى شمال إفريقيا على أيدى المهاجرين الغرناطيين واحداً منها.

الفصل الأول

تطوان، تأسيس غرناطي

الموقع الجغرافى:

يتشكل شمال المغرب من الطرف الشمالى الغربى للقارة الإفريقية. إنه مثل كتلة عملاقة تريد أن تمتد إلى ما بعد مضيق جبل طارق، هذا القطع الذى يتشكل مع الأراضى الجنربية، يلتقى مع شبه الجزيرة الأيبيرية.

لو أغلق مضيق جبل طارق، فسوف يرسم، فى كلا الجانبين، قوسين فسيحين على شكل علامة x، دون التميز كثيراً بين الفرعين الشماليين والفرعين الجنوبيين للقوسين.

المنحنى بفرعيه نحو اليسار له خصائص أطلنطية متساوية فى الشمال كما فى الجنوب. المنحنى الآخر له، كذلك، محددات جغرافية متماثلة على جانب وآخر من نقطة الانحناء. فى أحد الجانبين، يشكل النظام الخاص بسلسلة جبال سيرا نيبادا الحافة الجنوبية لشبه الجزيرة وفى الجانب الآخر تكوّن سلسلة جبال الريف، التى تجرى قريبة من البحر، أقاليم ذات تشابه كبير. نفس النطاق الجبلى، الذى تتجاوز قممه، كثيراً، ارتفاع ١٥٠٠ متر. ساحل بحر متوسطى شديد الانحدار، دون مأو جيدة، بمناطق داخلية شديدة الوعورة وأنهار جارفة تجرى فى مضيق فى الجبال الصعبة وبانحدار هائل.

تقريبًا فى الطرف الغربى للقوس الجبلى للريف، تتقاطع منطقة الريف مع وادى نهر لاو Lau، الذى يعد واحداً من أهم الأنهار لسعة حوضه التى تبلغ أكثر من ٩٥٠ كيلو متر مربع، بسبب حجم ثروته المائية التى تصل إلى ما يقرب من ٤٠٠ مليون متر مكعب سنويا. مع ذلك، له كل خصائص الأنهار البحر متوسطية: ثروة مائية متزايدة

في الشهور الأولى من السنة، وتتلاشى تقريبًا في فترة الضحالة، أرض خصبة في مصب النهر ذات امتداد صغير، مجرى قصير من منبعه في جبل ماغو Mago حتى البحر، بالكاد يبلغ طوله ٧٠ كيلو مترًا في خط مستقيم.

وهناك نهر آخر أصغر من سابقه يصب على بعد أكثر قليلا من ٥ كيلو مترات شرقي نهر اللاو، ألا وهو نهر تارغة، ويوجد نهر آخر، مولود كذلك في بطن الجبل، وهو نهر التيغيساس، ويصب على بعد يقترب من ١٠ كيلو مترات شرقي نهر الترغة. بالكاد يصل طول مجرى هذا النهر الأخير إلى ٢٠ كيلو مترًا. يعد نهر التيغيساس أكبر نوعا ما. كلاهما به خلجان مجردة من أي مأوى، بعضها معرضة لرياح الشرق والأخرى لرياح الغرب.

سلسلة جبال ريف، التي يقطعها جرف نهر اللاو، تعود إلى الارتفاع بشكل هائل، عند جبل كيلتي المهيب الذي يبلغ ارتفاعه ما يقرب من ٢٠٠٠ متر، وتمتد في شكل قوس نحو الشمال، مع جبلي بني حسن وبني حزمارHusmar، إلى أن يقطعها من جديد وادٍ آخر، وهو وادي نهر مرتيل. قبل هذا الوادي هناك نهران صغيران يخرجان من الساحل، رأس مكاد Mekad ورأس مازاري Mazari، وهما يشكلان خليجين صغيرين جدا، وهما خليج تمرابيط وخليج إمسا. كلاهما منفذان بسيطان لمياه السيول. خليج إمسا له جدول صغير يصب في الدلتا، إلا أنه ليس لأي من الخليجين قيمة كمأوى بحري.

يتشكل وادي نهر مرتيل من هذا النهر الذي يستمد مياهه من ثلاثة سيول : الخميس والشكور والنخلة. ينبع الأول من منحدرات جبال أنجرة، والثاني من جبال بني إيدر والثالث من بني عروس. سيل الخميس يأخذ اتجاهه من الشمال إلى الجنوب. أما سيل الشكور فيتجه من الجنوب إلى الشمال، هكذا مثل سيل النخلة، ويأخذان اتجاهًا من الغرب إلى الشرق عندما يتحدان، وينحرفان بشكل طفيف نحو الشمال الشرقي ويعبران الوادي مكونين تعرجات شديدة.

الخميس والشكور يتحدان قبل ذلك، ويشكلان ذراعًا واحدًا يتحد معه سيل النخلة على مسافة ٣.٢ كيلو متر من تساقط المياه. فقط حينئذ يبدأ يأخذ شكل نهر، مع أنه ذو خصائص طبيعية بحر أوسطية.

عدم الاستواء القليل الموجود منذ أن تتحد الروافد الثلاثة الجبلية حتى المصب يسبب المنحنيات العديدة والمغلقة التى يشكلها (النهر).

يعد حوض نهر مرتيل أكثر اتساعًا من حوض نهر اللاو، حيث تبلغ مساحته ١٠٨٨ كيلو متر مربع وبالرغم من أن ثروته المائية أصغر، ٣٥٠ مليون متر مكعب سنويًا، فإن الوادى الذى يشكله يبقى أكثر اتساعًا ومفتوحًا على البحر، ويشكل ريفًا صالحًا لكل أنواع المحاصيل.

بعد مرور النهر يستمر القوس الجبلى، إلى شمال تطوان، بجبل درسة الذى يبلغ ارتفاعه ٥١٢ مترًا ويغير الآن اتجاهه من شمال غرب إلى شمال شرق فى سلسلة جبال الهاوس Haus، حتى ينتهى عند جبل موسى، تقريبًا عند قمة مضيق جبل طارق، غربى سبته.

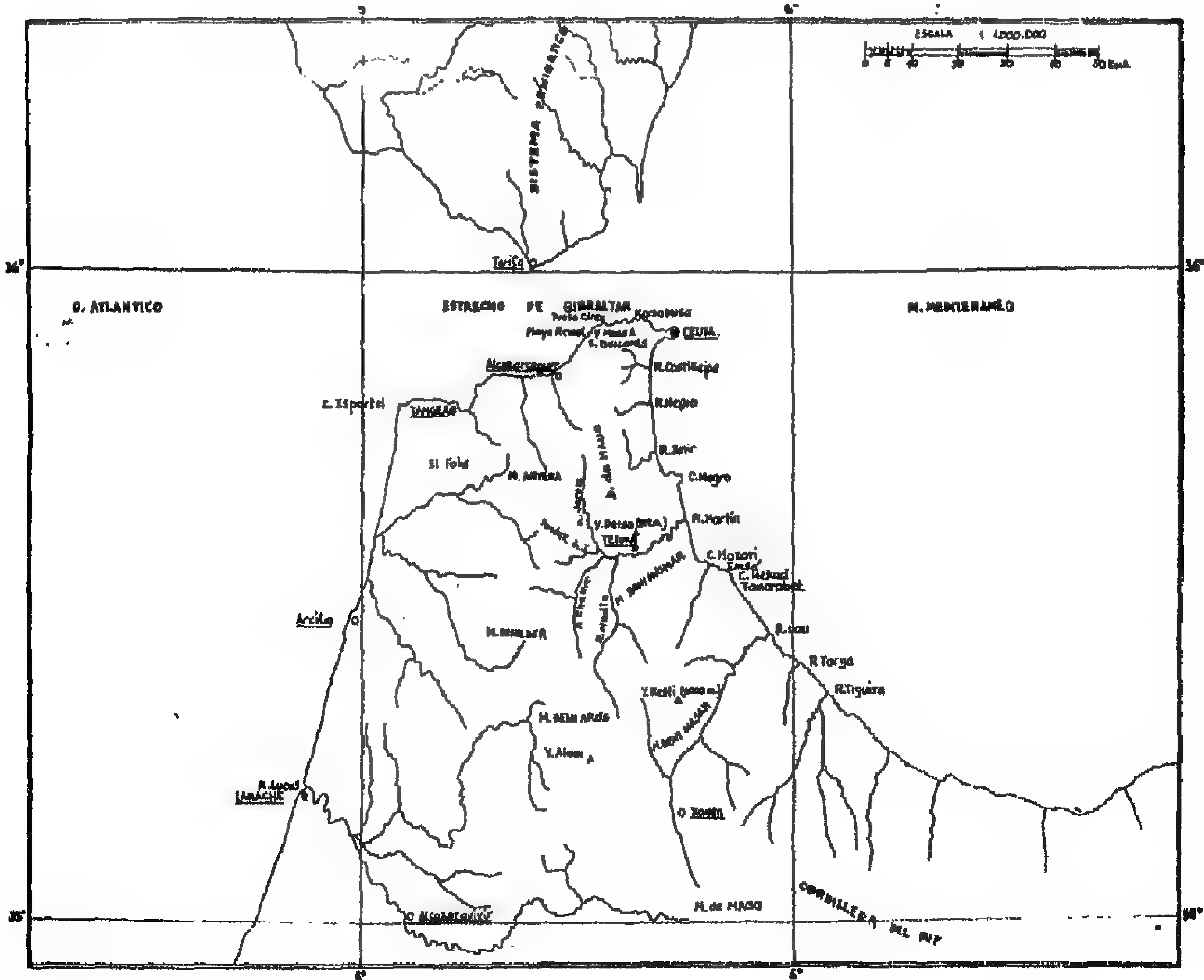
من غوطة نهر مرتيل حتى سبته توجد بعض الشقوق النهرية الجارية مثل شقوق إسمير Smir والنيكرو والفنيدق، التى تكون أودية صغيرة مفتوحة على شاطئ رملى شبه مستديم، من رأس مازارى حتى الفنيدق، مع الاقتحام الصخرى الوحيد لكابو نيكرو الذى يرتفع إلى ٣٠٠ متر فوق سطح البحر، مشكلا جروفًا شديدة الانحدار.

هذا الإقليم الذى نقوم بوصفه مدرج تقريبًا فى المربع الذى يشكله خطًا العرض ٣٥ و ٣٦ درجة عرض شمالا وخطًا الطول ٥ و ٦ درجة طولية غربيًا.

لو رسمنا فى هذا المربع خطّى الطول ٣٦ و٥، فسوف نقسم هذا الشمال المغربى إلى قسمين وسوف نستطيع أن نشير إلى نصفين مختلفين بوضوح، لأن الجزء الشرقى أو البحر متوسطى الموصوف، مختلف جوهريًا عن الجزء الغربى أو الأطلنطى، الذى يشكل الفرع الجنوبى للقوس الآخر الكبير للعلامة العملاقة x .

عند الانطلاق من ملتقى راس اسبارطيل مع دائرة خط الطول بمقدار ست درجات طولية غرباً، فان الساحل الأطلنطي المغربي يهبط من الشمال إلى الجنوب، في شواطئ رملية فسيحة ومستنقعات كبيرة، منفصلا شيئًا فشيئًا بزاوية مقدارها خمس وعشرين درجة عن خط الطول المذكور، حتى العرائش، في مصب نهر لوكوس Lucus بمقدار عشر دقائق عن الدرجة السادسة لخط الطول.

هذا المعين المنحرف الصغير الذي يكوِّن أقصى بعديه في القاعدة الكبرى والارتقاع، وبالكاد يتجاوز مقياس درجة أرضية، هو نموذج صغير للمغرب البحر متوسطي والمغرب الأطلنطي، من حيث طبيعة جباله وطبيعة مياهه السطحية وحتى مناخه، ونخص بالذكر هذا الأخير لوجود مضيق جبل طارق في القاعدة الصغرى للمعين المنحرف.



إنه مضيق يبدو، على العكس، رافداً عريضاً للنهر، خاصة فى الأيام الساطعة والصافية عند هبوب الرياح الغربية، التى يرى فيها أحد الساحلين من الساحل الآخر بوضوح وتفصيل يقرب الأشياء.

من جزيرة طريف فى نفس خط العرض ٣٦ حتى ثيريس Cires غربى سبتة هناك مسافة قدرها أربعة عشر كيلو متراً .

الجزء الساحلى من المضيق كله صخرى تقريباً. ليست له أية علامات بارزة سوى خليج القصر الصغير، وهو مصب لنهر صغير. شرق القصر الصغير، يوجد شاطئ رميل Remel وثيريس، ويتبعهما ميناء صغير، ميناء مرسى موسى، عند سفح جبل موسى، العملاق الجبلى الذى يشكل العمود الإفريقى للمضيق.

قبل الوصول إلى سبتة توجد سلسلة جبال بويونيس Bullones .

إنه ساحل، مثل ساحل المضيق، ذو مآو قليلة وبدون تيارات نهرية حقيقية.

المناخ والمحاصيل متشابهة فى قوسى العلامة × وقد تم وصفهما. التياران الهوائيان الغالبان هما المسميان غربى وشرقى، الأول جنوبى غربى والثانى شمالى شرقى.

الرياح الغربية تهب فى الخريف والشتاء، والرياح الشرقية تهب فى الربيع والصيف. الرياح الغربية أكثر منفعة لكونها محملة ببخار الماء الذى يولد الأمطار التى تساعد على الإنبات. الرياح الشرقية أكثر ضرراً، فهى تحرق النباتات والبراعم فى الربيع وتزيد درجة الحرارة فى الصيف.

درجة الحرارة المتوسطة لا تنخفض عن عشر درجات فى الشتاء ولا ترتفع عن سبع وعشرين درجة فى الصيف. مع ذلك، توجد مناطق جبلية تصل درجه الحرارة فيها فى فصل الشتاء إلى عشر درجات تحت الصفر، وأماكن من أودية الأطلنطى تصل درجات الحرارة فيها فى بعض الأحيان إلى ثمان وأربعين درجة فى فصل الصيف.

وذلك [لأن المعين القارى يشتمل على منطقتين تطلان على بحرين مختلفين لهما ارتفاعات متوسطة وطبيعة جبلية مختلفتان] .

إن قرب مضيق جبل طارق نحو القاعدة الصغرى للمعين المنحرف، وقرب المحيط الأطلنطى والبحر المتوسط - بضغوطهما المائية والجوية المختلفة - تنتج عنه تيارات جوية شديدة ومستمرة، أكثر شدة فى المضيق ذاته، وفى مضيق الفونداك Fundak وفى وادى نهر مرتيل.

إن العوامل المناخية والجبلية والمائية، والمتشابهة جداً فى كلا الفرعين الجنوبيين المغربيين للعلامة(*) مع مثيليهما الشماليين الأيبيريين، تجعل المجموعة النباتية والحيوانية متماثلتين تقريباً.

مع ذلك فقد بقيت آكلات اللحوم البرية فى المغرب أكثر منها فى جنوب إسبانيا. فعلى سبيل المثال، أمكن تسجيل وجود أسود فى منطقة طنجة والساحل الأطلنطى فى فترة متقدمة من القرن السابع عشر.

المنحدر الأطلنطى ذو مناخ معتدل وممطر وذو تضاريس سهلة، به أراض رملية وطينية، بدون جير، وفقيرة زراعياً، فيما عدا قيعان الأودية، خاصة قاع وادى لوكوس.

المنحدر البحر أوسطى أكثر ضحالة من سابقه، وذو أراضٍ جيرية فى الغالب وقلما يصلح للزراعة، وتؤثر فيه الجبال الوعرة.

المرور من منحدر إلى آخر فى الشمال يتم فى الميناء الجبلى للفونداك فى عين جديدة، الذى يتسلق القمم من قاع وادى المرتيل ليهبط إلى سهل فحص فى طنجة.

الاتصالات الأطلنطية سهلة جداً، على عكس الاتصالات البحر متوسطية حيث تتبع الطرق الأودية الضيقة ومضائق مجارى المياه.

توجد سهولة أكيدة فى التنقل بين سبتة وتطوان بطريق الساحل، لكن بمجرد أن نجتاز وادى نهر مرتيل تتوقف هذه السهولة أمام المستنقعات الصخرية والجبال العالية، ويصير التنقل أكثر صعوبة كلما توغلنا فى المتاهة المتشابكة للريف.

يتم الانتقال من وادى نهر مرتيل إلى وادى اللاو بالطواف حول الشوكة الجبلية لجبلى بنى حزمار وبنى حسن، وباستغلال مضائق رافدين، أحدهما لمرتيل والآخر للاو.

بدءًا من اللاو تزداد الطبيعة الجبلية تعقيداً حتى تتوج ذرى جبل تاسة [illegible] بارتفاعات أعلى من ألفى متر.

توجد مدينة الشاون على خط عرض ١٠َ ٣٥ْ شمالا وخط طول ١٥ ٥ْ غربًا، على وجه التقريب. وهى تنتمى إلى حوض اللاو، الذى يتبع أحد روافده أو مجاريه الواقعة فى المدينة ذاتها بالتحديد، على بعد ستة كيلو مترات من نهر اللاو، مع ذلك تبقى الشاون غير مرئية، حتى بالنسبة إلى من توغل فى وادى نهر اللاو. هكذا يكون تشابهها مع الجبال التى تحيط بها.

تشكل الجبال فى الشاون عنصراً آخر لطبيعتها الحضرية، فهى تغلق أكثر من شارع، وترتفع البيوت، وتتصارع مع السماء من أجل تشكيل سقف المدينة.

تقريبًا فى المواجهة، أكثر قليلا نحو الشمال الغربى تقع سرة هذا الإقليم الجبلى المعين المنحرف الشمالى، جبل علم Yebel Alam، بين مجموعة جبال بنى عروس.

فى الوادى الآخر، وهو وادى المرتيل، تقع مدينة تطوان. قريبة جداً من البحر بما فيه الكفاية، ١١ كيلو متراً، ومفتوحة بالتالى على اختراقات ممكنة. مشيدة فى سفوح جبل درسة، مرفوعة فوق نهر مرتيل. تبلغ إحداثياتها التقريبية ٢٥ ٥ْ درجة طولية غربًا و ٣٤ ٣٥ْ درجة عرضية شمالا.

تبعد ٤٠ كم عن سبتة، أو عن المضيق.

فى موسم الأمطار يمتلئ نهر مرتيل بكمية كافية من المياه بحيث تبحر فيه قوارب صغيرة.

إنها مدة قليلة فى الواقع، حيث إن الجزء الأكبر من العام وكذلك فى سنوات القحط التالية، يمكن الخوض فيه بسهولة نسبية. يشكل تياره الضعيف العديد من التعرجات فى الوادى، مما أدى إلى حدوث تغير المصب فى مناسبات عدة على مدى القرون.

هكذا سيكون مسرح الأحداث.

يبدو لنا أنه يتعين أخذ ذلك فى الاعتبار جيداً عند النظر فى كيف ولماذا يتحرك الأشخاص والشعوب. خاصة أنها ستكون الأرض التى سوف تستقبل آلاف من المبعدين الغرناطيين فى الأعوام الأخيرة من القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر.

تدمير خيالى وتدمير واقعى لمدينة:

هناك فترة فى تاريخ شبه الجزيرة الأيبيرية، مفعمة بأحداث حاسمة أكثر من كونها بارزة، بالنسبة إلى تطور أوربا الحديثة، وبالتالى، العالم المعاصر الحالى. إنها فترة بداية التوسع البرتغالى، بتمهيداته فى شمال وغرب إفريقيا، ونهاية حرب الاسترداد القشتالية واكتشاف عالم جديد.

بجانب هذه الأحداث الكبيرة ليس غريباً أن تبقى مظلمة أحداث أخرى، ظهرت على هامش الأحداث الرئيسية وتولى بطولتها بالتحديد أولئك الذين أزاحتهم الظروف من مكانهم التاريخى.

المسلمون الغرناطيون فى أواخر القرن الخامس عشر، الذين مزقتهم الحروب الأهلية، وانعزلوا تدريجياً فى عاصمتهم، أخذوا فى أحيان كثيرة طريق المنفى وتدفقوا، بكمية ليست بالقليلة، على سواحل شمال إفريقيا.

إن حظ هؤلاء المبعدين كان مختلفًا جداً . كثيرون عانوا من رفض السكان لهم: المدنيون والقرويون على حد سواء.

آخرون أعادوا بناء حياتهم بطريقة ما، حيث وجدوا استقبالاً ممتازًا، وأخيرًا، هناك آخرون استطاعوا أن يكونوا مراكز خاصة، وتوصلوا لإنشاء مدن فى شمال المغرب، مثل تطوان والشاون.

ليون الإفريقى، الذى ربما يكون المؤرخ الأكثر قربًا من الأحداث، من المؤرخين البرتغاليين، الذين لا يتكلمون عن ذلك، يقدم حكاية موجزة، لكنها وصفية بشكل كافٍ للتأسيس الغرناطى لمدينة تطوان.

(منذ مدة هاجم البرتغاليون المدينة واستولوا عليها . ظلت غير مسكونة لما يقرب من ثمانين عامًا، وبعدها قام بإعادة بنائها ضابط غرناطى جاء إلى فاس مع ملك غرناطة، عندما غزا فيرناندو، ملك إسبانيا هذه المدينة. كان هذا الضابط جنديًا بارزًا حقق أعمالاً بطولية أثناء حرب غرناطة. كان البرتغاليون يسمونه المنظرى. حصل المنظرى على ترخيص من أجل إعادة تأسيس حكومة المدينة والاستفادة منها . أعاد بناء كل أسوار تطوان، وبنى قلعة متينة جداً وأحاط بالخنادق هذه القلعة وكذلك سور المدينة. تباعًا حارب البرتغاليون دون هوادة. كثيرًا ما سبب ضررًا كبيرًا لسبته والقصر الصغير وطنجة. بالفعل، كان معه بشكل دائم ثلاثمائة فارس، كلهم غرناطيون وصفوة غرناطة. بتلك القوة كان يطوف البلد، ويعتقل مسيحيين عديدين كان يحتفظ بهم كأسرى وينهكهم فى أعمال التحصين. لقد رأيت، ذات مرة ذهبت فيها إلى المدينة، ثلاثة آلاف عبد مسيحى، يرتدون جميعهم قمصانًا من الصوف، كانوا ينامون فى الليل مكبلين بالسلاسل فى قاع حفر تحت الأرض. كان هذا الرجل كريما جداً لدرجة أنه كان يستقبل كل أجنبى كان يمر بالمدينة. توفى منذ زمن قليل بعد أن حرم من البصر، لأنه كان قد فقد إحدى عينيه، التى فقئت بسن خنجر وفقدت العين الأخرى الإبصار بسبب الشيخوخة. بقيت المدينة لواحد من أحفاده وهو اليوم رجل ذو شجاعة كبيرة)[1].

سنقوم بتفتيت النص إلى أجزاء متعددة من دراستنا، لأنه حتى الآن، كان يتخذ كقاعدة لتأكيدات كثيرة يتوجب تقويمها.

لقد كان البرتغاليون، بالفعل، هم الذين دمـــروا المدينـــة فى شـــهر يونيـــو من عام ١٤٣٧ .

لو اعتبرنا أن إعادة بنائها على يد المنظرى كان نحو عام ١٤٨٥، تقريبًا، تكون المدة التى ظلت فيها المدينة غير مأهولة أو خالية أقل من نصف قرن وليست ثمانين عامًا، كما يقول ليون الإفريقى.

بعض المؤرخين ارتكزوا على هذه المدة التى ظلت فيها تطوان مدمرة ليؤكدوا أن أسطول قشتالة، فى فترة حكم إنريكى الثالث، هو الذى دمر تطوان فى عام ١٤٠٠، وأنها لم يعد تأسيسها من جديد حتى وصل الغرناطيون. يبدو أن مارمول كارباخال، فى القرن السادس عشر، هو مصدر هذه النظرية التى تتكرر لاحقًا، من مؤرخ إلى مؤرخ، بداية، فيما يبدو، من عصر خيل غونثاليث دابيلا إلى أيامنا هذه.

(... فى عام الرب ألف وأربعمائة، نهبها أسطول من قشتالة وأسروا كل السكان تقريبًا ومن ذلك الحين ظلت أكثر من تسعين سنة غير مأهولة، إلى أن فاز الملك دون إيرناندو بمدينة غرناطة، حينئذ كان هناك مسلم غرناطى يسمونه المنظرى عبر إلى إفريقيا مع الملك عبد الله الصغير، حيث توسل إلى ملك فاس بأن ينعم عليه بالسماح له بتحصين وإعمار تلك المدينة، لأنه سوف يشن منها الحرب على مسيحيى سبتة، ولبى له الملك طلبه. وبعد أن أصلح الأسوار بأفضل ما استطاع، أنشأ قلعة بخندق حولها، حيث كان يأوى إليها وعادة كان يغير على حدود سبتة والقصر وطنجة بأربعمائة مسلم فارس أندلسى كان قد أحضرهم من إسبانيا ...)(٢).

مارمول هو الكاتب الذى يرجع الدمار الطويل لتطوان إلى هجوم بحارة إنريكى الثالث.

نرى أنه فى أوجه كثيرة يحاكى ليون الإفريقى، على الرغم من أنه فى نواح أخرى يسير على نهج الأخبار الواردة فى " التواريخ "، كما فى هذه الحالة الخاصة بتدمير تطوان.

مع ذلك، فكلا الخبرين متحدين خلقا غموضاً كبيراً لأنه غير التاريخ الحقيقى.

لم يدمر بحارة إنريكى الثالث الإسبان قلعة تطوان، التى تبعد عن الساحل بمسافة تتراوح بين عشرة واثنى عشر كيلو متراً. إن ما أبادوه، على فرض صحة غزوة عام ١٤٠٠ تلك، كان تجمعًا حضريا على ضفتى نهر مرتيل وبالقرب من مصبه، الذى كان يكون قاعدة التجمع والإمداد لقوارب القراصنة التى كانت تخرب مضيق جبل طارق. هذا التجمع ووادى نهر مرتيل كانا يأخذان اسم تطوان، مع مجموعة القرى التى كانت تتكاثر فيه. إن مدينة تطوان القلعة تظل حية منذ أن صممها السلطان المرينى أبو ثابت Abu Tabit فى عام ١٣٠٨(٣) .

براهين وفيرة على ذلك تقدمها لنا التواريخ البرتغالية التى، بعد غزو سبتة، سنة ١٤١٥، حددت فى تطوان البؤرة الرئيسية للمقاومة ضد غزوات الحامية البرتغالية بسبتة.

المؤرخ غوميس إيانيس دى ثورارا أو أثورارا، بكتابه "حكاية الكونت بدرو دى مينيسيس"، المكتوب فى يونيو من عام ١٤٦٣ وبكتابه "حكاية السيد دوارتى دى منيسيس" المكتوب فى أغسطس من عام ١٤٦٧، هو الكاتب الأكثر قربًا من الأحداث التى يرويها وبالنسبة إليه لا توجد تطوان خالية ولا مدمرة فى الربع الأول من القرن الخامس عشر.

على العكس، كثير من الأعمال البطولية التى حققها البرتغاليون انطلاقًا من سبتة تصدى لها الفرسان التطوانيون كمقاومين شرفاء.

فصل بالكامل، الخامس والثلاثون من أولى الحكايات المذكورة يتحدث عن "كيف ذهب السيد سانشو إلى سبتة، وكيف ذهبوا إلى تطوان ..."(٤).

السيد سانشو هذا، الذى كان إسبانيا، كان يبحث عن مغامرات أو غزوات مربحة، وهو ما كان أمرًا عاديًا فى ذلك الوقت وفى تلك الظروف. مع ذلك، كان يعتبر، أن "القيام بغارات على قرى كان بالنسبة إليه أمراً قليلاً لا يدعو إلى الفخر كثيراً... وبالتالى فقد قرر أن يغير على تطوان، لأنها كانت مكانًا محاطًا بأسوار وأبراج وكان بها كذلك قلعة مناجم وقواد ثغر ... "

لم تكن تطوان مدمرة ومهجورة.

حدثت الغزوة فى عام ١٤٣٥ وهو ما يعد تكذيبًا قاطعًا لتدمير تطوان فى عام ١٤٠٠ بواسطة الأسطول القشتالى وامتداد دمارها لمدة تسعين سنة.

التدمير الحقيقى للمدينة، الذى أدى إلى هجرها لمدة ثمان وأربعين سنة على الأقل، حدث بعد سنتين من هذه الغارة التى قام بها السيد سانشو، أى فى سنة ١٤٣٧، ويحكى كذلك فى الفصل قبل الأخير " حكاية السيد بدرو" للمؤلف أثورارا Azu-rara، والذى يحمل عنوانًا معبراً: "كيف ذهب السيد دوارتى إلى تطوان، وكيف استولى عليها ... ".

السيد دوارتى دى مينيسيس، ابن السيد بدرو، عاش مع أبيه فى سبتة، حيث الغارات المستمرة ومخاوف حرب الجبهة؛ هناك كبر ومن هناك خرج ليتوج حاكما لقلعة القصر الصغير، فى مركز الساحل الإفريقى نفسه لمضيق جبل طارق. مات وهو ينقذ حياة ملكه، مما جعل هذا الملك يكلف المؤرخ أثورارا بكتابة مآثره، التى صاغها بالفعل فى الحكاية الأخرى "حكاية السيد دوارتى ... ". أمرٌ منطقى أن فصل الاستيلاء على تطوان يظهر كذلك فى هذه الحكاية الأخيرة.

إن هذا الاستيلاء على تطوان وتدميرها حدث فى ربيع عام ١٤٣٧، وهو العام الذى سوف تحدث فيه الغزوة البرتغالية ضد طنجة، لهذا الغرض بدأ وصول قوات إلى سبتة منذ أول العام.

يحمس الكونت السيد بدرو ابنه السيد دوارتي لكي يفعل شيئًا بارزًا قبل أن تنتهي الغزوة بغية أن يلفت الأنظار إليه أمام نبلاء البرتغال، الذين كان يتعين عليهم الوصول في ذلك الصيف، يقول له: "ليس للمقاتل هنا شيء يفعله إلا في مدينة تطوان، اهجم عليها، وأعتقد أنك سوف تستولي عليها وتقاتل فيها بعض الناس الذين يدافعون عنها إلى أن يأتي النبلاء، أو سوف تدمرها؛ أي من الأمرين تفعل فإن الجميع سوف ينظرون إليك بتعظيم ... "

هكذا فهم السيد دوارتي الأمر؛ وكل الأمور الأخرى، ففي دائرة قطرها يُقدر بفراسخ كثيرة لم يكن هناك سوى قرى. تطوان فقط كان بها استحكامات، وبرج وخنادق ومحاربين جديرين بمواجهتهم.

بعد تجهيز الحملة تم تحقيقها بأفضل ما في حامية سبتة.

هرب قواد ثغر تطوان أمام انتشار القوات والوسائل التي كان يحملها السيد دوارتي، تاركين تطوان خالية، مع أن أبوابها كانت مغلقة.

وضع البرتغاليون السلالم على الأسوار، "... ولأنه لم يكن أمامهم عائق، دخلوا إلى المكان بهدوء وحطموا القليل الذي وجدوه وحرقوا البيوت والأبواب وعندما رأوا أنهم ليسوا في مأمن لكون تلك القلعة موجودة هناك، اتفقوا على تكسير البوابات، وتدمير كل ما يستطيعونه، وأن يعودوا إلى المدينة، وهو ما فعلوه ".

لقد فضل السيد دوارتي ورجاله التدمير على الاحتلال الدائم، لافتقادهم الوسائل التي تمكنهم من الاحتفاظ بحامية. لا قواد الثغر ولا أي عنصر بشري آخر حاول أن يسكن من جديد في تطوان. الأنقاض التي خلفها البرتغاليون في عام ١٤٣٧هي التي سوف يجدها الغرناطيون في عام ١٤٨٥ والتي سيحاولون إعادة بنائها وإعمارها.

لقد كان ليون الإفريقي على حق عندما أكد أن البرتغاليين كانوا هم الذين دمروا المدينة. أخطأ فقط في الفترة الزمنية التي ظلت فيها المدينة غير مسكونة.

وهكذا لأن تطوان كانت تشكل قبل عام ١٤٣٧ سياجًا أمام الغارات السبتية، فإنه بدءًا من ذلك التاريخ ستكون، على العكس، مكانًا للاتصال أو للراحة في طريق الذهاب أو العودة التي كان يطلبها البرتغاليون في غزواتهم العميقة نحو بني عروس وبني حسن. في عام ١٤٦٤، أمضى الملك ألفونسو الخامس نفسه، عند عودته من حملة، ليلة في أنقاض تطوان، ورحل في اليوم التالي إلى سبتة(٥).

نأمل ألا يعود أي مؤرخ، من الآن فصاعداً، لتكرار ما ذكره مارمول عن التدمير الوهمي لتطوان في عام ١٤٠٠، والذي يبدو أنه كان له حظ كبير من الانتشار.

لقد دمرت تطوان في عام ١٤٣٧ وليس في عام ١٤٠٠، على أيدي البرتغاليين وليس على أيدي بحارة قشتالة.

فيما يتعلق بالمنظري، لم يكن الإفريقي ولا مارمول على حق.

لم يعبر المنظري إلى شمال إفريقيا مع ملكه أبي عبد الله. كان المنظري قد أمضى سنوات في إفريقيا، لترأس حكومة تطوان، التي أعاد تأسيسها، عندما نزل الملك أبوعبد الله في كزازة Cazaza، غربي مليلة في عام١٤٩٣ .

تطـوان منشـــأة غـرناطـية:

لم تكن هناك محاولة من جانب البرتغاليين لإعمار تطوان ولا حتى لتحصينها. فأنقاضها، كما رأينا، كانت تستخدم كمرجع في طريق ذهاب وعودة قوات حامية سبتة عندما كانت تتوغل في البلد. الأسرة المرينية، الحاكمة في فاس كانت تجود بآخر أنفاسها. لا تكاد تكون لها قوة لتوطيد نفسها في العاصمة ولا حتى للتصدي بنجاح للغزوات البرتغالية التي تنطلق من مواقعها القوية.إنهم زعماء محليون وبلدات محاصرة تبدي بعض المقاومة للغازي المسيحي. في الشمال كان سيد الحرب هو سيدي علي بن رشيد، وهو شريف علمي، أي من جبل علم، ومركز نفوذه في قلعة الشاون، التي بناها

فى أخماس Ajmas فى عام ١٤٧١، وهو التاريخ الذى أشار إليه المؤرخون المغاربة. إنه بالتحديد نفس التاريخ الذى سقطت فيه أصيلة وطنجة فى حوزة البرتغاليين، الذين استغلوا الاضطرابات التى مهدت للأسرة الوطاسية، امتداد الأسرة المرينية.

الزوجة الأولى لسيدى على بن راشد كانت قادشية، ورزق منها بابنين، هما مولاى إبراهيم وست الحرة. بارتباطه بهذه الأخيرة، سوف يصاهر المنظرى الفرع الأكثر نبلا للإسلام فى شمال المغرب: الأشراف العلميين. كطبقة اجتماعية، كان لهؤلاء الأشراف مشاكل عميقة تفصلهم وتحول بينهم وبين الطبقة الريفية، التى كانت تشكل أغلبية سكان البلد.

الهجرة الغرناطية إلى سواحل المعين المنحرف الشمالى المغربى ستقع فى موقف سياسى واجتماعى وعسكرى متوتر بشكل كاف.

كان سيدى على بن راشد يعتمد فى فرقه العسكرية على محاربين كثيرين من مملكة بنى نصر.

هناك من يؤكد أنه كان هو الذى أعاد بناء أنقاض تطوان، ليوفر الحماية لرجاله الأندلسيين. لا التاريخ ولا التقليد يدعم هذه النظرية، بالإضافة إلى أن المدينة أعيد بناؤها على أية حال بأيدى الغرناطيين ومن أجلهم، حتى لو افترضنا أن ذلك كان بدافع آخر.

ها نحن قد عرفنا نظرية كاتبى عصر النهضة، ليون ومارمول، اللذين ربما يكونان الأكثر قربًا من الأحداث، حيث إن المؤرخين البرتغاليين لا ينبسون بنصف كلمة عن كلتا المنشأتين، سواء منشأة الشاون أو منشأة تطوان.

ينبغى علينا أن نفحص ما تقوله المصادر المغربية ومن بينها، بشكل خاص جدا، مصدر مؤرخى تطوان نفسها. وليس هناك أفضل من العلامة البارز داود الذى جمعهم كلهم، وأبرز نتائجهم الخاصة بهم والتى تقتصر على مضمون هذه السطور، وهو أن تطوان التى لا تزال موجودة حتى أيامنا هذه، هى منشأة غرناطية بحتة.

يحاول داوود من خلال تسعة أسئلة أن يلقى الضوء على الروايات والمظاهر الخاصة بتأسيس تطوان.

السؤال الثانى هو ما الثمن الذى تعين على الأندلسيين دفعه من أجل بناء تطوان؟ ويدخل رأى إسكيرتش Esquirech، وهو مؤرخ تطوانى آخر يرى أنه عندما شرع الغرناطيون فى البناء قاطعهم سكان الإقليم، فرفعوا قضيتهم إلى أمير الإقليم، الذى اعتذر لقلة ماله، إلا أنه سمح لناظر القرويين بفاس بأن يقرضهم من أموال الأحباس أربعين ألف مثقال؛ بالإضافة إلى ذلك أرسل لهم الأمير المذكور أربعين شخصًا من فاس وأربعين آخرين من الريف ليقوموا بحمايتهم من هجمات سكان القرى المجاورة لتطوان. هؤلاء السكان كانوا يشكون من أن الأراضى كانت ملكًا لهم واشترطوا ثمنًا لها.

يتناول داوود بعد ذلك الرواية التى يسميها "المخطوطة القديمة"، لكاتب مجهول؛ عندما وصل الغرناطيون من الأندلس تناثروا فى قرى الجبال، وذهبوا بعد ذلك إلى مولاى على بن راشد فى شيفشاون – الشاون – وطلبوا منه إعادة بناء تطوان بهدف أن يعيشوا فيها.

وهناك نظرية أخرى وهى الخاصة بالعلامة سيدى العربى الفاسى: نزل الغرناطيون فى المكان الذى أنشأوا فيه مدينة تطوان، التى كانت تنتمى إلى المجاهد سيدى على بن راشد، شريف علَمى، وأمير الجبل ومنشئ الشاون.



شارع جانبى ، فى المدينة القديمة ، يؤدى إلى القصبة

من جانبه يجمل داوود قوله هكذا: نزل المهاجرون الغرناطيون فى نهر مرتيل، أمام تطوان، وتوجهوا إلى الداخل إلى قرى جبلية مختلفة، وجاءوا بعد ذلك إلى سيدى على بن راشد، يسبقهم وفد من المهاجرين، من بينهم المنظرى، واتفقوا على أن يقوم المبعدون الغرناطيون الذين كانوا موجودين هناك ببناء مدينة تطوان المدمرة؛ إلا أن موضوعًا بهذه الأهمية كان يتطلب إذن صاحب السلطة الذى كان حينئذ محمد شيخ الوطاسى؛ فتوجهوا إليه فى فاس، حيث استقبلهم استقبالاً ودوداً وأمدهم برجال ومال؛ وساعدهم كذلك الشريف البارز مولاى على بن راشد(٦).

من خلال السؤال السابع لداود نجد تصميمًا على اعتراض الأهالى على مستعمرة الغرناطيين، كيف كان موقف سكان القبائل المغربية تجاه المهاجرين الذين جددوا بنايات تطوان؟

يؤكد كل من إسكيرتش والمخطوطة القديمة على حد سواء أن سكان القبائل ثاروا عند الشروع فى بناء المدينة، وادعوا أن الأراضى كانت تنتمى لهم وأنها كانت تستخدم ككلأ لمواشيهم؛ وأن إعمار المدينة كان يضرهم فى مصالحهم. ويذكر إسكيرتش قوم بنى حزمار على أنهم المعارضون لإعادة البناء الأندلسى، إلى درجة أنهم كانوا يدمرون لهم البيوت التى كانوا يرفعونها. وتذكر المخطوطة القديمة كذلك قبيلتى بنى صالح وبنى سالم. ويحكى سيدى العربى الفاسى أن بعض سكان هذه القبائل طلبوا مساعدة البرتغاليين فى سبتة من أجل طرد الغرناطيين. وتذكر المخطوطة القديمة أن المنظرى اشتكى إلى سيدى على بن راشد من ظلم الجيران وأمده ابن راشد بأربعمائة فارس من إقليم الريف، ومكن وجودهم إعادة بناء تطوان على أيدى الغرناطيين(٧).

ليس هناك أدنى شك عند داوود بالنسبة إلى المؤسس؛ يوجد توافق بين المؤرخين على أن زعيم الأندلسيين الذين أنشأوا تطوان الجديدة كان المنظرى.

حتى هنا ينتهى حديث داوود بكل ما يتمتع به هذا المؤرخ التطوانى الشهير من علم واسع وموجز لكل مصدر، خاصة المصادر الإسلامية. وإذا كان هو لا يستطيع أن يقنعنا بأن تطوان مدينة من أصل غرناطى، فإن لا أحد آخر سينجح فى فعل ذلك.

إن المنظرى وتطوان وغرناطة سيكونون إلى الأبد متحدين فى التاريخ.

أسباب التمركز الغرناطى فى المضيق:

بالإضافة إلى أسئلة داوود، نحن نطرح على أنفسنا سؤالا آخر يشير إلى تمركز الغرناطيين فيما نسميه المعين شبه المنحرف الشمالى المغربى.

ليس معنى ذلك أنه لم يكن هناك مهاجرون فى أجزاء أخرى من البلد؛ لقد كان هناك مهاجرون كثيرون جداً فى الأرياف والمدن، وفى المدن بالتحديد، لكن أكبر كثافة، بلا أى شك، كانت فى إقليم المضيق المذكور.

من الواضح أنها كانت منطقة حربية ولكونها كذلك، جذبت بشكل أساسى الذين كانوا يرغبون فى استمرار القتال، لكن لكونها الساحل الأقرب لسواحل مملكة بنى نصر، كانت أرضًا لمرور إجبارى تقريبًا للذين كانوا يرغبون فى التوغل فى البلد.

إن ما كان يخطر ببال هؤلاء الأخيرين كان يقدم اختلافات كبيرة مع البيئة التى كانت تحيط بالأوائل وإذا كان هؤلاء على العكس قد انخرطوا بسرعة فى الحياة المزعزعة التى يحملها معه كل ثغر، فقد كانوا ينعمون باستقلالية، وعلى وجه الخصوص، بطريقة معيشة مطابقة لمعيشتهم فى شبه الجزيرة. السلطة المركزية كانت أبعد بكثير، بقدر ما كانت تبدو أكثر ضعفًا. زعماؤهم الطبيعيون كانوا غرناطيين، كانوا يعيشون على الأسلوب الغرناطى، وكان قضاتهم وعدولهم يحاكمون على نمط شبه الجزيرة وعمومًا فإن ما هو غرناطى كان صفة لكل حياتهم اليومية.

غالب ظننا أن ذلك كان يحدث ليس فقط فى تطوان لكن أيضًا فى الشاون حيث ما هو غرناطى كان له الأولوية على ما هو مغربى فى كل شىء تقريبًا.

وهذا الذى كان يحدث فى مدينتى المعين المنحرف الشمالى، يمكن تطبيقه بكل تأكيد على الأرض التى كان يشملها كلاهما، أى، المعين المنحرف الشمالى، حيث الزعيمان، المالكان عمليًا لنفس المعين، كانا يرحبان ويسهلان الهجرة الغرناطية. كما لو أن بدونها ما كانت هناك إمكانية لنشأة المقاومة المسلمة ولا لنمو كلا نواتيها!

ليس من قبيل المجازفة تأكيد أنه حتى قبل تشكيل المدينتين حدث تشبع بالمبعدين من مملكة بنى نصر التى سهلته.

يرجع مينيثيس Menezes، مؤرخ سبتة، الهزيمة البرتغالية فى طنجة عام ١٤٣٧ إلى الأغلبية من الجنود الغرناطيين الذين كانوا يحمون المدينة ويتألم مينيثيس نفسه من التحسينات التى أدخلها المبعدون على التسليح المغربى(*) :"الأسلحة التى يستخدمونها هى سيوف ورماح. قديمًا كانوا يحضرون أقواسًا بمزاريق والتى بدلوها ببنادق، من صنع الغرناطيين المطرودين من إسبانيا، فأصبحوا بذلك أكثر قوة"(٨).

فى بيئة، إذن، تفتقد لمراكز حضرية، وذات تشبع كبير بالمهاجرين، كان الحافز تمثله الحفاوة الممتازة لعلى بن راشد، أمير الجبل والزعيم الكبير للشمال المغربى والذى سار على منهجه فيما بعد قائد قوات أبى عبدالله والقائد السابق لبينيار، على المنظرى. وأسهمت كل القوى فى التحول الكبير الذى شهده هذا الجزء من البلد بدفعة من المهاجرين. لا السلطة المركزية، ولا المجتمع المغربى، بشكل عام، تعين عليهما فعل شىء تجاه هذه الظاهرة. لقد سمحا بها على أية حال.

لننظر الآن إلى ما جرى لأولئك الذين لم يتوقفوا فى تلك الأرض المتوترة، القريبة من المضيق وقريبة بنفس القدر من ميادين المعركة التى كانت تنطلق من المواقع البرتغالية القوية، الواقعة من الناحية الاستراتيجية حول ذلك الممر البحرى.

(*) لمزيد من المعلومات حول أثر الغرناطيين فى تطور سلاح مسلمى شمال إفريقيا انظر كتاب "العز والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بالمدافع" وهو كتاب وضعه موريسكى بالإسبانية وتُرجم إلى اللغة العربية . (المراجع)

هذا كاتب من عصرنا يُدلى برأيه:

"اللاجئون الذين كانوا يتوزعون فى المدن المغربية المختلفة، لم يكونوا يجدون فى الدولة التى كانت فى حالة تفكك كامل، فريق استقبال يستطيع الاستفادة من خصائصهم العديدة. كانوا يطورون صناعة هامشية ولا يمكن التحكم فيها من قبل السلطات المركزية؛ كان ضعف هذه السلطات يؤجج فيهم شعوراً بالتمرد، إن لم يكن احتقاراً، وكان يؤجج فيهم على وجه الخصوص روح الاستقلال. بالإضافة إلى ذلك، كانوا يحققون بفضل رءوس أموالهم وثقافتهم ومعارفهم منافسة شرسة للتجار والصناع المحليين"(٩) .



مقابر غرناطية فى المقدمة ، وخلفها جزء من مدينة تطوان

مع أننا لسنا متفقين جداً مع بعض النقاط، إلا أننا نعم متفقون مع الفكرة العامة المعبر عنها في الفقرة السابقة. لم يجد المبعدون الذين كانوا يذهبون إلى مناطق حضرية أو ريفية أخرى من المغرب الاستقبال الحار الذى كانوا ينتظرونه، كأخوة بؤساء، في دار الإسلام، ولا التسهيلات التى كانوا يظنون أنه كان من الواجب تقديمها لهم، لكى لا يعيشوا تحت حكم كافر، حسبما كان يوعظ به إليهم هنا وهناك.

إن حياة المدن المغربية مختلفة جداً عن حياة المدن الإسبانية الغرناطية، إنهم يشعرون بأنهم مشردون وفاشلون ويجعلهم الحنين – الحنين الرهيب فى المنفى – يعبرون فى أحيان كثيرة عن حالاتهم النفسية، راغبين فى العودة إلى شبه الجزيرة. بعضهم فعل ذلك.

لابد أنه كان تيار رأى متزايداً كمًا ونوعًا بين المبعدين إذ إن البند الأخير من اتفاقية تسليم مملكة غرناطة ينص على: " إذا رغب الملك أو أى مسلم آخر، بعد عبوره إلى شمال إفريقيا فى العودة إلى إسبانيا، فى حال ما لم تسره الأرض ولا المعاملة فى تلك النواحى، فإن أصحاب الجلالة سوف يعطونهم تصريحًا، لمدة ثلاث سنوات حتى يتمكنوا من القيام بذلك ولكى ينعموا بهذه الشروط مثل كل الآخرين"(١٠).

تعين أن يكون موقف المهاجرين إلى الأرياف مؤسفًا وكئيبًا. فقد شعر السكان البرابرة المتصفون بالفظاظة بعدم ارتياح كبير إزاء وجود وإقامة عدد كبير جداً من اللاجئين و"ترجموا استياءهم إلى أعمال عنف"(*).

فإذا كان جمهور الريف هذا يعيش فى حالة شديدة البؤس فمن المفترض أن ينزعجوا بسبب فقدان القليل الذى كانوا يمتلكونه.

(*) نكرر هنا ما ذكرناه فى مناسبات عديدة. ليس هناك دليل على تعرض الموريسكيين لسوء معاملة سوى نص للمقرى فى نفح الطيب، الجزء الثانى، ص، ٦١٧ . (المراجع)

بالنسبة إلى المراكز الحضرية، لم يكن سهلا أبداً تكيف الرجل الغرناطى عليها، وسط سوء النظام السياسى المغربى، وهو مجرد من أية حماية ومنبوذ من قبل كل الطبقات الاجتماعية التى كانت تحيط به، بما فيها ما نستطيع أن نصفها بالطبقة المتوسطة، التى كان يتعين عليها لثقافتها الكبيرة أن تعمل كحاجز حماية، لكونها تدرك أفضل من أى شخص آخر مشاكل الغرناطيين . هذه الطبقة عبرت عن قلقها، وأحياناً، هاجمت بلا رحمة هؤلاء المهاجرين.

على الأقل هناك عدم رحمة وفهم فى الوثيقة العلنية للفقيه المغربى وسكرتير ملك فاس، الونشريسى، المؤرخة فى ٢٣ من سبتمبر من عام ١٤٩١ . وبالتالى قبل أشهر قليلة جداً من تسليم العاصمة، غرناطة، التى يفر منها القادة الأكثر كفاءة والأكثر صلابة. الذين كان يتعين عليهم الاتصال بقيادات المجتمع الذى يلجأون إليه.

إن ذلك لم يحدث هكذا، بل على العكس تماماً، كما نستطيع أن نستنتج من قراءة الفقرات الأولى من الوثيقة المذكورة للونشريسى.

"تخلى أهل أندلوثيا عن ديارهم ومزارع العنب الخاصة بهم وحقولهم وكل الممتلكات الأخرى، بما فيها دفعهم لمبالغ مالية كبيرة للهروب من سيطرة الكافرين واللجوء إلى أراضى الله، مع زوجاتهم وأبنائهم.الآن وقد أصبحوا فى أرض الإسلام يشكون من أنهم ليسوا مرتاحين ومن أنهم لا يجدون فى شمال إفريقيا نفس تسُهيلات الحياة التى كانت لديهم فى بلد الكافرين. ويشكون من عدم استقرار البلد ولا يخفون طريقة تفكيرهم، ويبدون نوايا خبيثة تدل على ضعف إيمانهم وغياب الصدق فى معتقداتهم الدينية. لم يهاجروا فى سبيل الله ورسوله، كما كانوا يزعمون، بل من أجل خيرات هذه الدنيا التى يرغبون فى الحصول عليها بمجرد أن يصلوا إلى أرض الإسلام وبناء على رغباتهم. ولأنهم لم يرضوا رغباتهم يشرعون فى سب البلاد الإسلامية وسب الذين كانوا سبباً فى هجرتهم. يمتدحون بلد الكافرين وسكانه، يندمون لأنهم تركوه...لقد سمع أحدهم يقول، مشيراً إلى هذا البلد من شمال إفريقيا، حماه الله: ليس هذا بالبلد الذى ينبغى الهجرة إليه، بل على العكس، من الواجب الهروب منه.

وآخر كان يقول: لو جاء سيد قشتالة إلى هنا فسوف نطلب منه أن يأخذنا إلى بلده؛ علاوة على ذلك يستخدم بعضهم حيلا من أجل العودة إلى بلد الكفر واتخاذ مكان لهم فى ظل حماية الكافرين. ما الذنوب التى يرتكبونها ؟... هل الهجرة إلى بلد الإسلام خاضعة للتيقن من وجود كل شيء فيه بقدر رغباتهم أو على العكس، هل من اللازم رعايتهم فى السراء والضراء، وليس لأى شيء سوى لكونهم فى بلد الإسلام ولكى يهربوا من حكم الكافرين؟"

هكذا تستمر أكثر من عشر صفحات يدرج فيها تهديدات وعقوبات ضد أولئك الذين يبدون رغبتهم فى العودة إلى أرض كافرة[١١].

كيف لا يحزن المهاجرون عند شعورهم بأنهم هدف لتلك الاتهامات التى كانت تتعلق بهم: وليس بأفعالهم، بل بنواياهم، ليس بسلوكهم، بل برغباتهم. ولم يكن بوسعهم مجرد الشكوى.

عند تقديم الطرفين فى مقياس قبول المهاجر، لم نحاول أن نلقى الذنب على البعض أو نبرئ آخرين. لقد كانت المغرب غارقة فى أزمة سلطة وتشكيل وطنى شديدين كانا يجعلان من الصعب عليها مواجهة مشاكل خطيرة جداً مثل التى عرضتها الظروف مع المنفى الغرناطى الضخم. لقد فعلت ببساطة ما كان يمكن أن تفعله سياسياً ودينياً؛ بأن آوتهم وقبلتهم على المستوى الرسمى وحاولت أن تضعهم فى المكان المناسب. ماعدا ذلك كان الأمر مستحيلا بالنسبة إلى حالة التفكك التى كانت عليها المغرب.

إن ما قصدناه ببساطة هو أن نثبت فى خطوط عريضة، لماذا تركز فى شمال المغرب عدد مهاجرين أكبر مما كان يناسب وضعه السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى.



أحد أبواب المدينة المحصنة

الهوامش

(١) وصف إفريقيا

Jean LEÓN L'AFRICAIN: Description de L'Afrique. París 1456. Tomo 1-268.

(٢) وصف عام لإفريقيا

MÁRMOL CARVAJAL, L.: Descripción general de África. Granada 1573, Libro4.o. 131.

(٣) روض القرطاس

IBN ABI ZARA.: Raued al Quirtas. Tr. Huici. Valencia 1964. II-715.

(٤) AZURARA: Chronica do Conde D. Pedro y chronica do Conde D. Duarte de Meneses. Collecao de livros ineditos de Historia portuguesa... de José Correa da Serra. Lisboa MDCCXII.

(٥) تاريخ مدينة سبتة

MASCARENHAS, Jerónimo: Historia de la ciudad de Ceuta. Lisboa 1915, pág. 245.

(٦) DAWD, Muhammad: Tarij Titwan. (en árabe) Tetu?n 1959. I, págs 89 y s.

(٧) DAWD. : Id.id. id. Págs. 97 y s.

(٨) تاريخ طنجة

MENEZES, Fernando de: Historia de Tangere. Lisboa 1732, págs. 31-2-5.

(٩) ABDALLAH LAROUI: L'histoire du Maghreb. París 1967.

(١٠) MÁRMOL, L. : Historia de la rebelión..., págs. 149 y s.

(١١) ARCHIVES MAROCAINES. XII. Par?s 1908, págs. 194 y s.

الفصل الثانى

شخصـــية المنظرى

شيء من الترتيب الزمني:

كانت الحرب الغرناطية الأخيرة قد اندلعت منذ عام. كانت في المملكة نفسها حرب أهلية أخرى تقوض أسس النفوذ الإسلامي والتي ستقضي عليه في سنوات قليلة. كان أبو الحسن، عاهلها الأخير، يساعده أحياناً شقيقه الزغل، يواجه ابنه أباعبد الله.

في شهر مارس من عام ١٤٨٣ يقاسي النبلاء الأندلوثيون من هزيمة رهيبة على يدي الزغل، في أخاركيا (الشرقية) في مالقة. هذه النكبة المسيحية تنهض بمعنويات الغرناطيين وترفع مكانة الزغل.

من أجل منافسته، يخرج أبو عبد الله في غزوة في الشهر التالي، يلازمه سوء حظ شديد بحيث إنه لم يهزم فقط بل وقع أسيراً في لوثينا في ٢١من أبريل من ذلك العام، ١٤٨٣ .

سيجد الملكان الكاثوليكيان في أبي عبد الله صيداً ثميناً يعجل بسقوط المملكة. في شهر أغسطس يوقع اتفاق، لا أكثر ولا أقل من اتفاق خضوع، بيد أن الأسير لا يفرج عنه إلا عندما تشير الظروف على الملك فيرناندو بذلك. يحدث هذا في شهر أكتوبر التالي.

مع ذلك، لم يكن يبدو أن قوة المدعي كبيرة جداً. فبعد أن استقر في الميرية، احتلت قوات الزغل هذه العاصمة، وقتلت يوسف – ابن آخر لأبي الحسن – وفر أبو عبد الله إلى أرض مسيحية، وعبر إلى مرسية في الثاني عشر من مارس من عام ١٤٨٤ .

باقى سنة ١٤٨٤يظل أبو عبد الله لاجئًا فى أرض مسيحية. هكذا يستمر عام١٤٨٥، ويثبت وجوده فى قرطبة فى الأول من سبتمبر.

فى اليوم الثالث من سبتمبر تلحق قوات الزغل هزيمة دموية بكونت كابرا، بالقرب من موكلين Moclín . مع ذلك يتفق الملكان الكاثوليكيان على توجيه قواتهما ضد كامبيل Cambil والابارAlhabar، " قلعتان حدوديتان، بعيدتان عن أى بلدة أخرى، واللتان كانتا كابوسًا لخايين لمدة سنوات كثيرة. تحقق المشروع بنجاح بين ١٦ و٢٣ من سبتمبر، وتغلبوا فقط على الصعوبات الطبيعية التى كانت تجدها المدفعية من أجل التقدم فى أراض شديدة الوعورة؛ بالنسبة إلى الأمور الأخرى فإن المحاصرين لم يتلقوا أية مساعدة خارجية واستسلموا مجبرين بعمليات القصف بالقنابل التى كانت تدمر الدفاعات"(١).

إن سقوط كامبيل وألابار يحسم سقوط قلاع أخرى كثيرة مثل مونتى خيكار Montejicar وإثنايوث Iznalloz وبينيارPinar من بين قلاع أخرى.

نحن نتساءل عما إذا كانت تلك الحاميات متعاطفة مع حزب واحد بعينه إزاء هذا التسليم الواضح السهولة. فى شهر نوفمبر يقوم الملك الكاثوليكى من جديد بإطلاق سراح أبى عبد الله، الذى تحصن بعد خروجه من مرسية فى أويسكار ومن هنا يخاطر بالدخول إلى العاصمة حيث رحب به فى البيازين.

فى الربع الأول من عام ١٤٨٦ نجح الفقهاء الغرناطيون المذعورون مما حدث فى كامبيل، فى التوفيق بين العم وابن الأخ وقام هذا الأخير بدخول لوشة Loja، حيث سيعود أسيرًا فى ٢٩ مايو عند سقوط المدينة، سوف يطلق سراحه فى الحال، باتفاق جديد وشروط أكثر إرهاقًا.

كل البيانات التاريخية المذكورة حتى الآن تشير إلى سيرة أبى عبد الله، وهو أمر معروف ومدروس ومكرر فى مرات كثيرة فى مصادر مختلفة سواء مسيحية أو إسلامية. إن مقصدنا هو الاستفادة من هذا التاريخ لدراسة حدث آخر وظروف أخرى ذات أهمية بالغة، تم تجاهلها بسبب الأحداث الكبيرة التى وقعت فى تلك الفترة.

إنها تتعلق بتأسيس مدينة تطوان على أيدى الغرناطيين، الذين كان على رأسهم على المنظرى.

من كان هذا المنظرى ؟ وأى دور كان يلعبه فى المملكة الغرناطية ؟ إنه كم مجهول كنا نعرف منه فقط ما قاله ليون الإفريقى وكرره مارمول كارباخال؛ كان المنظرى قائداً لقوات أبى عبد الله. بعد ذلك نجد سيرته متناثرة فى التواريخ البرتغالية عن شمال المغرب، حيث يظهر بشكل متكرر كزعيم بارز على أنه القائد التطوانى.

هكذا، إذن، كانت لدينا معلومات كافية عن الحياة الإفريقية للمنظرى أكثر مما كنا نعرف عن جذوره الغرناطية ومازلنا حتى الآن لا نستطيع أن نضيف سوى القليل، مع أن هذا القليل جوهرى ومهم، إلا أنه حتى هنا تغطيه قشرة رقيقة من الشك.

عندما تخضع قوات الملكين الكاثوليكيين قلعتى كامبيل وألابار الحصينتين تستسلم بلا قتال مجموعة من القلاع كانت من بينها قلعة بينيار. حسن إذن، كان قائد هذه القلعة، الواقعة فوق ربوة، من الصعب جدا قهرها، هو المنظرى. وكان المنظرى ينتمى إلى حزب أبى عبد الله، الذى كان فى تلك الأيام لا يزال أسيراً لدى المسيحيين. سوف نرى بعد ذلك علام يستند هذا التأكيد.

على هذه الأسس نبدأ فى تصوّر افتراضات.

على سبيل المثال، افتراض إذا ما كانت كامبيل وألابار تشكلان رأس سلسلة من القلاع، بما فيها بينيار، والتى كانت حامياتها تابعة لأبى عبد الله.

لا يمكن التفكير فى شيء آخر، إذا كانت ستتكلف أية قلعة أخرى من هذه القلاع، قلعة بينيار نفسها، أياما لاحتلالها، بالإضافة إلى حملة، مع ما كان يفترضه ذلك.

لا يُعرف كذلك ما إذا كان المنظرى ترك ببساطة القلعة التى كانت تحت مسئوليته أو فعل ذلك عن طريق اتفاقية. لو أن هذا الفعل الأخير قد حدث كان سيؤدى إلى إمكانية الرحيل بعيداً على متن سفن ينفق عليها العدو أو، على الأقل، دون عقبات كبيرة.

هناك افتراض أخير يبدو لنا الأكثر احتمالاً والأكثر تطابقا مع الأحداث اللاحقة وهو أن القائد الغرناطى سيترك قيادته وعلاوة على ذلك أرضه، قبل سقوط بينيار بشهور.

نضيف بيانًا يرد عند أقدم مؤرخى عصر النهضة وهو أن المنظرى يرحل ويؤسس تطوان ترافقه مجموعة من المحاربين الغرناطيين. وهو أمر طبيعى حيث إن السخط بسبب سير الحرب والنزاعات المدنية والهزائم الحربية لم يكن أبدًا حالة منفصلة.

حسبما يؤكد ليون الإفريقى فان مئات المحاربين الذين أخذهم المنظرى إلى شمال إفريقيا، كانوا يشكلون زهرة غرناطة، أو بعبارة أخرى، كانوا ينتمون إلى أعرق أرستقراطية غرناطية. وهو ما يثبت، من ناحية أخرى، المكانة والتقدير العاليين للقائد الغرناطى، بالإضافة إلى المكانة التى كان يتمتع بها بين أهله، الذين نظن أن كثيرين منهم رافقوه إلى المنفى.

من المحتمل جدًا أن رحيل المنظرى ومرافقيه كان قبل شهر سبتمبر من عام ١٤٨٥، عندما تستسلم القلعة التى تحت مسئوليته أمام فرانثيسكو دى بوباديا، الذى كان يقود طلائع الجيش الذى حاصر كامبيل. القائد المسيحى لا يجد أية مقاومة أمام سلسلة القلاع الحقيقية التى تستسلم له، وهو ما يقتضى خلوًا مطلقًا من المدافعين وانهيارًا حقيقيًا لكل هذه الجبهة الحربية. تلقى بوباديا، كجائزة، قيادة بينيار والأملاك التى كانت لدى المنظرى هناك، من بين نعم حقيقية أخرى، وهو ما يثبت، جزئيا، الأهمية الكبيرة لبينيار، بالمقارنة بالقلاع الأخرى التى استسلمت فى نفس الوقت.

لننتقل الآن إلى النقطة الثانية، وهى المتعلقة بالترتيب الزمنى لتأسيس تطوان. فى هذا الصدد أعتقد أنه لا يمكن، فى الوقت الحالى، إضافة شىء إلى الدراسة التى قام بها المؤرخ التطوانى المذكور سابقًا محمد داوود.

يبحث هذا المؤرخ روايتين:

(أ) رواية إسكيريتش والمخطوطة القديمة .

(ب) رواية ليون الإفريقى وسيدى العربى الفاسى.

يقول إسكيريتش:"بالنسبة لإنشائها، فإن المشهور والتقليدى، دون تقديم أو تأخير، أنه حدث فى عام ٨٨٨ / ١٤٨٣، وأنه يشار إلى ذلك برمز تأسيسها: تفاحة، حيث التاء ٨٠٠، والفاء ٨٠، والحاء ٨ ".

فى السابق تذكر المخطوطة القديمة عام ٨٨٩ على أنه عام إنشائها، مفسرة تفاحة، كل تاء ٤٠٠، والفاء ٨٠، والحاء ٨، والألف ١، المجموع الكلى ٨٨٩ /١٤٨٤ .

يضيف داوود: " لا يوجد تناقض بين كلمة إسكيريتش وكلمة سابقه، لأن إنشاء المدينة لم ينته فى عام. من الممكن أن عام ٨٨٨ كان عام بداية الإنشاء وأن عام ٨٨٩ كان عام الانتهاء من الإنشاءات".

من جانبنا نضيف ملاحظتين:

١) كلمة tufaha تعنى تفاحة. تطوان أنشئت، حسب مؤرخيها الأكثر قدماً وثقة فى عام التفاحة.

٢) إن سنوات التقويم الهجرى، كما هو معروف لا تتفق تماماً مع سنوات التقويم الميلادى.

الأول من محرم عام ٨٨٨ هو الأحد الموافق ٩ من فبراير من عام ١٤٨٣، وينتهى ذلك العام الهجرى فى ٢٩ من يناير من عام ١٤٨٤، عام ٨٨٩، يبدأ فى ٣٠ من يناير من عام ١٤٨٤ وينتهى فى ١٧ من يناير من عام ١٤٨٥ .

قلعتا كامبيل وألابار استسلمتا بين ١١ و ١٣ من شهر رمضان من عام ٨٩٠ ، الموافق ٢١ ـ ٢٢ من سبتمبر من عام ١٤٨٥ .

ب) يؤكد ليون الإفريقي أن أطلال تطوان، التي دمرها البرتغاليون في عام ١٤٣٧، ظلت مهجورة لمدة خمس وتسعين سنة وأعيد إنشاؤها وتعميرها بواسطة القائد الغرناطي المنظري، الذي ذهب إلى سلطان فاس، بعد أن طرده الملك فيرناندو من إسبانيا.أي أنه أنشأها بعد احتلال الإسبان لمدينة غرناطة، أي في عام ٧٩٨ / ١٤٩٢ .

إن الاختلاف - يستطرد داوود - بين التاريخين يقرب من تسع سنوات، وهو اختلاف ليس كبيراً في الحقيقة.

يميل المؤرخ التطواني للرواية (أ)، الخاصة بإسكيريتش والمخطوطة القديمة، لأن كليهما من تطوان ولأن العلماء المحليين يعرفون بشكل أفضل تاريخها الخاص، في رأيه.

لكن داوود يبحث أيضاً رأي سيدي العربي الفاسي، مؤلف كتاب "مرآة المحاسن"، الذي عاش أيضاً في تطوان عام ١٠٥٢ / ١٦٤٢ ويحدد تاريخ إنشاء المدينة في ٧ من شعبان من عام ٨٩٨، الموافق الجمعة ٢٤ من مايو من عام ١٤٩٣، بعد سنة وخمسة شهور من سقوط غرناطة. يحاول داوود من جديد التوفيق بين الآراء ويصدر حكمه المجمع للتواريخ والبيانات.

"... المهاجرون الذين وصلوا إلى تطوان عند انتهاء احتلال غرناطة كانوا كثيرين وكانوا الأكثر أهمية، بحيث إنهم غطوا على عدد الذين سبقوهم. ربما كان أولئك الوافدون الجدد يعدون بالمئات وبالآلاف، بينما كان السابقون يعدون بالعشرات فقط. لذلك يحسب الإنشاء من تاريخ وصول الوافدين الجدد وليس الوافدين القدماء. لقد خطط الأسلاف الأوائل المدينة، وأنشأوا أسوارها واستحكاماتها، بعدد قليل من المنازل والسكان، ويعزى إليهم تأسيس المدينة، وتاريخ ذلك كان عام ٨٨٩ . بعد ذلك، عندما انضم إليهم إخوانهم، بعد انتهاء احتلال غرناطة، أنشئت منازل كثيرة في المدينة، وملأوها بالصناعات والحرف وأشغال أخرى. إلى هؤلاء يرجع زيادة سكانها وثرواتها وبناء منازل ومؤسسات وأسواق أكثر، تاريخ ذلك كان عام ٨٩٨ "(٢).

من جانبنا يتعين علينا كذلك أن نبدى الملاحظة على الرواية(ب). إن تطوان أساساً كانت موجودة كإعادة بناء غرناطى نحو عام ١٤٩٠، حينما كانت ابنة لشقيق ابن كماشة، كما سوف نرى، بصدد الزواج من القائد التطوانى؛ بالإضافة إلى أن المنظرى لم ينف مع أبى عبد الله عام ١٤٩٣، ولا حتى عام ١٤٩٢عند سقوط غرناطة، حيث إن التواريخ البرتغالية ترصد وجوده فى ميادين المعركة بشمال المغرب قبل هذين التاريخين، بالتحديد فى عام ١٤٨٧ .

من كل ما عرض حتى هنا نستطيع أن نستنتج عدة نقاط لها فى رأينا، أهمية خاصة.

كان سيدى على المنظرى، أثناء الحرب الغرناطية الأخيرة، قائداً لقلعة بينيار. لم تكن هذه القيادة شيئًا جديداً فى عائلة المنظرى فقد سجل فيها أسلاف بتلك المرتبة فى أواسط القرن الخامس عشر. كان المنظرى ينتمى إلى حزب أبى عبد الله؛ يستنتج من ذلك أنه تخلى عن قلعة بينيار الحصينة عندما شعر بأنه معزول ومحاط بقوات الزغل، قبل أو بعد سقوط كامبيل وألابار، اللتين من المحتمل أنهما كانتا تنتميان كذلك لنفس الحزب.

الشعور بالهزيمة، الذى تفاقم بأسر عاهله، حمل المنظرى وفريقًا من المحاربين الموالين له على قرار الهجرة إلى هناك، أى عبور المضيق والسير إلى أرض إسلامية إفريقية. شكل المنظرى ورفاقه المخلصون فريقًا متلاحمًا لم ينحل فى المنفى، وضموا، على العكس، مهاجرين آخرين حولهم. من المحتمل أنهم شرعوا فى خدمة سيد الشمال المغربى، سيدى على بن رشيد، فى كفاحه ضد الحاميات البرتغالية بالحصون الإفريقية. من الممكن أنه كان هناك تفكير مبكر جداً فى مستعمرة ثابتة لهذه النواة الغرناطية وقرار بإعادة بناء أطلال تطوان، الواقعة استراتيجيا من أجل التصدى لغزوات أقوى حامية برتغالية، حامية سبتة.

نحن نرى أن المظهر التاريخي المتسلسل، والذى يعد المظهر الذى يستطيع أكثر تحطيم إيجاز الأحداث التاريخية التى تم بحثها، نراه على العكس، يؤيد نظريتنا وأن نقص الوثائق المناسبة فقط يمنعنا من إصدار تأكيدات قاطعة، منها على سبيل المثال، تأكيد القول بأن المنظرى، قائد بينيار، قد أسس تطوان قبل عام ١٤٨٥، وهكذا تباعاً.

كقاعدة عامة ينسى تاريخنا الإسبان عندما يعبرون حدودهم. هكذا حدث مع المبعدين فى عصور شتى وهكذا حدث مع مئات الآلاف من المسلمين الإسبان الذين ساروا إلى هناك إثر تقدم حرب الاسترداد ومع آلاف الغرناطيين الذين يتكاثرون فى عواصم شمال إفريقيا بعد سقوط الإسلام الإسبانى. لم يعد هؤلاء المسلمون يشكلون جزءاً من تاريخ إسبانيا وأصبحوا بالكاد جزءاً من تاريخ المغرب(*) .

شىء من النسب: عائلة المنظرى:

من الواضح على أية حال أن لقب المنظرى قد أصبح مشهوراً فى التاريخ المشترك لإسبانيا والمغرب، لكونه زعيم المهاجرين الغرناطيين الذى رحل طواعية، [خلال الحرب الأخيرة لغزو مدينته على أيدى المسيحيين] إلى منفاه فى المغرب وأسس مدينة تطوان بأن أعاد بناءها. على هذا النحو يحدثنا عنه ليون الإفريقى ومارمول كارباخال والمؤرخون البرتغاليون، أمثال برناردو رودريغيس وداميار دى غويس وروى دى بينا وآخرون. يُعد المنظرى، بالتالى، شخصية تاريخية يبدأ وجودها- المعتمد والمؤكد على ما يبدو - حينما يظهر كزعيم عسكرى فى شمال المغرب. بيد أن زعامته التى امتدت فى تطوان حتى موته فى سن متقدم، لم يخترها هو ولم يحصل عليها بسبب آخر نشأ فى البيئة الإفريقية عندما بدأ منفاه. إنها ظروف سابقة وضعته على رأس المحاربين الغرناطيين وحملته على الاستمرار فى زعامته، دون اعتراض واضح، لما يقرب من

(*) هذه المعلومة مهمة، وتعزز ما يقوم به صديقنا خابيير رويث مدير معهد ثيربانتيس بالقاهرة حاليًا من دراسة التراث الأندلسى فى مصر . (المراجع)

نصف قرن. نحن مقتنعون بأن المنظرى، فى لحظة الهجرة، كان يحمل معه مكانة محارب وصفة نبيل منحهما له مركز وعائلة ليس فيها شيء من الابتذال. كلاهما، المركز والعائلة، يتفقان مع توليه قيادة بينيار ومع الشيخ الرفيع والقائد الذى ربما كان جده أو أباه، على عبد الله محمد المنظرى الذى يظهر فى وثيقة عربية غرناطية بتاريخ ٢٣ من أغسطس من عام ١٤٧٦، كذلك أيضًا يفترض النبل فيمن تقتصر عليه الآمال ليكون الزوج المقبل لابنة أخت أو أم ابن كماشة وقريبة للملك أبى عبد الله نفسه.

لكن لنبدأ بحثًا أكثر دقة ونورد بيانات ودلائل يمكنها أن تصيغ سيرة للمنظرى وتثبت فى نفس الوقت سلسلة نسب ممكنة لمؤسس مدينة تطوان.

إن اسم المنظرى فى التواريخ الإسبانية - البرتغالية، فى الوثائق القشتالية المعاصرة له، على سبيل المثال فى خطابات كونت تينديا، يكتب بالعربية المنظرى، من "المنظر"، وهى كلمة تعنى منظر حسن أو نظرة جميلة. ولكى لا يحدث خلط فسوف نظل نستخدم الصوت المشتق من الكتابة القشتالية - البرتغالية، المندر والمندارى، على الرغم من أننا سوف نجد فى الوثائق العربية - الغرناطية تعبيرها الصحيح، المنظرى.

لا نعرف بالضبط "التنبير" الذى أعطاه المؤرخون البرتغاليون للفظ، نفترض أن تنبير المقطع قبل الأخير كان الأكثر شيوعًا، مع أننا سمعنا مؤرخين وعلماء ومغاربة ينطقونه كما لو كان المقطع الذى يعلوه النبرة هو الثالث بدءًا من الأخير، ودائمًا مع أداة التعريف، المنظرى.

كتب ف . خ. سيمونيت، فى القرن الماضى، عن "المنظر"، يعنى مكانًا ذا مناظر باسمة أو مرقب، انتسب لبعض الوقت إلى مملكة غرناطة وتعين أن يعد فى دائرة إلبيرة Elvira، مع أن مكانه لم يستمر بثبات".

يأخذ من ابن الخطيب بيان فتح مدينة المنظر على يد محمد الثالث ويضيف بعد ذلك، "كان من أبناء تلك المدينة وأخذ كنية زعيم مسلم يُدعى المنظرى (يكتب سيمون الاسم بتشديد المقطع الأخير)، عبر إلى شمال إفريقيا مع أبى عبد الله، بعد أن

فتح الملكان الكاثوليكيان هذه المدينة، واستقر فى تطوان، وجعل نفسه سيداً لهذا الموقع".

يذكر مارمول كمصدر للخبر.

وبالفعل يقول مارمول إنه: "بعد أن كسب الملك فيرناندو مدينة غرناطة..." فإن المنظرى الذى عبر مع الملك الصغير توسل إلى ملك فاس أن يسمح له ببناء وتعمير تطوان.

الذى لا يوجد عند مارمول هو تأكيد انتساب المنظرى، بأنه يأتي من المنظر، يبدو أن هذا من اختراع سيمونيت(٣).

وربما يكون سيمونيت على حق فى افتراضه أن بلدة المنظر مهد لعائلة المنظرى، لكن عندما بدأت هذه العائلة تتألق وتأخذ مكانها فى الصفوف الأولى للبرجوازية الغرناطية، كانت بلدة أو مدينة المنظر تلك قد مر عليها أكثر من قرن وهى لا تنتمى إلى مملكة غرناطة ولا حتى كانت تحتفظ بذكرى اسمها الذى كان المسيحيون قد غيروه إلى اسم آخر مختلف جداً.

انطلاقًا من ابن الخطيب، يكمل لنا المؤرخ المقرى أقدم بيان لدينا عن المنظر. يحكى أنه عند موت محمد، العاهل الثانى لأسرة بنى نصر، فى التاسع من أبريل من عام ١٣٠٢، خلفه ابنه الذى، بشكل سريع، يقال إنه بعد خمسة عشر يوماً من تنصيبه، قام بغزوة فى أرض العدو. كانت النتيجة هى الاستيلاء على مدينة المنظر التى احتلها بقوة السلاح، وأسر كل أفراد الحامية. كان من بين الأسرى سيدة القلعة، امرأة ذات جمال منقطع النظير، الجوهرة الأكثر بريقًا بين المسيحيين. أرسلت إلى العاصمة مع باقى الأسرى مرصعة ومزينة بشكل رائع، تسطع بجمالها. صارت بعد ذلك زوجة لسلطان الغرب الإفريقى(٤).

نفس النص، تقريبًا كلمة كلمة، موجود عند ابن الخطيب، فى كتابه "الإحاطة فى أخبار غرناطة "، حيث يرد ذكر المنظر مرة أخرى فى فقرة أخرى، مع قرى أخرى من إقليم خايين.

بما أن التاريخ محدد جيداً لذا يتعين البحث فى التواريخ القشتالية المتوافقة معه، فينتج أن بدمار، حاليًا، هى المنظر القديم(٥).

نرى التوافق بمقارنة الأحداث الموصوفة فى "مذكرات الملك فيرناندو الرابع ملك قشتالة" بفقدان قلعة بدمار وأسر كل من السيدة ماريا خيمنيث، زوجة سيد القلعة واثنين من أبنائه، مع الأحداث التى رواها ابن الخطيب والمقرى.

فى عام ١٣٠٩ استرد القشتاليون بدمار نهائيا(٦) وبالتالى، بعد قرن ونصف لم يكن لدى المسلمين الإسبان ذكرى أخرى عن المنظر سوى ذكرى اسمها، دون أن يكون بمقدورهم حتى تحديد موقعها جغرافيا.

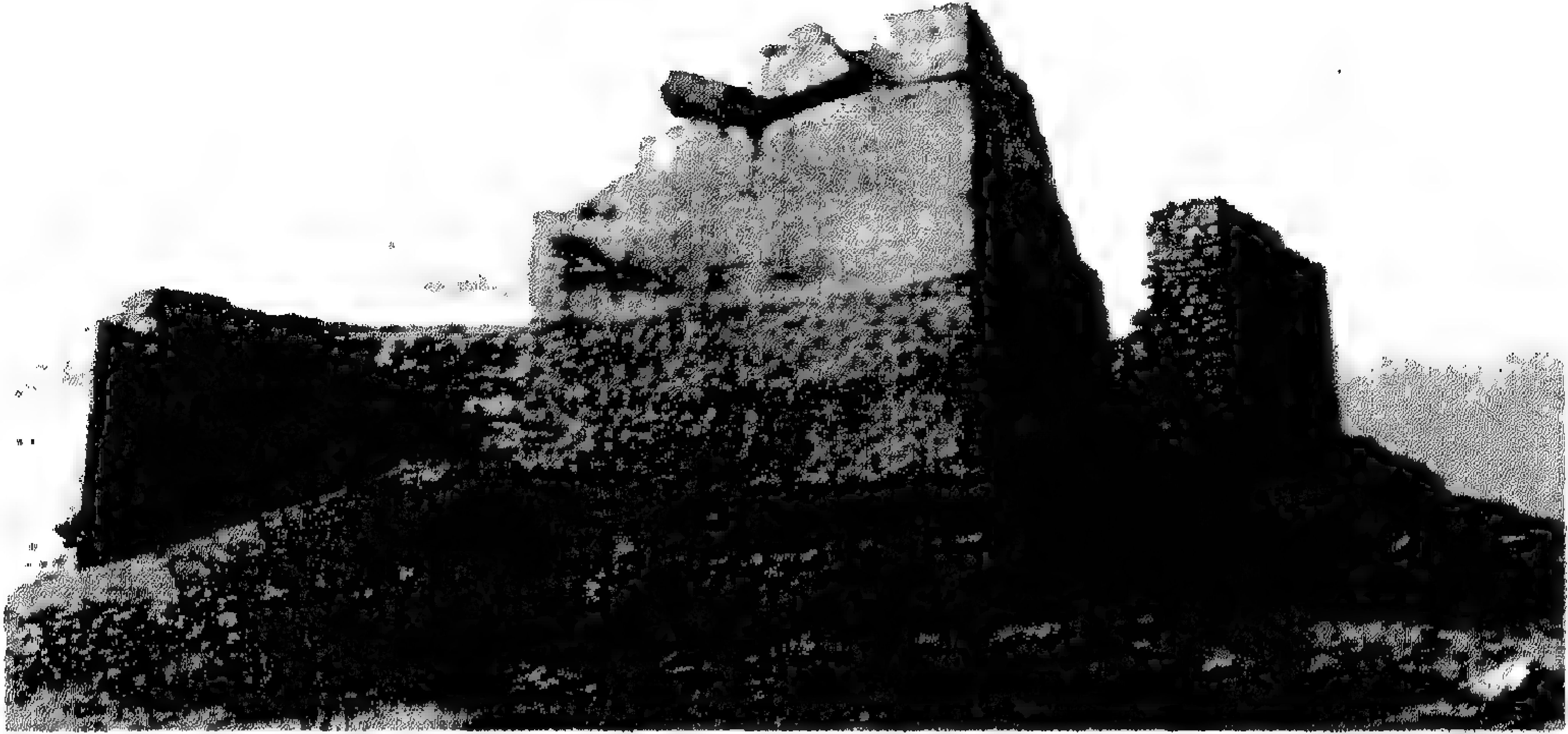
من ناحية أخرى، فإن المنظر، بدمار Bedmar حاليًا، لم يتعين عليها أن تكون بلدة لسكان كثيرين سوف يلجأون إليها، بعد الغزو المسيحى فى الأرض المسلمة. ربما لم يحمل اسم النسب "المنظرى" سوى العائلة المسيطرة على المكان وكان أن انتشر فى مملكة غرناطة لاحقا. كما هو واضح فإن ذلك لا يتعدى كونه افتراضًا، دون أن يكون بمقدورنا أن نؤكد، كما يفعل سيمونيت، أن ذلك المكان هو منشأ مؤسس تطوان.

يبدو أن قلعة بدمار، التى حطمت فى عهد مادوث ، كانت قطعة مهمة نسبيا فى النظام الدفاعى للحدود القشتالية – الغرناطية.

بعد أن وضح كيف كانت مدينة المنظر هذه وثبت حيازة المسيحيين لها لأكثر من قرن قبل ظهور هذا اللقب فى غرناطة، فإن أفراد عائلة المنظرى الغرناطيين، وبالتحديد، سيدى على المنظرى، المحارب المبعد إلى شمال المغرب، ليس فقط أنه لم يولد ولم يعش فى المنظر، بل إن أجيالا كثيرة من عائلته على الأقل، كانوا قد ولدوا وعاشوا فى غرناطة نفسها، العاصمة. هناك وثائق تضمن هذا التأكيد الذى قدمناه للتو، كذلك فإن هناك أحداثًا تطورت ظروفها حول قائد تطوان وتشير بوضوح إلى عائلة غرناطية غنية وبارزة.

لنرى أولا الوثائق، تاركين الأحداث للحظتها التاريخية المناسبة.

يحدد محضر خبير تقييم، مؤرّخ فى ٣١ من أكتوبر من عام ١٤٦٠ ضيعة واقعة فى منحل الليطاخ Manhal Al Litaj بريف غرناطة ومن بين سكانها يرد ذكر المنظرى، وشخص ينتمى إلى عائلة بنى سراج.



برج قلعة بينيار وسورها



آبار قلعة بينيار

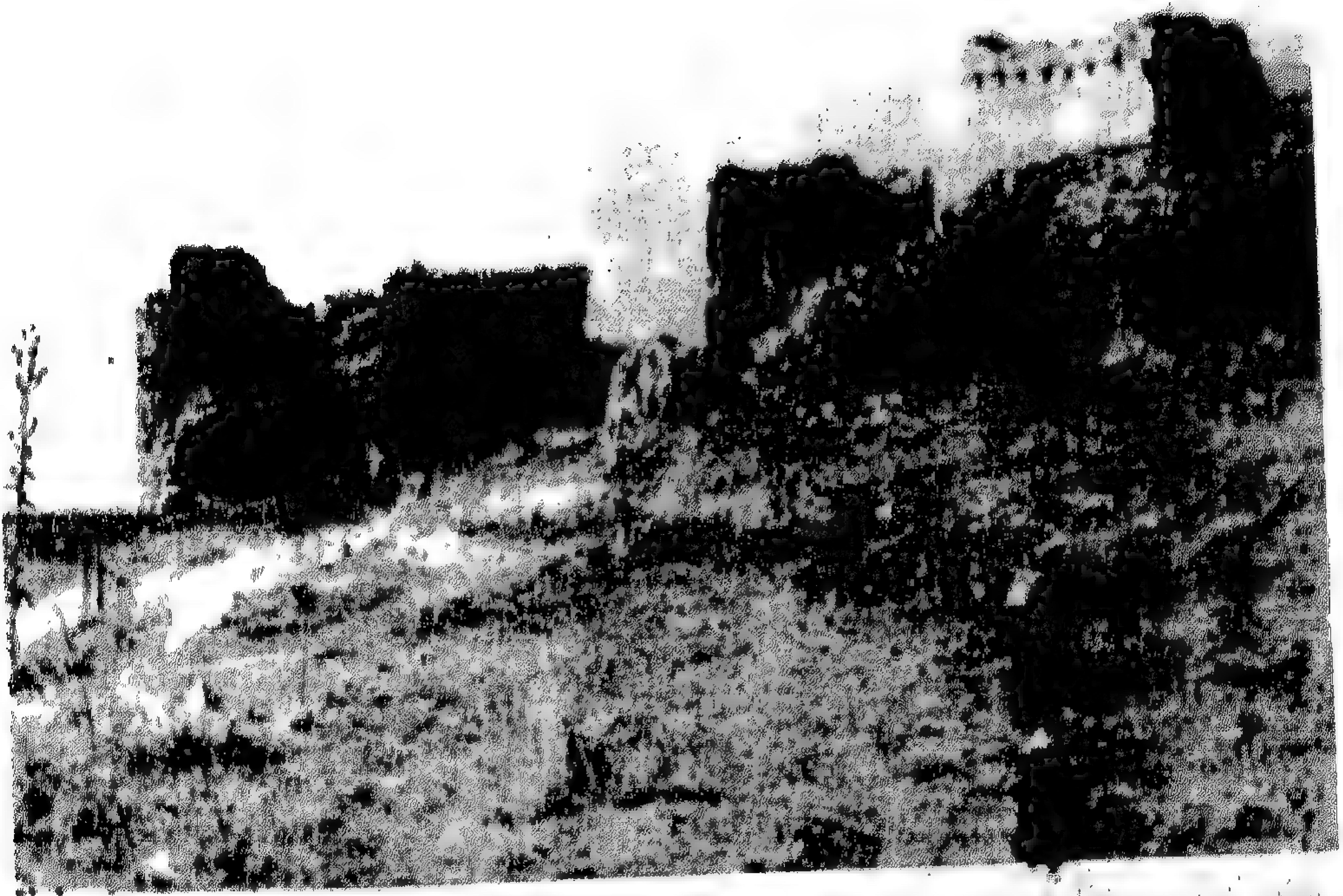
هناك عقد بيع ينتمى لفترة لاحقة نوعًا ما، ومؤرَّخ فى ٢٣ من أغسطس من عام ١٤٧٦ ويشير مباشرة إلى عائلة المنظرى.

" الشريف أبو عبد الله محمد بن فتوح الدافى Daafi، يشترى من الشيخ والقائد السامى أبى عبد الله محمد المنظرى، أرضًا زراعية واقعة فى الليطاخ، بغوطة غرناطة، عاصمة المملكة، والتى تحدها من الجنوب أرض السلطان، ومن الشمال أرض البائع، ومن الشرق أرض السلطان ومن الغرب الطريق وأرض البائع".

فى عام ١٤٧٦ كان قد توفى أحد أفراد عائلة المنظرى، وكان قائداء أى كان يتمتع بامتيازعسكرى أكيد.

بالإضافة إلى ذلك، فقد عين الابن كذلك شيخا وقائدًا رفيعًا، وهو ما يعنى، إذا وصلنا إلى ذهن الكاتب القضائى، أنه كان فعالاً وفى مرتبة عليا من التدرج العسكرى. ربما نجد أنفسنا هنا مع أبى المنظرى التطوانى، لو أخذنا فى الاعتبار قرب التاريخ من بداية الحرب القشتالية ـ الغرناطية الأخيرة. وهى الحرب التى قدم فيها المنظرى أولى صولاته كشاب مقاتل، لو عولنا على تاريخ موته، المعتمد وثائقيا فى عام ١٥٤١ .

من المحتمل أن يكون هذا الشيخ والقائد الرفيع أبو عبد الله محمد، هو قائد قلعة بينيار التى ورثها ابنه، إما بسبب شيخوخة متقدمة أو بسبب وفاة سلفه.



ساحة أسلحة قلعة بينيار . إلى اليمين ، فى المقدمة ، تُرى الآبار

هناك بعض الأمور الأخرى التى توحى لنا بها الوثيقة المعروضة، على سبيل المثال ثروة العقار المباع وجيرانه، بالإضافة إلى استنتاج أنه لا يزال يتبقى أراض أخرى فى حوزة البائع.

ظل الليطاخ يسمى هكذا، ويعرف اليوم بمكان أو قرية الليطاخى. وهو يقع فى طريق يمتد من فوينتى باكيروس حتى بينوس بوينتى. إلا أنه يبدو أن الاسم امتد إلى جزء كبير من الأرض الزراعية، التى تعبرها قناة، تسمى أيضاً، الليطاخى. إنها أراض شديدة الخصوبة لا تزال حتى اليوم تزرع وتروى جيداً. عندما يقوم القائد أبو عبد الله محمد فى عام ١٤٧٦ ببيع عقار فى هذا الليطاخ، فهو لا يزال يحتفظ فى الشمال والغرب بأراض أخرى مجاورة لنفس العقار؛ الأراضى الأخرى المجاورة لأراضيه، فى الجنوب والشرق هى زراعات تنتمى للسلطان الغرناطى نفسه.

إنها علامة خارجية أخرى إضافية عن مرتبة القيم التى كانت تسيطر فى مجتمع دولة بنى نصر(٧).

بالإضافة إلى هذه الوثائق التى – فى رأينا – تحدد بكل وضوح منشأ عائلة المنظرى فى العاصمة ذاتها، دون أن ننسى أن أجداداً بعيدين استطاعوا الوجود فى المنظر أو بدمار، لدينا وثيقتان أخريان، تظهر فيها نفس عائلة المنظرى هذه فى موضوعات خاصة بالمواريث. على الأقل نحن نظن أنه من الممكن أن تكون نفس العائلة، لأن اللقب لا يرد بإسهاب ولأنها تكون ثروة زراعية، ليست بعيدة عن العاصمة نفسها، كما فى حالة الليطاخى. إحدى هاتين الوثيقتين عبارة عن توزيع للأملاك، فيما بينهم،"مواريث لأراض ذات زراعات بالرى وبدون رى ومنزل وأرض فضاء"، واقعة فى قرية "غليما دى كنبى كيث" يحدها، من الناحية الغربية أراضى المنظرى. يرجع تاريخ هذه الوثيقة إلى ٣١ من يناير من عام ١٤٠١ .

فى تاريخ لاحق، ٣٠ من ابريل من عام ١٤١٦، يوجد عقد بيع آخر يقوم بمقتضاه يوسف وحامد، ابنا محمد المنظرى، ببيع ما ورثاه فى ضيعة الكمبى، بمبلغ خمسين دوبلاس من الذهب(٨).

غليما هى اليوم بنتاس دى أويلما، بين مالا والحامة.

لنتذكر أن أراضى الكمبى هذه، وقت الاستسلام، كانت تنتمى بالتساوى لوزيرين لأبى عبد الله، هما بن كماشة والمالح، اللذين قاما ببيعها إلى الملكين الكاثوليكيين فى١٧من سبتمبر من عام ١٤٩٣ . لقد كانت، إذن عبارة عن أراض ذات جودة زراعية عالية.

مرة أخرى عثرنا على أفراد من عائلة المنظرى قريبين بشكل كاف، من حيث الزمن، من الذين ذكروا فى وثائق سابقة. قريبون إلى درجة أننا نجنح إلى تحديد هوية القائد المتوفى أبى عبد الله محمد المنظرى على أنه محمد المنظرى هذا، الذى يقوم أبناؤه ببيع ميراث ضخم بشكل جزئى.

لقد حاولنا حتى الآن تتبع آثار عائلة المنظرى، السابقين على حرب غرناطة. لا شك أنه كان هناك أفراد من عائلة المنظرى أغنياء، البعض منهم لهم مواريث ومناصب متعلقة بالأسلحة. إن الندرة الشديدة التى يظهر بها الاسم يدفعنا إلى التفكير فى عائلة واحدة.

كل شىء يدعو إلى الظن أننا عثرنا على عائلة الزعيم الذى قام – على رأس حفنة من المبعدين الغرناطيين برفع مدينة تطوان من طللها، وكبرها وحولها إلى مكان مأمول للمنفى بالنسبة إلى آلاف عديدة من المسلمين الإسبان أولا وللموريسكيين بعد ذلك.

لا يزال يتبقى لنا إطلالة سريعة على ما يمكننا أن نعتبره واحدة من العقد الرئيسية فى هذه المجموعة من التساؤلات التى نتباحث بشأنها لمحاولة عمل سيرة للمنظرى: قلعة بينيار.

قلعة بينيار وقلاع أخرى:

أكدنا فيما سبق أن المنظرى كان هو قائد بينيار فى اللحظة التى استسلمت فيها هذه القلعة لقوات الملكين الكاثوليكيين. قدمنا أيضًا بعض الاعتبارات التى نحاول الآن

توسيعها ما أمكن، عارضين، كما فعلنا حتى الآن، وجهة نظرنا المستمدة من الأحداث والوثائق الموجودة.

نبدأ بموضوع الاستيلاء على كامبيل وألابار الواقعتين على مسافة ٢٢كم فى خط مستقيم من خايين، واللتان تكونان، بالتالى، شوكة فى النظام الدفاعى الحدودى المسيحى.

بعد أن فشلت حملة موكلين، بهزيمة كونت كابرا فى الثالث من سبتمبر من عام ١٤٨٥، قرر الملكان الكاثوليكيان أن يستغلا رجالا وأسلحة ومعدات جاهزة، لمهاجمة القلعتين " لأن الملكة كان لديها دائمًا حرص شديد على الاستيلاء على القلعتين، آخذة فى اعتبارها الأضرار الكبيرة التى تلقتها منهما والتى تتلقاها فى كل يوم مدينة خايين والمدن الأخرى بالناحية ".

فى الرابع من سبتمبر أعلن الملكان الكاثوليكيان أنهما فى خلال ثمانية أيام سيكونان فى خايين من أجل الذهاب لمحاصرة قلعتى كامبيل وألابار. فى نفس هذا اليوم اجتمع الملكان فى بيوت الأسقف لويس أوسوريو، وغونثالو ميكسيا، وفرنثيسكو دى بوباديا، مراجع خايين، مع الفرسان الأربعة والعشرين والمحكمين من أجل معالجة الحملة. يوما ٦ و٧ دخل خايين كل أناس الحرب بإقليم أندلوثيا بخطابات من دوق إسكالونا إلى المراجع بوباديا من أجل أن يتقدموا لمحاصرة قلعة كامبيل. يوم الخميس ٨، خرج بوباديا من خايين مع رجال المدينة ومع الرجال الذين أتوا من الخارج. يوم السبت ١٠ حين طلع النهار كانت كامبيل قد حوصرت(٩).

يقدم إيرناندو دل بولغار وصفًا لقلعتى كامبيل وألابار التوأمتين، " اللتين تعدان من القوى الكبيرة والآمنة، الموجودة فى كل الممالك الإسبانية". وبعد أن رأى إيرناندو "هذه الجبال الضخمة"، تفقّد الطريق " الذى أنشئ " لنقل المدفعية إلى هناك، حيث اندهش من العمل الذى تم إنجازه، "فقد أزيلت جبال مرتفعة، وسويت بالوديان المنخفضة". لقد كانت المدفعية هى التى سببت استسلام القلعتين. قائدها "محمد

لينتين"، الذى كان لديه رجال كثيرون " سلَّم القلعة وأعطاهم الملك الأمان وانصرف القائد مع كل رجاله المسلمين إلى غرناطة"(١٠).

هذا فى الثالث والعشرين من سبتمبر من عام ١٤٨٥ .

كان الحصار قد استغرق اثنى عشر يوماً. كانت المدفعية ترمى قذائفها فى الأيام الثلاثة الأخيرة فقط .

محمد لينتين "واحد من الفرسان الأكثر بسالة من مملكة غرناطة" طبقًا لرأى بولغار– لم يعرف أو لم يستطع أن يوقف زحف العدو لوقت أكثر.

نفس الرواية عن الخوف من المدفعية تعطيها لنا المصادر العربية.

" فى هذا التاريخ، رمضان عام ١٤٨٥، توجه العدو بجيشه إلى قلعة كامبيل، التى عسكر أمامها. وضع مدافعه فى مجموعة موجودة ويدأ هجومًا قويًا، ونجح فى هدم جزء من السور.

عندما رأى المسلمون عدم قدرتهم، وعندما خشوا من دخول المهاجمين إلى القلعة بالقوة، طلبوا الأمان.ولأن هذا الأمان منح لهم، خرجوا فى أمان مع كل ثروتهم بمجرد تسليم القلعة"(١١).

لا يبدو أن قلعة كامبيل قد دافعت باستماتة، على الرغم من شهرة محمد لينتين ومقاتليه. إن موقف قلعة كامبيل يتفق مع موقف القلاع الأخرى التى أذعنت تباعًا أو سلِّمت أو أخليت؛ ومن بينها قلعة بينيار.

لا نعرف بالضبط كيف جرت الأحداث فى هذه القلاع الأخرى،التى كانت ستكلف كل واحدة منها حملة قاسية.ربما حدث أن محمد لينتين، أمر أثناء انسحابه نحو العاصمة بإخلاء هذه القلاع التى، بشكل ما، كانت تخضع له كقائد جبهة. وهناك افتراض آخر وهو أنه بعد سقوط كامبيل وألابار، زحفت قوات مسيحية دون مقاومة، متتبعة آثار المهزومين وبوجودها الوحيد استسلمت وأخليت القلاع مثل إثنايوث وبينيار،

البعيدتين بما فيه الكفاية عن المسرح الرئيسى للأحداث.وبمثل ما حدث فى كامبيل، نعتقد أن المراجع بوباديا تقدم بعساكره وكان المسئول الأساسى عن انهيار كل تلك الجبهة الحربية لمملكة بنى نصر.

ليست هناك أخبار عن أن المنظرى، المحارب المفعم بالشباب حينئذ، قام بأقل بادرة مقاومة فى قلعة بينيار، الواقعة تحت قيادته. هذا بافتراض أنه كان حاضراً فى لحظة وقوع الأحداث. لو أنه كان ينتمى- مثل لينتين وباقى المستسلمين- لحزب أبى عبد الله، فإن خيبة الأمل والفشل كانا سيؤثران بشكل رهيب فى روحه المقاتلة. الملك الصغير بالتحديد ظل أسيراً فى يدى السيد فيرناندو وسيطلق سراحه بعد ذلك بقليل.

لقد كان المنفى هو المخرج الأكثر أناقة بالنسبة إلى جندى مجبر على تسليم قلعته لكون كل الظروف ضده ولم يمت فى الدفاع عن دينه ووطنه، كان هذا هو الطريق الذى اختاره المنظرى مع حفنة من المحاربين الذين يفترض أنهم كانوا تحت قيادته.

الشخصية الأخرى، وهى التى كانت تنتمى للطائفة المسيحية، والتى كانت تقريباً بكل تأكيد المخططة لكل قلعة تم فتحها، كان يمثلها المراجع بوباديا الذى كافأه الملكان الكاثوليكيان بمنحه قيادة بينيار، ووهباه، بالإضافة إلى ممتلكات أخرى، كل العقارات التى كانت لدى قائدها المنظرى فى ذلك المكان.(١٢) هنا تنتهى القصة الغرناطية لمؤسس تطوان وتبدأ ملحمته الإفريقية، مع أننا سوف نضطر حتماً إلى اللجوء إلى جذوره حينما نعرض أحدها فى فصل آخر متعلق به.على سبيل المثال، زواجه من قريبة للملك أبى عبد الله الذى يثبت بعضاً من العلاقة التى سبق أن أكدناها فى مجرى هذا البحث، سواء بالنسبة إلى انخراطه السياسى فى الحرب الأهلية التى كان الغرناطيون يجابهونها فيما بينهم، أو بالنسبة إلى درجته الاجتماعية ومكانته بين البرجوازية الغرناطية العالية.

ننهى حديثنا ببعض الأخبار الأخرى عن قلعة بينيار بمدلول حنينى لصاحبها الأخير الإسبانى – المسلم.

تقع قلعة بينيار فوق ربوة تسيطر على واد فسيح، وكما يقول مادوث فإن أسوار القلعة فى زمنه كانت لا تزال فى حالة جيدة.

تبعد قلعة بينيار مسافة ٥٠كم عن غرناطة بالطريق البرى. مادوث نفسه،عندما يتحدث عن الطرق، يضع بينيار فى مفترق الطرق القديمة من غرناطة إلى الشرق، ومن غرناطة إلى خايين ومن غرناطة إلى أوبيدا وبايثا ومع سلسلة جبال سيغورا، وهو ما كان يحدد أهميتها الاستراتيجية(١٣).

الربوة – فى جانبها الأسهل دخولا – ذات وعورة شديدة وشاقة وتتحكم فى القرية الواقعة على أحد جوانبها.

إن تسلق هذه الربوة بمدفعية متوسطة كان سيصبح مكلفًا جدا، يخبرنا غامير أن محيط دائرة هذه الربوة، بيضاوى بشكل خفيف، يبلغ قطرها الكبير ٧٢مترًا وقطرها الصغير ٤٢ مترًا؛ وتشكل أحد عشر حصنًا تسعة منها مستطيلة الشكل واثنان دائريان؛ وهناك صهريج فى ميدان القلعة. يتناول نفس الكاتب التقليد المحلى بأن"ملوك غرناطة المسلمين كانوا يزورون القلعة بشكل مستمر حتى أنهم استطاعوا أن يتخذوا هناك مكانًا للإقامة أو الاستراحة"(١٤).

نظرًا لوعورة المكان ونقص المياه في القلعة ذاتها، الذى ينبع فقط من الصهاريج، فإن هذا المكان، إذا أردنا أن نثبت بشكل ما هذا التقليد المحلى، سيكون مثل مركز للصيد والقنص حيث لا شيء آخر تقدمه قلعة بينيار لسكانها.

نشر غامير مع دراسته صورًا جوية رائعة للقلعة. من جانبنا لا نكاد نجد سوى لوحات وأبراج مهدمة، فى خليط غامض المعالم.

إن الاحترام الواجب فقط يدفعنا لنشر بعض من الصور التى أخذناها من غامير لبقايا هذا الأثر الذى كان ذات يوم الملجأ الحربى الأول لغرناطى شهير محرك لديار أخرى، فى أراض غريبة وأجواء معادية.

بالنسبة إلى قيادة بينيار فقد انتقلت من المنظرى إلى فرانثيسكو دى بوباديا، مع حيازة مائة وخمسين ألف ريال مرابطي سنويا وحامية مكونة من عشرين جنديًا تم تخفيضهم إلى عشرة في أكتوبر من عام١٤٩٣ . بل علاوة على ذلك، كما قلنا، تلقى بوباديا على سبيل العطية الأملاك العقارية التي كان يمتلكها المنظرى في المكان، والتي زادت بعقارات أخرى كثيرة أنعم بها عليه الملكان الكاثوليكيان.

في السياق ذاته الخاص بقلعة بينيار، كوفئ القائد المسيحي بسخاء عند توزيع الأراضي كما يستدل على ذلك من النص الآتي:

"في الأول من مارس من عام أربعمائة وسبعة وتسعين السيد المذكور خوان دى أورداث، الموزع المتقدم ذكره، أعطى فرانثيسكو دى بوباديا والسيدة ماريا، زوجته، مائتين وأربعين فانيغاس من الأرض، متاخمة للجيران ولروبليس أيضًا الأراضي الواقعة بجوار مانداديل (المنظرى) بالإضافة إلى مائة فانيغاس في حوض بئر تاليرا تقع بجوار أراضي السيد أورداث ..."(١٥).

هنا تحول المنظرى إلى منداديل Mandael، وهو ليس بالأمر الغريب إذا ما وضعنا في الاعتبار أنه منقول عن شخص آخر أو عن نسخة نسخة من وثيقة. مع ذلك، في وثيقة أخرى بتاريخ لاحق، لكنها أصلية، يكتب بوضوح المنظرى، مذكوراً بشهود عرفوه كقائد لبينيار وشخصية مهمة في العاصمة الغرناطية، قبل رحيله إلى تطوان.

سوف يجني بوباديا ثماراً قليلة، سواء من ممتلكات المنظرى أو من باقي الأراضي التي أعطيت له على سبيل العطية في بينيار حيث إن المكان ظل لسنين طويلة غير مأهول.

" في ديسمبر من عام ١٤٩٢ لم يكن في بينيار منازل ولا سكان."(١٦) ربما لهذا السبب سيكافأ بممتلكات أخرى أكثر فائدة على المدى القريب، مثل قطع أراضٍ للزراعة وأراضٍ للجوامع في بينوس، وفرن بجوار باب إلبيرا ومنزلين في غرناطة.

فى قيادة بينيار يخلفه ابنه أنطونيو دى بوباديا الذى تعين عليه، بمائه ألف ريال مرابطى فى حوزته، [١٧] أن يصرف"٢٣٠٤٠٠ ريال مرابطى فى أعمال ترميم وبناء الحوائط حتى جعلها فى حالة جيدة"[١٨].

استمر أفراد عائلة بوباديا يتباهون بقيادة بينيار، إلا أن القلعة أصبحت مهجورة بعد ثورة الموريسكيين وبدأت تقع أجزاء كثيرة من الأسوار. إن حالة القلعة الآن مؤسفة بما فيه الكفاية.

مع ذلك فمن الممكن السعى لإعادة بناء بعض الأبراج والأسوار، بما يكفى لإيقاف الفعل الهدمى للزمن وتتذكر أن تلك القلعة كانت المسرح الحربى الأخير فى أراض إسبانية لغرناطيين مؤسسين لمدن فى قارة أخرى.

أقام المنظرى أسواراً وأبراجًا أخرى فى أرض غريبة ونستطيع نحن أن نعيدها إلى حالتها الأصلية من أجل تكريم ذكره.

الهوامش

(١) LADERO QUESADA, M. Ángel: Castilla y la conquista del reino de Granada. Valladolid, 196, pág. 40

(٢) DAWD: Op. Cit; pág. 96.

(٣) وصف مملكة غرناطة

SIMONET, F.J.: Descripci?n del reino de Granada. Granada 1872, pág. 108.

(٤) تاريخ الأسرة الحموية في إسبانيا

MAQQARI, AL-: The history of the Mohammeddan Dynasties in Spain. Tr. Gayangos. II. London, MCCCXLIII, págs. 346 y s.

(٥) ثلاثة أسماء للثغر الغرناطي

RUBIERA MATA, M.a J.: "Tres topónimos de la frontera granadina". Al Andalus XXXII-1967-1-, págs. 217 y s.

(٦) ARIE, Rachel: L'Espagne musulmane au temps de nasrides. Par?s 1971, pág. 93.

(٧) وثائق عربية غرناطية

SECÓ DE LUCENA, L. : Documentos árabes granadinos. Madrid 1961, pág. 31 del texto árabe y 32 del texto castellano.

(٨) OSORIO PÉREZ, M.a José y SANTIAGO SIMÓN, Emilio de: Documentos arábigo-granadinos romanceados. () Granada, 1986, págs. 67-75 y 76.

(٩) Tomo XVII de la Historia de España de M: Pidal: "La España de los Reyes Católicos, de JUAN DE MATA CARRIAZO.

(١٠) PULGAR, H. del: "Cr?nica de D. Fernando y D.a Isabel"en B.A.E. Tomo 3.o, Madrid 1953, págs. 428 y s.

(١١) ANÓNIMO:"Fragmento de la época sobre los Reyes Nazaritos presentado por A.Bustani y C. Quirós,. () Larache 1440, pág.19

LADERO QUESADA, M. Ángel: "Mercedes reales en Granada anteriores a (١٢)
1500", pág.59.

MADOZ: Diccionario..., Madrid 1849. (١٣)

GAMIR, A.: "Relequias de las defensas fronterizas de Granada y Castilla en los (١٤)
siglos XIV y XV". M.E.A.H. 1956, págs. 43 y s.

(١٥) هذا البيان زودنا به الأستاذ رفائيل غ بينادو، من قسم تاريخ العصر الوسيط بكلية الفلسفة والآداب بجامعة غرناطة، انظر كذلك دراسته " الأرض الغرناطية فى أواخر العصر الوسيط: الجبال الشرقية" (١٤٨٥-١٥٢٧) ١

LADERO QUESADA, M. Angel: "La repoblaci?n del rieno de Granada anterior (١٦)
a 1500", pág. 46

AICOCER, Mariano: Castillas y fortalezas del reino de Granada, T?nger 1940, (١٧)
pág. 215.

PAZ, Julián: Castillos y fortalezas del reino... Madrid 1978. (١٨)

الفصل الثالث

زيـجات المنظرى

عروس القائد التطوانى الغرناطية

إن سيرة ماركيز مونديخار وكونت تينديا، أول حاكم مسيحى لقصر الحمراء وقائد عام لملكة غرناطة، تقدم لنا رواية لحدث أصيل فى حد ذاته، بل تفيدنا، بالإضافة إلى ذلك، فى ضبط بعض التواريخ والبيانات المتعلقة بتأسيس تطوان وبمؤسسها. بالإضافة إلى ذلك تعد هذه الرواية المصدر الوحيد الذى يحدثنا عن ذلك.

إنها الرواية المتعلقة بإلقاء القبض على عروس المنظرى، عندما كانوا يأخذونها من مدينة مولدها، غرناطة، لتتزوج من قائد تطوان، فى بلاد البربر، كما كانت تسمى كل المنطقة الشمال إفريقية. تعتقلها قوات تابعة لكونت تينديا ويأخذونها إلى ألكالا لا ريال، حيث كان السيد إنييغو يتولى الحكم فى هذه اللحظة كجنرال متقدم فى الجبهة. إنها الدرجة الأدنى مباشرة على تنصيبه قائداً عاماً للمملكة التى كان على وشك إخضاعها.

كانت ألكالا لا ريال، الواقعة على بُعْد ٥٠كم من غرناطة، تشكل رأس الحربة للهجوم المسيحى؛ هناك، فى أعلى القلعة، أمر الكونت بوضع ضوء ليلى دائم، يكون بمقدوره إرشاد الأسرى الذين يهربون من العاصمة.

من هناك، من تلك القلعة، كان يخرج بشكل دائم فرسان يسببون الفزع والإحباط لآخر المدافعين المسلمين عن الغوطة الغرناطية.

إن قلعة لاموتا القوية تلك كانت مركزاً لشبكة تجسس واسعة تعمل فى خدمة تينديا، وكذلك كانت بؤرة للاجتماعات، فى رحلات الذهاب والعودة، مع رسل من القادة الغرناطيين الأساسيين، الذين استطاع مينوثا أن يستغلهم جيداً لخدمة الملكين الكاثوليكيين.

إن الفصل الذى يهمنا الآن تلخيصه هو الآتى: جندى مسيحى، هارب من غرناطة، يخطر الكونت بأن فاطمة، وهى مسلمة نبيلة، ابنة شقيق أو شقيقة ابن كماشة Abencomixa وقريبة للملك أبى عبد الله الصغير سيأخذونها إلى بلاد البربر، لعقد قرانها على قائد تطوان.

كما نرى، أن أشياء قليلة كانت تحدث داخل المدينة ولا تصل سريعًا بطريقة أو بأخرى إلى مسامع تينديا. إن الأمر الوحيد الذى لم يكن يعرفه الكونت هو الطريق الذى كان سيسلكه الموكب، لذا كان يرسل فصائل من الفرسان، للاستطلاع، فى كل طرق غرناطة. نحن فى عام ١٤٩٠ والفرسان المسيحيون يتحركون فى ضواحى المدينة مثل السمكة فى الماء.

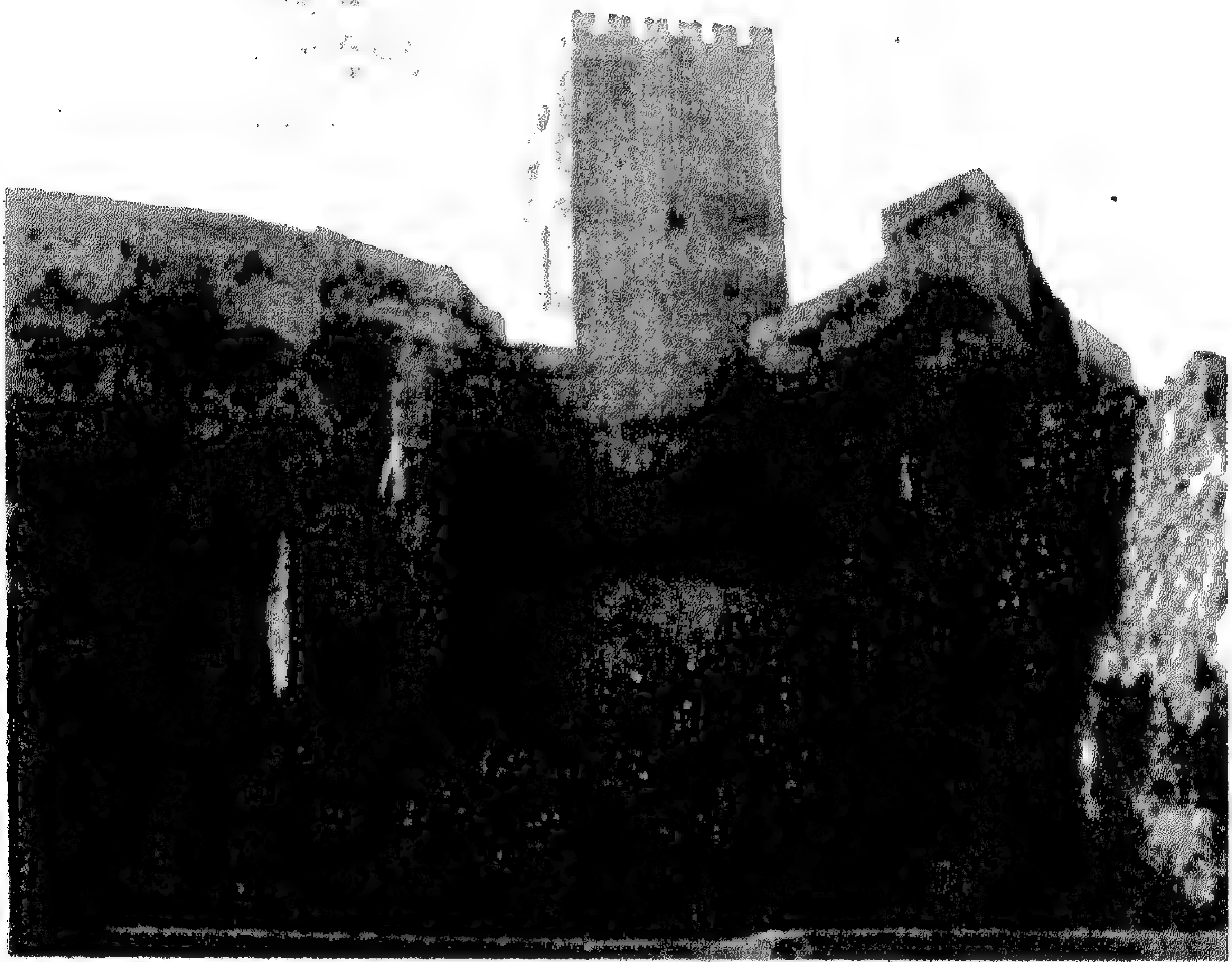
إحدى الفصائل، التى يقودها ألونسو دى كارديناس بيلوا، وتضم خمسين فارسًا، عثرت على الغنيمة ذات صباح، وهى تعبر نهر شنيل el Genil، من فوق غرناطة. كانت غنيمة سهلة حيث إنها كانت تسير ولا يكاد يحميها سوى عدد قليل من الخدم.

يأخذ ألونسو كاريناس الأسيرة، فاطمة، بجانب رفقائها، إلى بينوس بوينتى Pinos Puente، حيث كان ينتظرهم تينديا، وهذا يرسلهم إلى قلعته ألكالا لاريال.

وبينما هم فى ألكالا، يصل السيد فرانثيسكو دى ثونييغا Francisce de zuñiga، فارس من أراغون، قام ابن كماشة بإطلاق سراحه فى غرناطة بهدف أن يطلب افتداء العروس. يحمل ثونييغا، إضافة إلى ذلك، رسالة من أبى عبد الله يعرض فيها كميات كبيرة من الثروة فى مقابل قريبته.

أمام الاهتمام الذى أبدته شخصيات شهيرة جدا أطلق الكونت سراح فاطمة دون أية فدية، وكذلك أطلق سراح خدمها. لكى يتمم لطفه يهدى العروس جواهر ممتازة وهدايا أخرى(*)(١).

(*) هذه المعلومة مهمة، وتعزز ما يقوم به صديقنا خابيير رويث مدير معهد ثيربانتيس بالقاهرة حاليًا من دراسة التراث الأندلسى فى مصر. (المراجع)



حصن ألكالا لا ريال الذي سُجنت فيه عروس المنظرى

لا شك أن هدية الزواج التى قدمها السيد إنييغو كانت أروع هدية تلقاها العروسان، لأنه من الواضح بالنسبة إلينا أن السفر الذى تم اعتراضه قد حدث وأن الزواج تحقق فى النهاية. عكس ذلك ربما ما كان ليؤرخ الحدث، الذى يحكى كعلامة على شهامة تيينديا العظيم. نضيف كذلك، بادرة على سياسة التقارب الأخلاقى إلى العدو وهو ما سوف يشكل كل مساره كحاكم عندما يتولى المنصب الصعب الذى وضعه فيه الملكان عندما سلماه مملكة غرناطة.

من الجائز أن هذا كان واحداً من الفصول الأولى التى سمحت باتصال هاتين الشخصيتين العظيمتين فى ذلك العصر، تيينديا والمنظرى .

الأول، عظَّمه أهله حتى أعلى قمم الشهرة؛ والثانى، منسى تقريبًا فى التاريخ الإسبانى، يسطع فقط فى الميادين الحربية بشمال إفريقيا، مع أنه بين أهله يصل إلى أعلى قمم الحماسة، كـ"مجاهد" ومقاتل رفيع وصاحب واحدة من أكبر المدن المغربية.

الاثنان هما نِتاج الحرب الغرناطية، الحرب الأخيرة التى خاضها الإسلام الإسبانى المستقل. من المدهش أن السيد إنييغو لم يكن غرناطيًا، ولا حتى أندلسيًا؛ بينما كان المنظرى كذلك .

إن أسر عروس المنظرى الغرناطية وإطلاق سراحها فيما بعد يوضحان عدة عوامل مهمة ينبغى تناولها من جوانب متعددة . من ناحية التسلسل التاريخى ينبغى إبراز التاريخ الذى وقعت فيه الحادثة والذى يقدم تكذيبًا قاطعًا لـ ليون الإفريقى ومارمول وآخرين ينقلون عنهما ويتبعونهما فى رأيهما بأن المنظرى عبر إلى إفريقيا مع أبى عبد الله. لقد كان سيدى على المنظرى فى تطوان، كقائد، فى عام ١٤٩٠ . وأكثر من ذلك، فنحن نجرؤ على تأكيد أن المدينة كانت قد أعيد بناؤها بالكامل وحصنت جيداً عندما قرر قائدها أن يطرح على عروسه وقائع هجرة إلى أرض غريبة، وهو ما سوف يؤثر كذلك فى نفوس أهلها الذين تركوها ترحل.

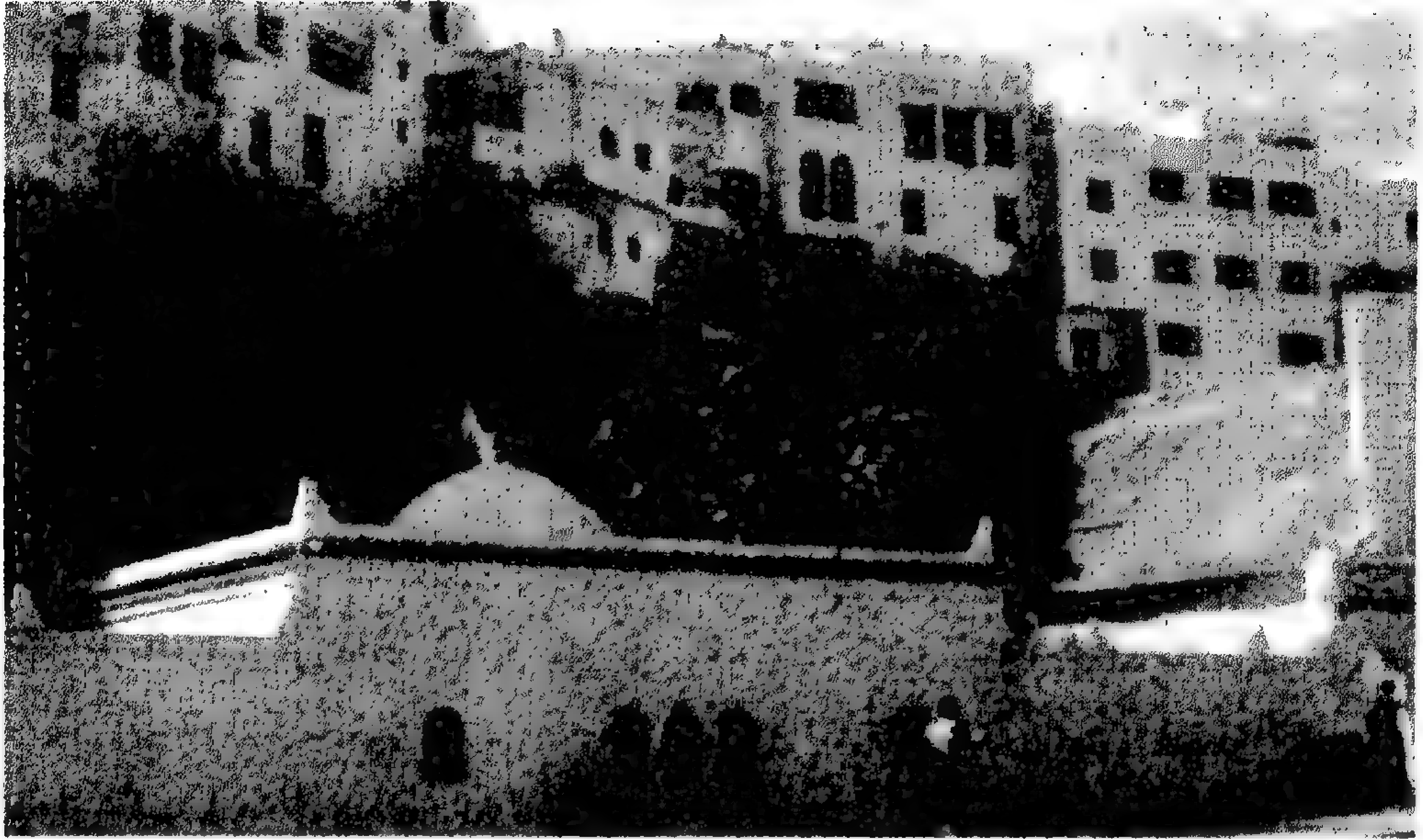
فيما يتعلق بالأهل ينبغى تقديم ملاحظتين مهمتين: إحداهما(*) تتعلق بالدرجة الاجتماعية التى يتعين افتراضها فى العريس، عندما يقدم والدا فاطمة على إرسالها إلى تطوان؛ يعزز نظريتنا بأن عائلة المنظرى غنية وذات نفوذ . إن تدخُّل رئيس وزراء مملكة بنى نصر، الذى كانت فاطمة ابنة أخيه، وتدخل العاهل نفسه يجعلنا نؤكد كل ما قيل.

كنتيجة للمصاهرة فإننا نجد مؤسس تطوان منتسباً بشكل غير مباشر إلى أسرة بنى نصر الملكية.

إن الحدث فى ذاته ينطوى على رمزية هائلة لاستمرار الأندلس الإسبانى فى أراض إفريقية، كما كان قد حدث على مدى كل الحقبة الأخيرة من العصر الوسيط: تطوان امتداد مادى وروحى لغرناطة.

لا ينبغى الجدال كذلك حول الطابع الداخلى المنشأ الذى سيكون عليه، على الأقل فى مرحلة أولية، الاستقرار الغرناطى فى أراض مغربية. أمام عداء الوسط البيئى الإنسانى، فإن فريق المبعدين ينغلق على نفسه. يوجد فقط استثناء نبيل فى الشمال المغربى، وهو سيدى على بن راشد وشرفاؤه الذين يبدون استقبالاً ليس حاراً فقط بل أخوياً فى الحقيقة نحو المهاجر القادم من مملكة فى حالة احتضار.

(*) واضح أن المؤلف قد نسى إدراج الملاحظة الثانية . (المراجع)



مسجد - ضريح سيدى عبد القادر تبين الذى عاش في تطوان فى القرن الثانى عشر



مسجد - ضريح سيدى عبد الله الفخار تبين الذى عاش فى تطوان فى القرن الثانى عشر

لن نبحث الآن، أسباب هذا التقارب وهى عديدة ومعقدة، وإنما يهمنا أن نشير إلى أنه سوف يكون الفجوة التى ينساب منها بغزارة تيار الدم الغرناطى المستمر الذى يصب فى شمال المغرب مخصباً إياه.

داخل هذا المظهر الخاص للمنفى ينبغى أن نتابع سيرتنا الخاصة بالمنظرى بخبر عن زواجه الثانى.هذه المرة من ابنة سيدى على بن راشد، مؤسس الشاون Xauen وسيد إقطاعى حقيقى لضاحية شاسعة من منطقة الحَبْتْ Habt المغربى، المعين المنحرف الشمالى للمضيق فى ضفته الإفريقية.

زوجة المنظرى المغربية

إذا كان هناك شخص استحق امتنان آلاف المهاجرين الغرناطيين، الذين نزلوا على شواطئ الساحل الشمالى المغربى، فإن هذا الشخص كان بلا شك، الشريف العلمى على بن راشد، صاحب إقليم شاسع، كان يشمل تقريباً كل المنطقة الغربية من شمال المغرب.

جمع فى شخصه صفات سياسية وعسكرية فوق العادة وكانت حياته كذلك غير عادية، ينبغى أن تكون معروفة، بعد حياة المنظرى، لأنها ليست مهمة فقط بالنسبة إلى تاريخ بلده، الذى كانت له فيه طموحات غير محدودة، بل لتاريخ إسبانيا، حيث لعب دوراً مستتراً وخفياً لكن ليس خالياً من التأثير فى شئون زمنه.

يكفى القول بأنه كانت له معاملات ومراسلات مع فرناندو الكاثوليكى نفسه ورحلات ذهاب وعودة مستمرة ومتدفقة تقريباً بموضوعات ورسل مع الكونت تينديا، الذى يدعوه عادةً "أخ وصديق".

تزوج بن راشد، وهو فى أوج شبابه، من امرأة متحولةٍ من المسيحية إلى الإسلام وسُميت لالا زهرة lal-la Zuhra، وهى من مواليد بيخير دى لا فرونتيرا Vejer de la Frontera، وأنجب منها ابنين: أحدهما ذكر هو مولاى إبراهيم، وأنثى هى ست الحُرة،

لم ينافس مولاى إبراهيم والده البطولات فقط بل تحول، دون أن يكون ملكًا، إلى سيد مملكة فاس. إن سيرة حياته تُشابه حياة أبطال عصر النهضة الأوروبية(٢).

لم تكن أخته، ست الحرة تساويه من حيث الذكاء والشجاعة، بل تفوقت عليه فى ثبات العزيمة والطاقة. كانت هذه هى الزوجة المغربية للمنظرى والتى حكمت، فى الواقع، تطوان لسنوات عديدة، خاصة خلال فترة العمى الطويل وشيخوخة القائد الغرناطى القديم.

ليست لدينا بيانات كثيرة عن هذا الزواج والبيانات التى تشير إلى وجود ذرية محتملة منه هى كذلك ملتبسة. إن المصادر البرتغالية التى تعد المصادر التى تكشف لنا الروابط العائلية بين بن راشد والمنظرى، تتحدث عن هذه الروابط فى حكايات عن أحداث حربية وقعت فى القرن السادس عشر. نستنتج، إذن، أن السنوات الأولى لنمو تطوان تتعلق - فى الحياة العائلية لمؤسسها - بزوجته الغرناطية فقط، وربما كانت ست الحرة صغيرة جداً حينئذ للتفكير فى روابط سياسية.

بافتراض أن مولاى إبراهيم كان أكبر بعض الشىء من ست الحرة، فإننا نستطيع أن نحسب من خلال سنه عمر أخته. هناك مؤرخ برتغالى يساعدنا فى المحاولة؛ برناردو رودريغيس Bernardo Rodrigues .

تكشف لنا فقرة من حولياته (Anais) عن أعمار وروابط عائلية. بهدف القيام بعمل حربى يستدعى قائد القصر الكبير قواد الشمال ليقاتلوا متحدين:" لكن كمندوب عن الشاون لم يأت سيدى على بن راشد، قائدها وسيدها، لكونه مريضًا، ولأن قائد القصر أرسل له يطلب أن تتحد القوات وتهب إلى أصيلة، وكان قد أمضى ثلاثة أيام وهو منتظر صوب القصر، ولكى لا يخذل أو يغضب القائد، عهد سيدى على بن راشد بابنه إبراهيم إلى المنظرى، صهره وقائد تطوان وترغه؛ وكانت هذه هى المرة الأولى التى يتولى فيها مولاى إبراهيم مسئولية القوات، وهو فى سن صغير جداً حيث إنه لم يكن قد بلغ العشرين من عمره"(٣).

ولأن ذلك حدث فى عام ١٥١١، فمن الممكن افتراض أن ست الحرة كان عمرها ١٨أو١٩سنة وأنها كانت متزوجة من المنظرى، صهر ابن راشد، كما قرأنا للتو. بالتالى نستطيع أن نحدد تاريخ مولدها بين عامى ١٤٩٢و١٤٩٣ . زواجها من المنظرى نحسبه بعد عام ١٥٠٥بقليل.

لقد كان فى الحقيقة زواجًا سياسيا، ويمثل كذلك اندماج الغرناطى مع بيئته.

كانت الحرة– السيدة النبيلة، كما يسميها بعض الكتاب المغاربة – مخلصة لزوجها حتى توفى عن عمر متقدم، فى عام ١٥٤٠، فتزوجت فى الحال من سلطان فاس.

لا نعلم ما إذا كان طموحها السياسى الهائل ساعدها على تحمل زوج عجوز وأعمى، أو ظرف آخر. الشىء المؤكد هو أنه خلال السنوات الأخيرة من حياة المنظرى كانت هى التى تحكم المدينة حقيقة وعلاوة على ذلك كانت تدير شئون القرصنة المتمركزة عند منبع نهر مرتيل.

كانت بالتأكيد متعودة على إدارة زمام السلطة فى فترات غياب زوجها المتفرقة، عندما كان يخرج فى غزواته الحربية.

يصفها بارغاس **Vargas**، السفير البرتغالى لدى ملك فاس، بأنها امرأة تميل للحرب وعنيفة جداً ومعتادة دائمًا على القيادة، ولكونها زوجة شابة لرجل مسن، كانت تريد أن تفرض إرادتها على كل من حولها.

لا نعرف ثمرة زواجها، لو كان هناك ثمرة، مع أن التواريخ البرتغالية تتحدث عن صهرها حسن، المتزوج، من ابنة للمنظرى.

بعد أن عُيِّن حسن هذا – شكليًا – حاكمًا لتطوان بعد موت المؤسس، أرادت الحرة أن تمد، مع صهرها، أمد القيادة التى كانت قد تولتها مع زوجها. لا شك أن ذلك كان أحد الأسباب التى جعلتها تميل للزواج من ملك فاس فى تطوان، لكن عندما

أبعدت كل المؤيدين لها، لم تكسب غير تآمرهم ضدها بدءًا من أخيها غير الشقيق، محمد، في الشاون، حتى صهرها ذاته في تطوان، وتم حرمانها في عام ١٥٤٢، من حكم المدينة ومن كل أملاكها.

لا نعلم شيئًا عن مصيرها بعد ذلك، ولا متى أو أين ماتت.يظهر مدفنها في الزاوية الريسونية في الشاون خلف القلعة التى بناها أبوها والتى كانت أصل هذه المدينة المغربية.

الهوامش

(١) Historia de la Casa de Mondéjar, escrita para el Marqués de Valhermoso por el de Mondéjar, su abuelo.

ثلاث مجلدات. كمصدر للعمل يأتي ذكر الحقوقي غابرييل رودريغيث دي أرديلا ، راهب إثنايوث ، من مواليد غرناطة، مؤلف كتاب " منشأ ونسب وبطولات بيت مِيندوثا الكبير"

Gabriel Rodríguez de Ardila, Iznalloz "origen, descandencia y hazañas de la gran casa de Mendoza"

الحدث مسجل في المجلد الثاني، الفصل الثالث والعشرون، صفحات٢٧٤-٢٧٥ و ٢٧٦ ظهر، من المخطوطة الموجودة في أكاديمية التاريخ الملكية.

(٢) RODRIGES, Bernardo: Anais de Arzila... Lisboa 1915.

(٣) RODRIGUES: Anais, 1-57.

الفصل الرابع

المنظري محارباً

النشاط الحربى للمنظرى

كان أبو الحسن على المنظرى شخصية استثنائية. كان شخصية غير عادية حتى فى تلك الأزمنة التى تبرز فيها قيم إنسانية عديدة فى مجالات مختلفة. ولا نحاول بهذا التأكيد خلق هالة رومانسية لتعظيم الشخصية. إن هذه الشخصية تسمو بنفسها ولا تحتاج إلى غيرها، وإذا كان شبابها المفرط أثناء حرب غرناطة يمنعها من دخول التاريخ، فهى فى ميادين القتال المستمر فى الشمال المغربى تملأ صفحات المؤرخين البرتغاليين.

نعلم أنه منذ عام ١٤١٥، وهو تاريخ احتلال سبتة، كان أول قائد عام لها، السيد بدرو دى مينيسيس، يخلق، بمهاجمته للضواحى، منطقة حربية تفيده، بالإضافة إلى ذلك، لكونها منطقة تموين ذاتى لحاميته، عندما كان يشن غارات تسلب المحاصيل والقطعان من فلاحى المنطقة المحيطة. هؤلاء الفلاحون بالكاد يستطيعون الدفاع عن أنفسهم بالعصى والحجارة.

تصل الغارات، كما رأينا، حتى تطوان وما بعدها.

إن عام ١٤٣٧، تاريخ احتلال تطوان، هو كذلك تاريخ النكبة البرتغالية فى طنجة. تتوقف المحاولة التوسعية لبعض الوقت، لكن فى عام ١٤٥٨ يحتلون القصر الصغير وفى عام ١٤٧١ يحتلون أصيلة وطنجة. كل المعين المنحرف الشمالى المغربى يتحول إلى ساحة معركة، مع غزوات برتغالية عميقة تصل تقريباً إلى احتلال العرائش وحتى القصر الكبير.

إزاء عدم فعالية السلطة المركزية تحالفت المدن مع قادة المواقع القوية وتشكلت منطقة حماية برتغالية فى الشمال المغربى. إلا أنه عندما كان يبدو أن العمل العسكرى للبرتغال كان بصدد الحصول على أقصى ثماره، يظهر فى الشمال شريف، نصف متمرد، ونصف خاضع للسلطان، يعارض بكل قواه التوسع البرتغالى، ويحشر أفضل محاربيه من بين الغرناطيين المهاجرين.

كان هذا القائد هو على بن راشد الذى ركز جيشه بين المناطق الجبلية لجبل أخماس Ajmas، الامتداد الجبلى الغربى لسلسلة جبال ريف، وأنشأ قلعة، مستخدمًا الأسرى الذين كان يأخذهم فى غزواته.

عندما بدأت الهجرة الغرناطية تتزايد فى عددها، ظهر على المنظرى مع محاربيه وتفاهم كلا الزعيمين فى الحال.

لم تبدأ البرتغال فى مواجهة مشكلات فى قلاعها الإفريقية فقط، بل ازدادت المشكلات التى كانت لديها وتلاشت آمالها فى تشكيل منطقة حماية أو إقطاعية فى مملكة فاس، وبدأت سيطرتها من الشمال.

إن بن راشد والمنظرى، بارْشا والمنداريم(*) قد تسببا فى هذا التحول فى الوجود البرتغالى فى السواحل المغربية. فيما بعد لن تكاد الحاميات البرتغالية تستطيع الخروج من أسوار قلاعها، وقد بدأ القصر البرتغالى ذاته يفكر فى التكلفة الباهظة للمحافظة على هذه القلاع إلى أن قرر إخلاءها، كما تحقق فى أواسط القرن السادس عشر. على مدى ليس بطويل جداً كانت هذه ثمرة مقاومة المنظرى وبن راشد.

يحكى المؤرخون بالتفصيل المعارك الحربية لكلا القائدين. من النادر جداً أن نجد معارك أو اشتباكات أو غارات، لا يكون فيها قائدا الشاون وتطوان متحدين.

(*) هكذا ترد الأسماء فى الوثائق البرتغالية . (المراجع)

إن روى دى بينا Ruy de Pina – وهو أقدم المؤرخين – يرجع تاريخ ظهور بن راشد والمنظرى ضد حاميات طنجة إلى عام ١٤٨٧ . من الطبيعى أن ظهور بن راشد سيكون سابقًا على هذا التاريخ ، إلا أنه لا يظهر مسجلا فى التواريخ حتى عام ١٤٨٧ الذى يقع فيه أسيراً.

المنظرى أيضًا حارب البرتغاليين قبل هذا التاريخ، ربما منذ أن استطاع أن يعتمد على تطوان وكملاذ لقواته، بدءاً من سقوط قلعة بينيار فى الجبهة الغرناطية، فى سبتمبر من عام ١٤٨٥، أو ربما قبل هذه الواقعة بشهور.

يحكى روى دى بينا الذى يعد مصدراً موثوقًا به، حيث إنه كان يعيش فى القصر البرتغالى لخوان الثانى، أن بن راشد، سيد عظيم بين المسلمين، والمنظرى، قائد تطوان، كلاهما لم يكونا يطيعان ملك فاس وكانا بالتالى يهاجمان أراضى أصيلة أو طنجة حينما كانا يظنان ذلك مناسبًا.

لنتذكر أنه بدءاً من احتلال كلا الموقعين، يوقع مولاى الشيخ وألفونسو الخامس هدنة بهدف ألا يضايق أى منهما الآخر. كان مولاى الشيخ يهدف إلى الحصول على عرش فاس الذى حصل عليه فى النهاية وألفونسو الخامس من أجل توطيد فتوحاته الإفريقية. كانت اتفاقات الهدنة بينهما متكررة، لكنها كانت تفيد على نحو خاص الحاميات البرتغالية.

كان ذلك بمثابة استراحة فى نشاطهم الحربى

يشرح دامياو دى غويس، وهو مؤرخ آخر من المؤرخين الأوائل، هذا الموقف فى كتابه المطبوع نحو عام ١٥٦٦: " بعد أن أبرم الملك جواو el Rey Don Ioao اتفاقات هدنة مع ملك فاس، قام مولاى بن راشد، الذى كان سيداً عظيمًا بين المسلمين، والمنظرى قائد تطوان، اللذان لم يطيعا ملك فاس، ولم يكونا ضمن هذا الاتفاق، بالزحف على موقع أصيلة.... السيد رودريغو Rodrigo (حاكم الموقع) لمقاتلة هذه

المجموعة من المسلمين التى كانت قوية، وبها رجال حرب أكفاء، حيث هزم ومات مع سبعة عشر نبيلا."(١) .

كان ذلك نكبة حقيقية بالنسبة إلى البرتغاليين الذين كانت قلة عددهم هى الثغرة الحقيقية فى عملياتهم العسكرية التى كان أكثرها يستخدم أبناء البلد أنفسهم كجيش مرابط. سوف يقوم المنظرى وبن راشد بمنع هذه السياسة بدرجة كبيرة فى شمال البلد، تلك السياسة التى طبقت بعد ذلك بالفعل فى الجنوب المغربى.

يحكى غويس نفسه عن ثأر البرتغاليين لهزيمتهم، بعد ذلك بقليل عندما "دخل مولاى بن راشد والمنظرى ومعهما سيدى موسى وسيدى يعقوب، ابنا شقيق بن راشد، براً ومعهم ألفا حربة وثمانمائة رجل من المشاة، وضربوا القرى التى كانت لها معاهدات سلام معنا..."

إنها قرى مسكينة وفلاحون بائسون ينتمون لإقليم كثيراً ما كان يقع بين نارين، دون أن يعرفوا فى كثير من الأحيان علام يعتمدون، ينهبهم البعض والبعض الآخر، إن لم يُدمروهم فى الفترات التى كانت تصل فيها القوات الملكية لمحاصرة قلعة ما فى الشمال.

فى هذه المرة، بعد هزيمة بن راشد والمنظرى، حصل القائد البرتغالى "من السكان على الضرائب التى كانوا مدينين بها له". هذا الحدث وقع فى عام ١٤٩٥ .

فى عمليات حصار أصيلة من قبل ملك فاس لا تنقص عند غويس الإشارات إلى كلا القائدين اللذين يذكرهما دائمًا متحدين. هكذا، فى الهجمات على المدينة فى عام ١٥٠٨، يضع المؤرخ على لسان "القائدين بن راشد والمنظرى، شخصان رئيسيان جداً بين المسلمين"، نصائح إلى ملك فاس. وفى عام ١٥١٢، وصل بن راشد والمنظرى وقواد آخرون حتى أبواب الموقع حيث قتلوا وأسروا بعض المسيحيين.

لكن المراسل الحربى الحقيقى لأصيلة كان برناردو رودريغيس Rodrigues، وهو ابن جراح الموقع، وُلِدَ وتربّى فيه وهو الذى نقل إلينا أكثر التفصيلات، ليس فقط عن

الأحداث الحربية، بل عن مظاهر أخرى كثيرة من الحياة فى المدينة – القلعة، بأخبار عن الأصدقاء والأعداء على حـد سواء. بفضله يمكن فك شفرة الكثير من العلاقات العائلية للشخصيات الأكثر بروزاً فى المعسكر المقابل. إنه يضىء لنا فى بضعة سطور فقط لوحة الأحداث بحيث نعرف من خلاله أكثر مما نعرف من صفحات كثيرة لكُتّاب آخرين، بما فيهم مؤرخون.

عندما حوصرت أصيلة فى عام ١٥٠٨، كان " بن راشد والمنظرى " موجودين ناحية الشاطئ، بين القوات المحاصرة للمدينة، يخوضان هناك معارك قاسية بغية الاستيلاء على سفينة شراعية، وهو ما حاول أن يفعله " أندلسيو تطوان على وجه الخصوص"، وكان هناك كذلك "سيدى على بن راشد" عند أسفل حصن الشاطئ، كان يحاول أن يعطى رسالةً إلى الكونت الحاكم.

بعد قليل من رفع هذا الحصار كان قواد الشمال فقط هم الذين هاجموا أصيلة، لكن بدون عتاد. حصار حقيقى فعّال وبلا مدفعية. كان القليل فقط هو ما كان يمكنهم عمله ضد الأسوار القوية والخنادق الواسعة التى كانت تحمى المدينة.

هكذا كان يحدث مرات عديدة يتوصلون فيها فقط، فى هجماتهم، إلى قتل أو أسر بعض قوات الثغر(٢).

فى عام ١٥١٢، يحاول بن راشد والمنظرى، بأمر من ملك فاس، تدمير الحقول "بعدد كبير من الفرسان وعدد كبير من المشاة الذين جلبوهما من أراضيهم ومن المناطق الجبلية".

توضح لنا فقرة أخرى لاحقة أنهم كانوا ثمانمائة فارس وأكثر من أربعة آلاف جندى مشاة. وهى قوة واضحة إذا كانت بالفعل مسلحة جيداً ومنظمة. يقدم المؤرخ صورة حية لبدء القتال مع حاميتى أصيلة وطنجة:

"Dizem que neste encontro primeiro Joao Conde, atalaiaìencontrou a Almandarim e pondo-lhe a lança em uas tachas de un treçado lhas fendeo,e sem lhe fazer outro mal pasou adiante...".

عندما هُزِمَ الفرسان المسلمون تخلوا عن حماية جنود المشاة الذين تلقوا طعنات الرماح بلا رحمة.

تتناوب المِحَن والانتصارات في كتاب رودريغيس الذي لا يخفى هذه ولا تلك، كما اعتاد أن يفعل المؤرخون الرسميون للقصر البرتغالى إذ كانوا يخفون الهزائم، ويبالغون فى وصف الانتصارات.

لا يتوقف سيدى على بن راشد وسيدى على المنظرى عن عدوانهما ولا ييأسان بسبب إخفاقات كبيرة أو صغيرة. كذلك الخصوم فهم يعانون من محن كبيرة فى كل الحاميات، بما فيها حامية سبتة، ذات التحصينات التى تكاد تكون منيعة. فى عام ١٤٨٧، "هُزِمَ السيد أنطونيو، الابن الثانى لماركيز بيلا ريال، عندما كان قائداً لسبتة، على يدى بن راشد والمنظرى، قائدى الشاون وتطوان"(٣).

ولم تنج كذلك حامية القصر الصغيرة من مضايقة المنظرى وبن راشد. وصل الأمر فى إحدى المعارك أن هلك فى الهجوم القائد ذاته حاكم الموقع، روى دياث دى سوسا(٤).

فى عام ١٥١١، وهو العام الذى يقاتل فيه مولاى إبراهيم لأول مرة، تصطدم كتيبة فرسان برتغالية، عند انسحابها عبر ميناء كابانيس Capanes، بقوات بن راشد والمنظرى التى كانت قادمة من بنى عروس Beni Arós . هنا يأتى الحديث عن راية بن راشد القرمزية، ومما يدعو للعجب أن تلك الراية كانت شعاراً لمملكة بنى نصر(٥). فى تاريخ لاحق جداً، مثل عام ١٥١٦، لا يزال يظهر قائدا الشمال فى حصار لأصيلة Arcila، من ناحية البحر كما يفعلان دائماً، حيث يصب ما يسميه المؤلف "النهر العذب"، فى مواجهة معقل الشاطئ الحصين. فى هذا الفصل يجرى الحديث من جديد عن الأندلسيين وعن " الراية القرمزية لابن راشد والمنظرى".

بعد ذلك بقليل يتكرر ذكر الراية الخاصة بالقائدين والتى كان يحملها " أندلسيون كثيرون، مهندمون ومسلحون بالبنادق بشكل جيد جداً"(٦).

لم يكن أولئك الغرناطيون بالطبع هم الفلاحون الفقراء الذين كانت الحجارة هى أفضل أسلحتهم، وكان الهجوم بصدر مفتوح وإطلاق صرخات عالية هو أفضل أسلوب لديهم. لقد وجد البرتغاليون فى هؤلاء أنداداً حقيقيين، وتحولت التنزهات العسكرية فى الزمان القديم، كل مرة بشكل أكثر شيوعاً، إلى لقاءات دموية وهزائم أليمة.

لقد كان المنظرى ورجاله الغرناطيون هم العامل الرئيسى فى هذا التغيير العسكرى الذى أدى بالتدريج كذلك إلى تغير اجتماعى، وأشرك، بشكل أكثر تواتراً، السكان الأصليين فى الكفاح ضد الغازى.

الجبهة البحرية :

لو تأملنا خريطة أو رسماً بسيطاً أو شكلاً للمعين المنحرف الجغرافى للشمال المغربى، مع الطرف الذى يشكله جنوب شبه الجزيرة الأيبيرية، فسوف نتعرف على قُرب كلا الساحلين، إلى درجة تشكيل قُمع، يوصل البحر المتوسط بالمحيط الأطلنطى. يأخذ القمع فى الضيق بدءاً من سبتة، ليصل عند مسافة قدرها ١٤ كم كحد أدنى، تقريباً، بين طريفة من جانب والقصر الصغير من الجانب الآخر، منتهياً فى الطرف الآخر بطنجة، التى يستحم الجزء الأكبر من شواطئها فى مياه المحيط الأطلنطى.

كان مضيق جبل طارق من الناحية التاريخية منطقة مرور، إلا أنه كان كذلك معبراً. لقد نفذ الإسلام واستمر يعيش فى شبه الجزيرة الأيبيرية من خلال المضيق كمعبر. وعندما تتوطد القوة المسيحية فى الوادى الكبير، فى عهد فيرناندو الثالث، تظهر فى الحال مشكلة المضيق.

إن هذه المشكلة بعد حسمها، على ما يبدو، فى معركة سالادوSalado، على مقربة من طريفة، سوف تظل انعكاساتها كامنةً لقرون كثيرة أخرى.

على الرغم من احتلال سبتة فى عام ١٤١٥ والقصر الصغير فى عام ١٤٥٨ وطنجة فى عام ١٤٧١، فلم يكن ممكناً منع انتقال جماعات بين سواحل المملكة

الغرناطية وسواحل مملكة فاس. ولا منع تعزيز المحاربين البربر فى مختلف الحاميات الغرناطية ولا منع تعزيز المبعدين طواعيةً إلى سواحل الريف.

يتعين على فيرناندو الكاثوليكى تأجير أساطيل لمنع مرور التعزيزات.تمنع هذه الأساطيل وهذه الرقابة- مؤقتًا ، خلال حرب غرناطة - تطور القرصنة، إلا أنه بعد انتهاء حرب غرناطة وكون الأساطيل ضرورية من أجل حركة السفر إلى العالم الجديد، تتفاقم القرصنة تفاقمًا شديدًا حتى أنها تحول بحر البوران **Alborán**، على وجه الخصوص، إلى منطقة ذات خطر داهم على الملاحة البحرية، وليس فقط البحر، بل إن السواحل الإسبانية ذاتها سوف تُهاجم وتنهب من قبل هؤلاء القراصنة من شمال إفريقيا، هكذا يُطلق عليهم فى تاريخنا، إلا أنهم فى الحقيقة لا هم قراصنة، ولا هم بربر من شمال إفريقيا. إنهم موريسكيون إسبان حولوا البحر إلى امتداد لمعركة برية خسروها فى شبه الجزيرة. بالنسبة إلى المؤرخين المغاربة والمؤرخين المسلمين، عامةً، فإن أولئك القراصنة هم، فى الحقيقة، " مجاهدون" مقاتلون من أجل الدين.

إن هؤلاء " المجاهدين " بجهادهم الذى غالبًا ما يكون جهاداً بالنفس وغير معروف مدبِّره، شكلوا بالتأكيد مشكلةً خطيرة جداً للدولة الإسبانية على مدى قرون. وهى مشكلة حاول فيرناندو الكاثوليكى أن يحلها بشكل قاطع، إلا أنه بعد موته وبعد أن جُرِّبت حلول أخرى، زحفت المشكلة حتى دخول العصر الحديث.

هل يمكن أن يدهشنا أن المنظرى، المحارب المتميز فى البر، كان كذلك أيضًا فى الجبهة البحرية ؟

لم يكن من الممكن أن ننسى عاملا استراتيجيا شديد الأهمية وخاصة أن تطوان تقع على مسافة ١٠ كم من البحر وفيها نهر مرتيل **el Martín** الذى كان يشكل فى مصبِّه مصبا صغيراً كان يُعدُّ مأوى لسفن صغيرة وذى غاطس قصير. لقد كان المأوى البحرى الوحيد الذى بقى بعد الاحتلال البرتغالى لموانئ المضيق.

لقد أفاد مصب نهر مرتيل، في أزمنة سابقة، الهجرة الغرناطية، كمأوى وإمداد لسفن قرصانية، وهي سفن صغيرة عليها طواقم مسلمة كانت تهاجم التجارة والنقل الملاحي بين موانئ مسيحية. في المصب نفسه كان هناك، مثلما هو حادث الآن، بعض التجمعات السكنية ومساكن مخصصة لطواقم هذه السفن ومخازن لتموين وإصلاح تلك السفن. اليوم هي مدينة صيفية، بينما كانت حينئذٍ مدينة صيفية ذات سوق تجاري نشط حيث كانت تدخل إليه وتخرج منه إلى داخل مملكة فاس، كل أنواع البضائع، بدءًا من السلعة الأكبر ثمنًا في ذلك العصر: العبيد.

أشرنا في السابق إلى الاشتباه في أن هذه المنشآت وهذه المدينة كانت هي التي دمرها بحارة إنريكي الثالث في غزوتهم عام ١٤٠٠ .

من المؤكد أن البرتغاليين، عندما دمروا تطوان في عام ١٤٣٧ أو عندما نهبوا بني معدان Beni Madan، الواقعة بجانب مصب نهر مرتيل، لا يشيرون إلى أنشطة قرصانية. على العكس، فإن السفن الصغيرة التي يشيدها السيد بدرو دي مينيسيس في قلعته بسبتة كانت تتجول بساحل سبتة – تطوان وبساحل المضيق دون معارضة ظاهرة.

إنَّ « تاريخ الكونت بدرو... » ممتلئ، ليس فقط بالبطولات البرية للجنود البرتغاليين في ضواحي سبتة، بل بانتصارات في البحر، حيث إن السيد بدرو كان لا يكاد يحتل الموقع حتى يشيِّد لنفسه أسطولا صغيرًا، لكنه كافٍ لحماية اتصالاته والسيطرة على البيئة البحرية. في نفس عام ١٤١٥، ينفذ الكونت الحاكم عملية مشتركة في البر والبحر ضد وادي الفنيدق(٧).. Valle de Castillejos

"logo o Conde confirou que non foomente lhe convinha ter bons cavallosìmas a inda navios para fojugar aquella parte do maar, que lhe era vifinha; o porem mandou fazer aquella fufta que era de dez bancos, e quiz a boa dita do conde que fahio muito ligeira affi de remos como de vellas..."(٨)

بعد ذلك بقليل استولوا على سفينة كانت في طريقها من مالقة إلى طنجة ومحملة بملابس غالية الثمن، ويبدأ الكونت في القيام بالقرصنة لحسابه. يتوصل إلى جمع ثلاث

مراكب وسفينة شراعية وبأسطوله الصغير يمنع حركة المرور من مالقة إلى طنجة، ويهاجمون طنجة، وينهبون ترغة Targa، ويدخلون ميناء جبل طارق المسلم نفسه ويهاجمون سفنًا معادية وأخيراً، بثلاث سفن صغيرة وبعض المراكب يقومون بحرق العرائش Larache .

إزاء هذا المنظر العام يتعين افتراض أن نمو القرصنة المسلمة كان أمراً مستحيلا، خاصة مع وجود هذه السيطرة من جانب سبتة على البحار المجاورة: إن ثورارا وغيره يذكرون خمسة قوارب مسلمة فقط تقوم بأعمال القرصنة في المضيق، لم يكن من بينها على ما يبدو أي سفينة يقودها أو يديرها برابرة، أي مغاربة.

كان على بن أحمد بن سعيد، وهو قائد كل هذه السفن، شقيقًا لقائد جبل طارق، وكان يقود سفينة ذات خمس عشرة مجموعة. سفينة أخرى ذات خمس عشرة مجموعة كان يقودها مرتد اسمه مانويل. مرتد آخر كان يذهب إلى الجبهة على متن سفينة ثالثة ذات أربع عشرة مجموعة. سفينة ذات ثلاث عشرة مجموعة كان قائدها شخص من الميرية Almería وأخيراً السفينة الخامسة كانت من المونييكار Almuñécar، وكان يقودها واحد من المقيمين بها.

في صيف عام ١٤٢٥ التقت تلك السفن بأربع سفن وسفينة صغيرة تابعة لمينيسيس، ودمرتها تماماً(٩).

إن القرصنة المغربية غير موجودة في الثلاث أرباع الأولى من القرن الخامس عشر. وبالكاد يمكن الحديث كذلك عن جبهة بحرية حيث إن مملكة بني نصر كانت تفتقد لأسطول . توجد فقط معارك منعزلة وفردية، يمكن بصددها الحديث عن قرصنة، تسمح، بين الحين والحين، بحدوث معارك بحرية. وهذه المعارك يقوم بها مسلمون، لا على الجانب الآخر بل من على هذا الجانب.

نحن نشك في أنه تحت صفة قرصنة مغربية كان هناك دائمًا امتدادٌ للقتال في البحر على يد مهاجري الأندلس في فترات متعددة من التاريخ.

ربما كان الذى دمر الأسطول القشتالى لإنريكى الثالث فى عام ١٤٠٠هو المركز الشمال إفريقى للمقاتلين البحريين الإسبان المسلمين، الذين استمروا فى العمل حتى إعادة بناء تطوان .

لأنه بوصول المنظرى ومحاربيه الغرناطيين لم يتغيَّر فقط المنظر العام للحرب البرية – حيث تمكنوا من حبس الحاميات داخل أسوارها – بل تغير أيضًا المنظر العام للحرب البحرية.

لقد شرع التطوانيون الجُدد فى صناعة سفن صغيرة، على وجه الخصوص، وبعثوا بدرجة كبيرة نشاط القرصنة، إلى الدرجة التى تحولت تطوان معها – دون أن تكون فى حد ذاتها ميناءً بحريا – إلى كابوس رهيب للذين كان يتعيَّن عليهم اجتياز بحر البوران Alboran الذى كان يبدو إسبانيًا .

لقد غَذَى الكُرْه والانتقام جهود الكثيرين من أولئك الذين لم يكونوا أبدًا بحارة. إن السعى لأجل الربح وتحقيق ثروات سريعة قد أنعش النفوس، حتى نفوس أولئك الذين كانوا يبقون على الأرض لكنهم كانوا يدعمون تلك الحملات اقتصاديًا .

واكتسبت تطوان الشهرة الحربية التى سوف تتمتع بها خلال العصر الحديث كله، لكونها أهم سوق للعبيد فى غرب البحر المتوسط ولكونها الوكر المخيف لقراصنة، من أهل البلد وغرباء، الذى سبب أكثر من احتجاج ومشروع للتدخل. بالإضافة إلى كونها بؤرة لنشاط قوى معادية لإسبانيا والتى سوف تجد دائمًا فى تطوان الباب مفتوحًا نحو مدينة فاس. عندما نزل المنظرى، على شواطئ نهر مرتيل، لم تكن تطوان موجودة ولم يكن هناك محاربون ولا سفن ولا شىء البتة فى هذا الوادى الفسيح والرائع الذى تشكله جداول أنهار نخلة وخميس وشكور عند اتحاد مياهها وسيرها نحو البحر. كانت هناك بالكاد قرية فى جبال درسة وقرى أخرى فى السلسلة المقابلة لجبل بو زيتون وجبل غرغيز Gorgues وجبال أخرى. لقد كان السهل الذى تجتازه حامية سبتة فى مواكب أو محاربو بن راشد فى هجماتهم المضادة، خاليًا بينما أسفل جبل درسة كانت توجد أطلال تطوان القديمة.

أعاد المنظرى بناء تطوان وأنشأ سريعًا جبهة حربية برية منعت سهولة الحملات البرتغالية فى وادى نهر مرتيل.

بالإضافة إلى ذلك جهز القائد الغرناطى أيضًا أسطولاً يبدأ به كذلك حربًا بحرية أخذت تضعف لافتقادها لمركز قريب من مضيق جبل طارق. لا يمكن الحديث عن نشاط قرصانى بدرجة كبيرة إلا عندما تبعث تطوان من رمادها.

ربما حاول سيد الشمال، بن راشد، فى وقت سابق إنشاء أسطول يكمل به فى البحر قتاله البرى. إلا أن مركز هذا النشاط البحرى ليس تطوان بل ترغة التى كانت المخرج إلى البحر لإقليم الشاون. اكتسبت ترغة الأهمية التى وهبها إياها زعيمها المحلى، عندما وسع أنشطته الحربية بالقرصنة ومن ضمنها أيضًا التجارة البحرية كما سوف نرى لاحقًا.

عندما عرف البرتغاليون القيمة الاستراتيجية والتجارية لترغة، هاجموها باستمرار. واحدة من تلك الهجمات، هجمة عام ١٤٩٠، تؤكد أن بن راشد كان لديه هناك بالفعل ترسانة حقيقية:

" acarones no porto Della pinte e chi quo navíos entre grandes e pequeños; e na casa de Taracena,bombardas,polvora,salitre,ancoras,muitas lanças,coiraças,capacetes,e outras muitas ferramentas,e almazem,que recolheram"(١٠).

كان البرتغاليون قد تبقى لهم وقت قليل للسيطرة المطلقة على السواحل الشمالية لملكة فاس.

فى عام ١٥٠٢ حاول أسطول برتغالى آخر مهاجمة ترغة إلا أنه مُنِىَ بهزيمة مُدَوِّيَة(١١).

إن ذكر سفن من تطوان متكرر فى التواريخ البرتغالية بدءًا من إعادة تأسيس المدينة.

فى الرابع والعشرين من يوليو من عام ١٥٠٤ شاهد حاكم أصيلة، وهو فى حال من بين الدهشة والغضب " المنظرى، قائد تطوان، وخمس سفن صغيرة" تمر أمام أسوار قلعته. ولأن هذه المجموعة من السفن لا ينبغى أن تكون مرتجلة، فإننا نظن أنه قبل هذا التاريخ، ١٥٠٤، بكثير بدأ القائد الغرناطى كذلك عمله فى إعادة بناء قوة بحرية معينة[١٢].

لقد حقق ما أراد لدرجة أن سفنه بدأت تزرع سريعًا الرعب فى البحر وفى السواحل المتاخمة لمضيق جبل طارق.

يذكر المؤرخ رودريغيس أنه فى عام ١٥١٢ كانت هناك " أضرار بالغة أحدثتها بعض سفن تطوان فى ساحل قشتالة خاصة من مالقة إلى قادش ومن قادش إلى المغرب Algarve ..."[١٣].

إذن فقد كان معظم الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة، فى ذلك الحين، هدفًا لأعمال السلب من قِبَل الغرناطيين التطوانيين.

بمناسبة الهجوم على سفينة برتغالية من قِبَل سفينتين فى عام ١٥١٦، أمام أسوار أصيلة أيضًا، يذكر رودريغيس أن إحدى الفرقاطتين كانت من "تطوان، حيث كان لدى المنظرى، قائدها وسيدها، الكثير منها، وكان يُحضر عليها جنود مشاة وجنودًا كثيرين مسلحين بالبنادق، كلهم غرناطيون، من البلد التى كان هو منها"[١٤].

كان هناك رجل يُدعى كوارتانو Quartano من غرناطة ، كان رئيسًا لواحدة من أكبر سفن تطوان التى يصفها المؤرخون، بها طاقم يزيد على المائة رجل وسبع عشرة مصطبة، بفضل شراعها الملائم، الذى كان يكسبها سرعةً من الصعب التغلب عليها، ولا حتى مساواتها بنوع آخر من سفن العصر. من هنا تأتى استحالة الهروب منها، عند ظهورها على مرمى البصر[١٥].

احتاج البرتغاليون لأسطول دائم لحراسة المضيق وحماية الاتصالات بين مواقعهم القوية. كان البحارة الغرناطيون يقومون بأعمال المباغتة بسفنهم السريعة من حيث لم

يكن يُتَوَقع وجودهم. كانوا فى كل مكان، كانوا ينزلون على سواحل وطنهم القديم ويأخذون معهم أحياناً قرى بكاملها، كانوا يعبرون المضيق، ساخرين من رقابا الأسطول البرتغالى، كانوا يختبئون فى أى مرفأ أو ملجأ بين الصخور وعندما تعتقد سفينة ساذجة أنها بمأمن، بلا أعداء مرئيين، تقوم السفينة التطوانية بالهجوم، وتلحق بغنيمتها. كانوا يختبئون على مسافة أقل من ١٥ كم من أصيلة، فى نهر تهدارت Taga-darte وهناك يترصدون حتى الذين كانوا يخرجون للصيد(١٦).

لم ينج شىء ولا أحد من أذى أولئك " المجاهدين" من قراصنة البحر الذين أسهموا بدرجة كبيرة فى إثراء المدينة التى كانوا قد أسسوها. لأنه لا يجب إغفال المظهر الاقتصادى للحرب التى وقعت فى هذه الجبهة البحرية. يجب علينا أن نُقدِّر الثروات التى وَلَّدتها القرصنة، كأحد العوامل الرئيسية التى أدت إلى ظهور نخبة قديرة من المواطنين والتى سوف تشكل نواة العائلات الأساسية للمدينة.

لم يتخلَّ الأشخاص الأكثر قرباً مباشرة من المنظرى عن الاستفادة من الأنشطة الخاصة بسفنهم، أثناء حياة القائد الغرناطى، خاصةً زوجته ست الحرة وشقيق زوجته مولاى إبراهيم. هذا الأخير كانت له مصالحه الشخصية والخاصة على قدر ترقيته فى سلطة مملكة فاس.

أحياناً كانت تُطرح اتفاقات هدنة إلا أنها كانت تستغرق وقتًا قصيراً، مثل الهدنة التى عرضها ملك بيليث Vélez، بوحَسُّون Bu Hassun، على الملك البرتغالى خوان الثالث Juan III فى الثانى والعشرين من أبريل من عام ١٥٣٢ بتأمين الإبحار واتفاقية تجارية كانت تتضمن سفن تطوان وترغة والعرائش " بمقتضى الاتفاق المبرم بينهم وبينى فى أمر التأمينات". هذا الضمير "هم" يشير إلى عائلة المنظرى التى كانت تسيطر على الثلاثة شواطئ المذكورة(١٧).

يحدث عكس ذلك فى الاجتماعات التمهيدية لمعاهدة سلام واتفاقات هدنة أُبرمت بين مملكة البرتغال ومملكة فاس فى يونيو من عام ١٥٣٨، حيث يُعرب حُكَّام المواقع الإفريقية القوية للملك عن تشككهم بالنسبة إلى النقطة المحددة الخاصة بالحرب فى البحر.

فى التاسع من أغسطس من عام ١٥٣٧ يكتب قائد أصيلة إلى خوان الثالث يخبره أن مولاى إبراهيم سوف يغضب لتوقيع معاهدة سلام مع البرتغال لأنه " سوف يفقد تجارة سفنه".

بعد ذلك بقليل وبالتحديد فى الثالث عشر من سبتمبر نجد أن قائد أصيلة هو نفسه الذى يقول إن مولاى إبراهيم كان يريد إخراج تطوان والعرائش من اتفاقات هدنة السلام(١٨).

لقد كان قدر المنظرى فيما يبدو هو أن يبقى على قيد الحياة من أجل الأصدقاء والأعداء؛ إن شقيق زوجته الشاب الذى كان قد نضج تحول إلى رجل حرب ورجل دولة، وتوفى فى عام ١٥٣٩ تاركًا إرثًا من الصعب حصره، وأخًا غير شقيق ثورى هو محمد بن راشد، بن راشد آخر، على رأس الشاون والجبل، بجانب ترغة؛ وأخت هى ست الحرة، على رأس تطوان وسفنها، زوجة لرجل عاجز وعلى وشك أن يموت، وأخيراً والأسوأ، مملكة مترنحة هى فاس، على وشك أن تغير أسرتها الحاكمة.

سوق العبيد بتطوان:

كانت إحدى التوجيهات السياسية لفيرناندو الكاثوليكى، عند استسلام مملكة غرناطة، هو قطع رأس المدينة المهزومة، أى العمل على أن يسلك القادة طريق المنفى. هذا التأكيد الذى يبدو مثيراً للجدل نراه بوضوح فى مراسلات سكرتيره ثافرا Zafra، خاصةً السنتين الأوليين بعد الاستسلام النهائى وبعد أن رحل أبو عبد الله، عندما كان باستطاعة فيرناندو دى ثافرا أن يؤدى المطلوب لسيده بأن يكون باستطاعة أصغر شخص فى المملكة أن يطردهم بهراوة.

لكن هذه الرغبة من جانب العاهل الكاثوليكى كان يُرد عليها من جانب الإسبانى المسلم، برغبة لا تزال أكبر فى الذهاب إلى أراضى الإسلام، فراراً من الإهانات والاحتكاك بالمنتصر.

بعد أن انقضت المدة الخاصة بالصعود المجانى على السفن، صدر الأمر بأن "جميعهم وأى مسلمين يريدون العبور للجانب الآخر... يتعيَّن عليهم العبور من ميناء المونبيكار Almuñecar ... الذين كانوا من أهل المدينة المذكورة ومقيمين بها، غرناطة، أو أرضها والبشرات... يتوجب عليهم دفع دوبلا (مسكوكة من الذهب) عن كل شخص بالإضافة إلى عُشْر كل الأشياء التى يحملونها ويعبرون بها...".

كان يتعيَّن على الذين لم يكونوا من المملكة دفع ثلاث دوبلات عن كل شخص، إضافة إلى العُشْر، باستثناء « الملابس التى يرتدونها والسرير الذى ينامون عليه..»[١٧] .

سوف توضح لنا المصادر الإسلامية مظاهر عديدة للمشكلة الاقتصادية التى ندرسها. يقول أحد هذه المصادر:

" بدأ الذين قرروا السفر فى بيع ممتلكاتهم وعقاراتهم وديارهم. كان الأمر كذلك حتى أن أحدهم كان يبيع بستانه وأرضًا للفلاحة ومنزلاً بحديقة أو أرضًا زراعية بسعر أقل من قيمة الثمار، وكان المشترون إما المسلمين الذين كانوا قد اختاروا البقاء أو المسيحيين أنفسهم. بطريقة مشابهة كانوا يتخلون عن الحُلى والأمتعة".

" فى ذلك الحين (رحيل أبى عبد الله) لم يكن المسيحيون يسمحون بعبور أى مسلم إلى الضفة الأخرى إلا بعد الدفع المسبق لقيمة السفر. ذلك كان يحدث فى الحالات التى كانت تُضاف فيها ضرائب باهظة إلى تحصيل العُشْر".

وفيما بعد: « وجد الأندلوثيون أنفسهم غير قادرين على العبور إلى إفريقيا، حيث أنه بأمر من الملك، كان يتعيَّن على المسلمين الذين كانوا يرغبون فى عبور البحر أن يدفعوا للمسيحيين الذين يقومون بنقلهم قيمة السفر كاملة، وهو ما كان يُعد أمرًا مستحيلا بالنسبة للمسلمين نظرًا لفقرهم الشديد والضرائب الباهظة التى كانوا مجبرين على دفعها »[١٨] .

إن الاعتقاد بأن الغرناطيين نزلوا على الشواطئ المغربية وهم يحملون معهم ثرواتهم لهو جَهْل بالخصائص التى تطورت فيها الأحداث الأخيرة فى مملكة بنى نصر. صحيح أنَّ الأفواج الأولى من المهاجرين كانت تشكلها الطبقات القيادية وما يمكن أن نصفها بالطبقة الغنية وأنه فى مناسبات كثيرة كان المحاربون يحصلون على اتفاق مفيد عند استسلامهم يسمح لهم بالعبور إلى هناك حتى بأسلحتهم وخيولهم مادامـوا لا يحملون طلقات من البارود، إلا أن ذلك كان أمراً قليل الحدوث داخل تيار المهاجرين الذين سيكون لديهم فقط ما هو ضرورى، كما يُقال عادة.

إجابة جيدة عن التساؤل الذى طرحناه للتو يقدمها الحدث الذى قصصناه آنفًا من اضطرار صاحب الأوقاف المغربى إلى إقراض مبلغ الأربعين ألف مثقال التى كان يحتاجها المنظرى ورجاله لشراء الأراضى التى كان يُراد إعادة بناء المدينة فيها.

إن الغرناطيين الذين أسسوا المدينة والذين وصلوا فيما بعد وعمروها لم يكونوا أثرياء حينما وطأت أقدامهم الأرض الإفريقية. لقد اضطروا إلى أن يكوِّنوا ثروة ببساطة من أجل البقاء على قيد الحياة.

لم يكونوا مزارعين، ربما كان هناك من بينهم أصحاب كل المهن لكن لم يكن بينهم فلاحون(*) بالتالى كانوا يعتمدون فى معاشهم الحالى على منتجات الحقل التى كانت تمدهم بها المناطق الجبلية المحيطة بهم، والتى لم تكن تعطيهم بالطبع إلا عن طريق منتجات أخرى بديلة تجذب انتباههم أو تكون ضرورية لهم؛ مثل الأقمشة والأسلحة والأدوات المنزلية والملابس وأخيراً يتعلمون، إن لم يكونوا يعرفون، كيف يستخدمون الأداة الأساسية للتبادل وهى النقود.

بعد أن نفدت الاحتياطات الأولية، على فرض أنها وُجدت، تعين على المبعدين أن يكرسوا أنفسهم لاستغلال كل منابع الثروة التى كانت فى متناولهم. الذين كانوا

(*) لا يتفق ميكيل دى إيبالثا مع هذا الرأى ، ويرصد أن الموريسكيين أسهموا فى تطور الزراعة المغربية . انظر كتابه (الموريسكيون فى إسبانيا وفى المنفى) . (المراجع)

يعرفون إحدى المهن شرعوا فى مزاولتها والذين لم يجدوا بدائل أخرى كرسوا أنفسهم للحرب، فى البر أو فى البحر.المحاربون بالغنيمة المنتزعة من العدو أو الذين يقومون بحماية القرى ضد الغزوات المعادية كان لديهم ما يكفى ليستطيعوا العيش. لكن على وجه خاص، هو والبحَّار على حدٍ سواء لم يكونا يعتمدان على الصيد أو الغنيمة المحبوسة، بقدر اعتمادهما على الأسرى المقبوض عليهم أثناء المعركة والذين كانوا هدفًا لفدية، كانت تتزايد قيمتها بقدر ما كانت أهمية الشخصية المأسورة أكبر. إنها كانت تجارة العبيد.

كانت تجارة مهمة لدرجة أنَّ هذا السعى للمكاسب والثراء كان فى الحقيقة هو السبب الأساسى لازدهار القرصنة التطوانية وربما للنمو غير المألوف لمدينة المرتيل التى لم تكن فى حد ذاتها تولِّد ثروة من أجل إعالة عدد كبير من الناس مثل الذى كان يصل إليها.

إن ذلك لم يكن يعنى أنه فى كثير من الحالات لم يكن السعى من أجل الثأر هو دافع الكثيرين ممن انكبوا على مهاجمة السواحل التى كانوا قد عاشوا فيها، أو باعوا أحيانًا جيرانهم فى الزمن القديم كعبيد. كان هناك من كل شىء فى ذلك العالم المعقد المتنازع الذى وُجِدَ مع سقوط آخر مملكة مسلمة إسبانية.

ينبغى علينا أن نضع أيضًا فى الحُسبان عند طرح الأسباب أن حركة المرور التجارية البحرية والقرصنة أو الإمساك بأشخاص وأشياء فى البحر أو فى السواحل، لم يكن من اختراع الغرناطيين ولا حتى نَعِموا بشكل مسبق من ظهور الظاهرة فى السواحل المغربية الشمالية. لقد رأينا فى السابق قائد الشاون يملك أسطولا وقاعدة بحرية لقلعته. كى لا نرجع سنوات قليلة جداً للوراء، عندما كان المسيحيون الأندلوثيون يهاجمون السواحل المغربية بحثًا عن غنيمة وعبيد كما يحكى لنا فيرناندو دى ثافرا نفسه عن شقيقه.

نستطيع أن نستنتج من تطور الأحداث، أن القرصنة التطوانية نهضت من جديد مع وصول رجال المنظرى الغرناطيين، وأن أسطول بن راشد الصغير زاد بسرعة جداً،

عندما انكب محاربون وأشخاص آخرون على إعداد سفن صغيرة كانوا يخصصونها للنشاط القرصاني. كان عليها طاقم غرناطي بالطبع. لم تتنعم القرصنة التطوانية بمساندة ابن البلد الذى لم تكن لديه نفس الدوافع للتجرؤ على ركوب السفن، بل كان لديه ميل مسبق خاص معارض للإبحار(٢١).

كان لدى على المنظرى وعلى بن راشد سفن مخصصة للحرب فى البحر، دون أن يقودوا تلك السفن.

كان لديهما ما فيه الكفاية بإدارة تطور المعارك البرية، حيث كان يتم الحصول فيها على سجناء كانوا يظلون أسرى حتى افتدائهم.

قال ذلك ليون الإفريقى الذى كان قد مَرَّ بتطوان ورأى ثلاثة آلاف أسير مسيحى، وعلى الرغم من أن الرقم بدا لنا دائمًا مبالغًا فيه نوعًا ما، فإنه لا توجد حجج، فى الوقت الحالى، يمكن أن تناقضه. ولا حتى الحجة بأنه فى الحالة الراهنة لسجون تطوان لا يوجد متسع لهذا الرقم، حيث توجد دهاليز كثيرة لم تكتشف بعد.

لقد تحولت تطوان إلى واحدٍ من أسواق العبيد الأكثر شهرة فى عالم البحر المتوسط. لأن العبيد، قبل افتدائهم الممكن كانوا يعانون مصير أية بضاعة. كان آسروهم يأخذونهم إلى السوق وهناك كان يشتريهم الذين كانوا يأملون فى الحصول على بعض المكسب من افتدائهم المستقبلى. فى غضون ذلك، كانوا يكرسونهم لأعمال خدمية أو بدنية كانوا يقومون بها نهارًا بينما يُحْبَسون فى الليل فى صوامع تحت الأرض. كقاعدة عامة، لم يكن لدى الأغنياء أو أصحاب النفوذ فى المدينة حصةٌ فى أى غنيمة محبوسة فحسب، بل كان لهم حصةٌ من أجل سفنهم الخاصة، لأنهم علاوة على ذلك كانوا يشترون فى السوق أغلبية العبيد من أسيادهم، الذين كانوا يفضلون فى أحيان كثيرة التخلص من مجموعات كاملة بدلا من بيعهم بشكل منفصل فرداً فرداً. ومن هنا فإنه فى لحظة دفع الفدية فإن الجزء الأكبر من المال ينتهى به المطاف فى أيدى الأقلية فى السلطة المحلية.

بالمال أو بالبضائع، كانوا يقبلون كلتا الوسيلتين فى مقابل الإفراج عن الشخص المأسور.

على الجانب المسيحى كان يتم جمع الصدقات أو الهبات نقداً أو بضائع، وكان يذهب بها رجل دين ليتفاوض على القدية مع السلطات المسلمة.

أحياناً كان أصحاب المقامات الرفيعة يتفاهمون فيما بينهم، كما فى الحالة التى أعرضها تباعاً، لأنها تتعلق بأشخاص معروفين لنا جيداً، مثل الملكة الكاثوليكية وسيدى على بن راشد.

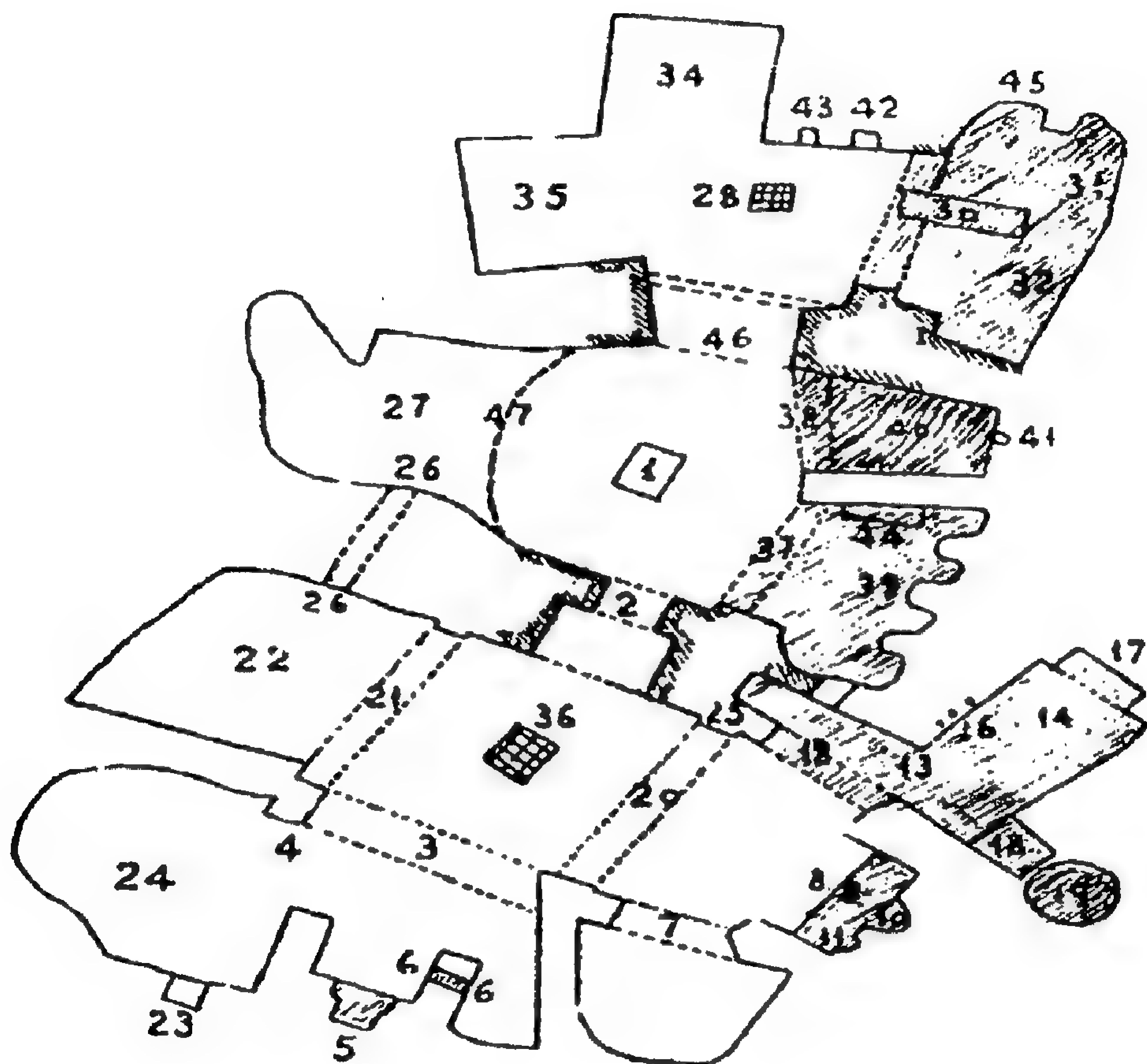
تكلف السيدة إيسابيل ثافرا بتحرير مائة أسير عند بن راشد ويرد عليها السكرتير:

« عقدت اتفاقاً مع خادم بن راشد حول موضوع المائة أسير الذى طلبتم سموكم منى التباحث بشأنه، والذى أرسله موقعاً ومختوماً من قِبَل كتاب الدولة والمُدرج هنا، وكما تشائين فإنه بذلك المبلغ يردون الأسير بخمسة عشر ألف عُمْلة مرابطية بدون أية تكلفة، وفى البضاعة التى يتعيَّن علىَّ أن أعطيها له سوف يربحون ألفى عُمْلة مرابطية عن الأسير الواحد، لأنه يتوجب علىَّ أن أعطيها له بسعر جبل طارق، وبالسعر الذى يُضاف هناك وإذا استطعنا إقناع منْ يتسلمه فمن الممكن تعديل هذا المبلغ.

سيدتى صاحبة المقام الرفيع، أرجو أن تصدروا أوامركم فى هذا الشأن حتى يمكننى خدمتكم»[٢٣] .

إن رسالة ثافرا هذه والتى يرجع تاريخها تقريباً إلى عام ١٤٩٣، ليست فقط ذات دلالة بالنسبة إلى سعر العبيد ومهارة السكرتير الملكى، بل للمعرفة التى كانت موجودة فى القصر القشتالى بقائد الشاون وعلاقات القصر به مما يعنى فى نفس الوقت، علاقة ومعرفة بالقائد التطوانى وثيق الصلة بابن راشد.

PLANTA de las MAZMORRAS de TETUAN



Escala de 1:100

زنازين سجن تطوان

إن السفن القرصانية الغرناطية تصير فى كل مرّة أكثر جرأة ولا تكتفى بشق مياه البحر المتوسط، بل إنها، حسبما رأينا سابقًا، تعبر المضيق وتكتسح كذلك الساحل الأطلنطى، حيث لها مأوى فى مصب نهر لوكوس Lucus، فى العرائش.

إن السفينة التى تقع فى أيديهم والأسرى الذين يأسرونهم، يأخذونهم إلى تطوان. منْ يقع أسيراً خلال المعارك مع البرتغاليين، يقودوه إلى تطوان. سكان القرى الساحلية المباغتون أحيانًا أثناء نومهم بهجمات موريسكية ينتهى بهم المطاف إلى سوق العبيد فى تطوان. يوجد أيضًا أسرى فى الشاون يكرسهم بن راشد على وجه الخصوص لأعمال البناء، مثلما كانت القلعة ذاتها، عملا برتغاليا لاشك، إلا أن سوق البيع والشراء، حيث يجرى المال والبضائع التى يحملها رجال الدين من أجل الفدية، هو تطوان .

فى حياة المنظرى لا يزال يلاحظ نشاط بحرى متزايد للأتراك فى هذا الطرف الغربى من البحر المتوسط. إنَّ أساطيلهم الصغيرة تتحد مع سفن الموريسكيين فى بعض الأحيان مُسبِّبةً خسائر أليمة للمسيحيين.

فى ١٣من سبتمبر من عام ١٥٤٠ يكتب حاكم سبتة إلى الملك البرتغالى خوان الثالث يخبره بأنه لمح أسطولا للأتراك فى المضيق، الذين هاجموا جبل طارق وأخذوا ثمانين أسيراً. كان ضمن الأسطول أربع أو خمس سفن من تطوان وقد أنزلوا الغنائم فى هذه المدينة لبيعها.

فى ١٢من أغسطس من عام ١٥٤١ أخبرت نفس هذه السلطة خوان الثالث بأن سفينتين تابعتين للأتراك هاجمتا سفينة وأسرتا ١٦ شخصاً وحملتاهم إلى تطوان، "muita homrrae guasalhado homde lhes Cittifora fez " وقد ظن القائد السبتى أنهم ليسوا أتراكًا بل مسلمين من ترغة أو تطوان.

إنَّ ذلك لا يأتى بشىء جديد، لأن ست الحُرَّة بعد أن مات المنظرى وأصبح زمام السلطة التطوانية عمليًا فى يدها ، كانت تفعل ما تريد، خاصة بعد أن صارت زوجة لملك فاس الذى لم يكن يرفض لها شيئًا، حسبما يكتب مصدر برتغالى، بارغاس، لقائد سبتة المذكور، ألونسو دى نورونا، فى ٣٠ من أغسطس من عام ١٥٤١ .

فى الأول من ديسمبر من عام ١٥٤١ يشكو بارغاس نفسه إلى الملك خوان الثالث لأنه عندما يرسل له خطاباته من تطوان، تقوم ست الحرة بفتحها للاطلاع على محتواها(٢٣).

إن زوجة سيدى على المنظرى شخصية غريبة.

نعرف وثائق مهمة جداً بالنسبة إلينا ومتعلقة بافتداء أسرى فى تطوان. تطلعنا من ناحية على الآليات الروتينية للافتداء، ومن ناحية أخرى تمدنا بأخبار عن المنظرى الذى كان لا يزال حيًا غير أنه مُسِن بما فيه الكفاية ليحل محله فى سُلطة المدينة صهره مولاى إبراهيم فى عام ١٥٢٣ .

فى هذه التواريخ كانت قد اختفت شخصيات رئيسية، سواء المنتمية إلى حرب الاسترداد المسيحية، (الملكان الكاثوليكيان أو تينديا)، أو المنتمية إلى المعسكر الإسلامى (سيدى على بن راشد). لاشك أن القائد التطوانى – الذى كان يمثل غرناطة الإسلامية – أصبح مسنًا جداً كما سوف نرى لاحقًا. ربما كان هناك شخص آخر منهم على قيد الحياة يُدعى أبو على، وهو نفس الشخص الذى يظهر فى وثيقة مؤرخة فى عام ١٥٠٨ لإبراهيم سرجيل **Abrahen Zerchel**، كوكيل عن مصالح المنظرى وبن راشد وأبى على نفسه.

كان لا يزال أيضًا على قيد الحياة كل من على فيرناندو والمرتد مرتيل فرنانديث، صهر بن راشد وبالتالى خال مولاى إبراهيم وست الحرة، الأسياد الحقيقيون للمدينة.

الوثيقتان المؤرخة إحداهما فى سبتمبر والأخرى فى أكتوبر من العام المذكور ١٥٢٣، هما عبارة عن شهادات وحكايات متعلقة بافتداء ٢٥ أسيراً مسيحيا من ناحية و ٤٠ أسيراً من ناحية أخرى، وتُبرزان الصدقة التى وهبها السيد ألونسو دى بيمنتيل كونت بينابينتى من أجل هذا الغرض. إنّ قيمتها، بحساب العُمْلة المرابطية، يوضع تقريبًا فى يدى خوان أورتيث دى كُوِيَّار Juan Ortiz de Cuéllar .

يقدم خوان أورتيث وثائق من أجل تبرير النفقات أمام سيده كونت بينابينتى.

تبين شهادة أعضاء رهبانية الثالوث الحاضرين فى تطوان أن أورتيث دى كويار حرر من الأسر فى تلك المدينة الأشخاص الذين يذكرونهم واحدًا واحدًا.

شهادة قائد وحاكم موقع سبته، بأنه رأى العبيد حاضرين ومسافرين بحرًا إلى إشبيلية.

شهادة المفتدين أنفسهم واحداً واحداً بأسمائهم والأماكن التى قدموا منها، إضافة إلى المكان الذى اختطفوهم فيه والمبلغ المدفوع لتحريرهم .

شهادة قائد السفينة التى تنقلهم.

الشهادات معتمدة من قبل الكتّاب العموميين فى سبتة وإشبيلية.

إن الأماكن التى جاء منها الأسرى متنوعة جدا. علاوة على ذلك هناك أسير من جنوة وثلاثة برتغاليين.

الجزء الأكبر يشكله اثنا عشر أسيراً من طنجة وستة من سبتة، تم أسرهم عن طريق القبض عليهم خلال حرب المباغتات والكمائن المستمرة التى كانت تُنفذ ضد القلاع البرتغالية فى المغرب.

هؤلاء الأسرى الثمانية عشر من سكان الحدود، مع اثنين من القصر الصغير وعشرين آخرين من السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة، يشكلون أكثر من نسبة٦٠٪ من المجموع الكلى.

رجل يدعى خوان راميريس ظل فى حوزة سيده، أبو على فى تطوان، ليس أقل من ٢٣ عامًا، وهو ما يجعل أبا على، كما كنا نعتقد، واحداً من أوائل المهاجرين الغرناطيين.

يتم تحرير زوجين وابنهما وحماته.

هناك طفل يبلغ من العمر عشر سنوات ولا يطلب منه أداء اليمين، إلا أن شاهدين يقران أنهما رأيا الصبى فى تطوان بحلقة فى قدمه. لا نعلم إذا كانت هذه الأداة أمراً شائعًا مع كل العبيد أو كانت تعلق فقط لمن كانوا يسيرون طلقاء، لمنعهم من الهروب. يؤكد ليون الإفريقى أن العبيد المسيحيين كانوا ينامون فى الليل مكبلين بالسلاسل فى قاع حفر تحت الأرض(٢٤).

إن غالبية المحررين كانوا فى تطوان؛ كان هناك أربعة قادمون من الشاون؛ وأربعة آخرين من ترغة، فى حوزة شيخ تلك المدينة التى كما نعرف، كانت تحت سيطرة سيدى على بن راشد، إلا أن فى هذا الوقت كانت تحت سيطرة خليفته مولاى إبراهيم؛ كان هناك اثنان آخران قادمان من بيليث دى لا غوميرا، تابعان لملك بيليث.

إن سادة العبيد متنوعون، على الرغم من أن الجزء الأكبر من العبيد يتركز فى أيد قليلة. كان حائز الأغلبية هو مولاى إبراهيم يليه المنظرى وأبوعلى. هؤلاء الأشخاص الثلاثة يحتكرون فيما بينهم أكثر من ٥٨٪ من العدد الكلى.

يدرك بوضوح شخصية من كانت له السلطة الاقتصادية التى كانت فى نهاية الأمر انعكاساً للسلطة السياسية.

سوف يكون للمنظرى سلطة محدودة جدا فى الواقع بسبب سنه وعدم قدرته الجسمانية ونفوذ زوجته الأصغر سنا، ست الحرة، المستندة إلى التأثير الهائل لأخيها مولاى إبراهيم. هو ليس فقط سيد الشاون وإقليمها، بل مفضلا عند السلطان وحائزاً لسلطات واسعة فى كل المملكة.

من الخمسة والستين عبداً الذين حررهم أورتيث دى كويار، يعترف عشرون بأنهم كانوا فى حوزة مولاى إبراهيم وكان اثنا عشر فى حوزة المنظرى أو أبو على وأربعة فى حوزة شيخ ترغة وأربعة فى حوزة الحاجب زيد وأربعة آخرون فى حوزة رجل يدعى مفضل وهو تاجر ثرى آخر محتمل.

على فيرناندو لديه كذلك ثلاثة عبيد. عبد من طنجة قام بافتدائه سيد من أهل الجبل. عبد من أليكانتى يقر بأنه كان فى حوزة سيدى عيسى بالومار، الذى يوحى لنا اسمه بالبرجوازية الجديدة التى نمت بجانب البرجوازية القديمة، والتى تتميز من بين أشياء أخرى بهذه الأسماء المناسبة والتى اتخذوها عندما كانوا مجبرين على التعميد فى شبه الجزيرة الأيبيرية. إن ذلك يعنى أيضاً الوصول المستمر للمهاجرين إلى مدينة تطوان.

ظل سوق العبيد التطوانى يعمل بشكل دائم طيلة قرون. كان يعانى مثل كل الأسواق من ارتفاعات وانخفاضات، وكذلك من نقص وزيادة البضائع به. بعد العصر الذى نبحثه بقليل، أى بعد المنظرى، كان لهذا السوق علاقات كثيفة جدا مع سوق الجزائر ولو أن تلك العلاقة مع سوق الجزائر كانت موجودة دائماً لكن بدرجة أقل.

أسرع أهالى الأسرى الذين أخذوا إلى تطوان بجمع مال الفدية قبل أن يأخذوهم إلى الجزائر، حيث كان تحريرهم من هناك أصعب. لأنه من المحتمل كذلك أنه من هناك كان الأسرى يؤخذون إلى الأسواق الشرقية.

بينت لنا هذه الوثائق التى شرحناها المظهر الاقتصادى، الذى يأتى على رأس المظاهر الأخرى، الذى كان لسوق عبيد تطوان(٢٥).

إنه اقتصاد نبع من الحاجة وزاد بمرور أناس أكثر وأكثر من ضفة إلى أخرى.

إن القادة الغرناطيين الذين تعودوا على العيش من أرباح عمليات الأسر لم يجدوا بديلا آخر عنها سوى إحياء نظام عبودية فى متناول إمكانياتهم، وهذه الأرباح كانت تقريباً تقتصر على الحرب البرية والمعارك فى البحر.

لقد تعود المسيحيون الأندلوثيون بشكل كاف على هذا المكسب السهل، ولكن به مخاطرة، من الغارة والقرصنة، الآن يأتى دورهم فى أن يتحملوا ذلك وأن يزاوله غرناطيو الشمال المغربى، كمورد للحياة.

الـهـوامـش

DAMIAO DE GOIS: Chronica d, El Rei D. Manuel. Coimbra MDCCLXXXX. 1-39. (١)

RODRIGUES: Anais... 1-14-32-39-80-81. (٢)

RODRIGUES: Anais... 1-205. (٣)

RODRIGUES: Anais... 1-203 (٤)

RODRIGUES: Anais... 1-56 y s. (٥)

RODRIGUES: Anais... 1-166 y s. 184-193. (٦)

AZURARA: Chronica do Conde D. Pedro... p?g. 274. (٧)

Ibid, pof. 810 (٨)

AZURARA: id. Id. Id. P?gs. 345, 348, 351, 4u3 y s. 555. (٩)

Ruy le Pina : Chronica del Rey dom Voham II, Coimbra 1950, pas. 106. (١٠)

GOIS: II- 80. (١١)

GOIS: III-16. (١٢)

RODRIGUES: Anais... 1-90. (١٣)

Id.: Anais.... 1-90 (١٤)

Id.: Anais.... 1-220. (١٥)

Id.: Anais.... 1-253. (١٦)

Sources Inedites de L'Histoire du Maroc (S.I.H.M.), Portugal, I-2. (١٧)

S.I.H.M. Port. 1-3. (١٨)

C.O.D.O.I.N.X.I-59. (١٩)

"Fragmento de la época sobre noticias de los Reyes nazaritas"... Presentado por BUSTANI y QUIROS. Larache 1940. P?gs. 50-51 y 56. (٢٠)

(٢١) BRUNOT, L: La merdans les Traditions et les industries indigenes de Rabat Sale. Par?s 1921. p?g. 241.

(٢٢) C.O.D.O. I.N. L1-63.

(٢٣) S.I.H.M. Port. 1-3.

(٢٤) L'AFRICAIN.1-268

(٢٥) Archivo Hist?rico Nacional. Osuna. Leg. 422-9.

الفصل الخامس

حكم المنظرى

التسلط العسكرى لحكمه

لا نعتقد أن إدارة الشئون التى خنقت المجتمع الغرناطى الصغير فى الفترات الأولى لمنفاه كانت أمراً سهلاً.

كان ضدهم سكان البلد الأصليون أنفسهم، سكان جبل جبالة الذين كانوا يبدون قليلى الشبه جداً لأولئك الرجال، الأفضل هنداماً والأفضل تسليحاً والذين كانت أخلاقهم المدنية مختلفة جداً عن الفظاظة الريفية.علاوة على ذلك فسوف يتعين عليهم أن يختلفوا كثيراً أو قليلا فى مظاهر دينية ولغوية متعددة.

هناك عنصر معاد آخر كانت تكونه الحاميات فى "الثغور" البرتغالية، التى تعودت على أن تجول فى الأرض وخاصة حامية سبتة التى دمرت تطوان فى عام ١٤٣٧ .

هل كان المنظرى يعتمد مسبقًا على مساندة بن راشد قبل نزوله على الشواطئ التطوانية ؟ هل حصل على هذا الدعم فى الحال؟ هناك مؤرخ مغربى يؤكد أن المنظرى كان فى البداية يعمل فى خدمة شريف الشاون وأن هذا الشريف كان هو الذى عهد إليه بقيادة مجموعة من المهاجرين.

إن تاريخ الأيام الأخيرة لبينيار وظهور المنظرى فى أراض إفريقية، لا يسمح بالتفكير فى نظرية أخرى سوى نظرية رحيل القائد الغرناطى فى عام ١٤٨٥ أو قبل ذلك بشهور قليلة وإعادة بناء تطوان بدءًا من ذلك التاريخ.

إن ما نستطيع أن نؤكده هو أنه بدون مساندة بن راشد لما استطاع الغرناطى أن يثبت أقدامه فى وادى المرتيل، من الناحية العملية فإن المنظرى وبن راشد حاربا جنبًا إلى جنب ضد كل قلعة من القلاع البرتغالية التى كانت تخنق شمال المغرب.

عندما وصل الغرناطيون إلى هناك يتصدرهم المنظرى، كان سيدى على بن راشد هو سيد كل منطقة المعيَّن الشمالى المغربى، وهو الوحيد الذى كان يتصدى بشكل مستمر للمحاربين البرتغاليين، وبالإضافة إلى ذلك كان هو الوحيد أيضًا الذى يتصدى للسلطة المركزية المرينية أو الوطاسية، بشكل عجيب ومعه عدد كبير من الغرناطيين المبعدين قبل وصول المنظرى. لنتذكر أن الشاون هى أيضًا مدينه ذات عمق أندلسى لا شك فيه.

لما كانت احتياجاته الأولى حربية، فإننا نفترض أولية عسكرية فى حكم تلك المجموعة التى تكونت حديثًا. هل كان هذا واحدًا من العيوب الخطيرة فى إدارة شئون تطوان أم على العكس سمحت بتطوره الطبيعى؟

أخبرنا ليون الإفريقى أن المنظرى كان معه بشكل دائم ثلاثمائة فارس، كلهم غرناطيون وزهرة فرسان غرناطة. من الواضح أن أولئك الفرسان الذين كانوا يشكلون مصدرًا حقيقيا لسلطة القائد الغرناطى لم تكن لديهم مهمة أخرى سوى المهمة الحربية. لقد كانوا يشكلون – مع عائلاتهم – الأغلبية الساحقة من عدد سكان المدينة فى البداية، ولكن عندما أخذت هذه المدينة تنمو من حيث عدد السكان من البديهى أنهم ظلوا كطائفة مسيطرة وربما مزعجة فى لحظات كثيرة.

لا نعلم إذا ما حدثت احتكاكات أو ثورات، إلا أن الشكوك فى وجود مصاعب تصبح أمرًا بديهيا.

السلطة القصوى للقائد الغرناطى القديم لن تكون محل نقاش لوقت طويل وعندما يصل أو يستطيع أن يحصل عليها ستكون سلطته مبنية على كفاحه الدائم المتزايد ضد المسيحى الغازى للأراضى الإفريقية وبالأداة العسكرية المصنوعة لهذا الغرض.

لقد كسر زواجه من ابنة سيد الجبل، ست الحرَّة، الحصار العدائى الذى ربما سبَّبه زواجه الأول.

لم يواجه المنظرى طوال حياته، على حد علِمنا، انتقادًا أو معارضة فى حكمه وفى زعامته العسكرية. إنَّ إصابته بالعمى وشيخوخته الشديدة فقط هما اللتان أضعفتا

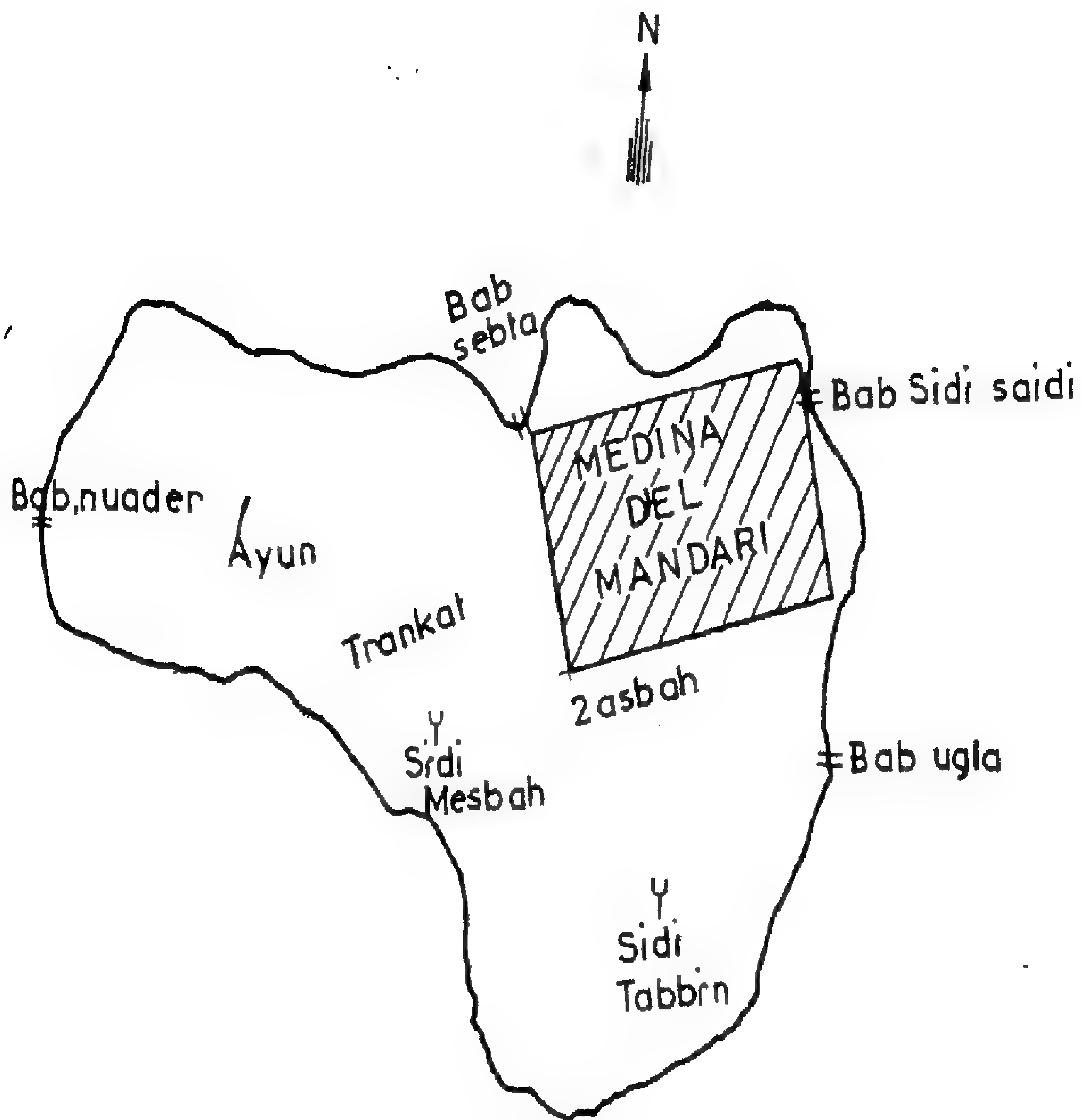
زمام قيادته التي استولت - . ب زوجته وشقيقها مولاى إبراهيم. لقد تعيَّن أنْ يَمُر أكثر من عام منذ وفاته حتى نَنفـ ن ثورةٌ وتآمر ضد ست الحُرَّة كنتيجة لبعض التذمُّر.

بَيْد أنَّ التراكم المفرط للمبعدين الذى يشتد فى فترات محددة، مثل ثورة البشرات الأولى وما تلاها من مرسوم التعميد أو الطرد فى عام ١٥٠٢، سوف يشكل صعوبة متزايدة فى حكم المدينة عندما تتزايد بشكل كبير المشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ومن كل نوع، بدءًا بالأنظمة الحضرية.

سوف تسمح لنا واقعة حربية فى البحر بأن يكون لدينا تصور عن عدد سكان تطوان فى عام ١٥١٦ . غونثالو فاث، قائد أصيلة، مسلم متنصر يخافه أهل البلد الأصليين بقدر ما يحبه البرتغاليون، وقع أسيراً عندما كان مسافراً فى سفينة شراعية من طنجة إلى أصيلة. تم أسر السفينة عن طريق سفينتين مجهزتين بطواقم من غرناطيين من تطوان، وهو المكان الذى حَملوا إليه غنائمهم. هناك استقبلهم الشعب الذى كان يكره المرتد بفرح كبير.

" كان المنظرى سيد تطوان وقائدها أكبر أعداء المسيحيين فى عصرنا هذا... وقد جمع أكثر من عشرين ألف شخص "(١).

بالتأكيد لن يكونوا كلهم من سكان تطوان، حيث سيحضر سكان كثيرون من المناطق المحيطة، لكن على أية حال وحتى لو افترضنا نسبة ٦٠٪ فقط من التطوانيين، فإنها تمثل كمية محترمة لأية مدينة فى عصرها. نظن، بالإضافة إلى ذلك، أن عدد السكان كان يزداد على إيقاع عمليات هروب الموريسكيين من مملكة بنى نصر القديمة وأن غالبية هؤلاء المبعدين تركزوا فى تطوان والشاون اللتين كان محيطاهما الحضريان يتسعان بشكل مستمر. لا يتطلب الأمر سوى إلقاء نظرة على خريطة المدينة التطوانية ومقارنة صِغَر حى بلاد Bilad البدائى بالأحياء الفسيحة الملحقة التى أُنْشِئت بسبب تراكم اللاجئين.



Esquema de las medinas, primitiva y posterior morisa de Tetuán

رسم تخطيطى لتطوان القديمة وتطوان الموريسكية

بلاد عبارة عن مكان بدائى محاط بسور يتناول داود وصفه نقلا عن الفاسى: «كان قرية مربعة الشكل، تقع فى أحد أركانها القصبة؛ كان لها ثلاثة أبواب. يبلغ عرض أسوارها سبعة أذرع. كانت القرية محاطة بسور أوَّل وسور ثانٍ، ثم كان يحيط بالسور خنادق، وكان خندق القلعة يجعل القرية أكثر قوة. كانت تتحكم فى القرية من الداخل رابية بنى عليها المنظرى قلعةً. انتهى بناؤها فى عشرين سنة». سوف نعود بعد ذلك إلى هذه السطور التى تعطينا صيغة من الجانب المسلم عما كانوا سمعوه عن شكل تطوان البدائية التى شيدها المنظرى، لأنه من المدهش لدينا من الفريق المسيحى رؤية تتشابه وتكمل التقرير الذى قدمه الفاسى، فعلى الرغم من وجود قرن يفصل بين الروايتين فإن الفاسى، الذى يُعْد اللاحق، هو صاحب التراث والمصادر المحلية، بينما الصيغة المسيحية تتمتع بقرب الزمن والأحداث. إن وجهة النظر الثانية تلك هى الخاصة بالقائد خوان غايتان، فى كتابه " تقرير من ساحل ما وراء المضيق." المكتوب على ما يبدو فى عام ١٥٠٨، وله طبيعة جغرافية عسكرية حقيقية من أجل استخدام جيوش الملك الكاثوليكى.

يعرض القائد أخباراً كثيرة وبيانات إحصائية مدهشة عن عدد السكان وكل ما يمكن أن يقدم مساعدة للمحارب المقبل الذى يتحمس للهجوم على هذا «الساحل الموجود وراء المضيق»(*) ويتحدث عن موارد مائية ، منها ما هى جيدة ومنها ما هى غير صالحة، وتحصينات وملاحظات استراتيجية أخرى، إلا أن أكثر ما يمكن أن يلفت إنتباهنا هو أن تكون تطوان هى المكان الأوحد – من بويونيس Bullones حتى ما بعد وهران – الذى تكتب فيه أسماء وألقاب محددة، كما سوف نرى تباعًا، فى الفقرة التى نورد نسخة منها:

(*) هذا ما فعله سيرافين كالديرون فى القرن التاسع عشر قبيل أو أثناء الحملة الإسبانية على المغرب ، وذلك فى كتابه "يوميات الضابط فى المغرب". (المراجع)

« هناك مسافة قدرها خمسة فراسخ من سبتة إلى تطوان حيث يوجد هناك(*)

المنظرى وهو إقليم أرض بن راشد.// تقع تطوان على مسافة فرسخ واحد من البحر //

هناك نهر يجرى من تطوان حتى البحر ويمكن للقوارب والسفن الإشبيلية دخوله، حتى مسافة نصف فرسخ من تطوان //

تطوان مكان تقطنه ثلاثمائة أسرة بالإضافة إلى أناس من الثغر المواجه لسبتة، لديها قوة إغاثة قوامها أربعة آلاف رجل في يوم واحد//

إن هذا المكان مغلق. به قلعة ذات قبوين، قبْوٌ من الداخل وآخر من الخارج وجسر يمكن رفعه من المدينة إلى القلعة. إنه مكان ذو مياه كثيرة//»(٢) .

إنَّ كلمة allid يمكن أن تكون خطأً بسيطًا عندما أراد أن يضع ظرفًا للمكان أو على العكس قد تعنى معرفة كبيرة بشخص "على" وأراد أن يسمِّيه، إلا أنه على الرغم من الشك الذى من الممكن أن يعترينا بصدد هذين الاحتمالين: "عليّ" أو "هناك"، فمن المؤكد أن غايتان، عندما يذكرهما ويكتب هذا التقرير فى عام ١٥٠٨، فإنه يعرفهما تمامًا. وأكثر من ذلك، نجرؤ على تأكيد أنه لا يتكلم بناء على ما يسمعه، وأنه(**) ربما كان واحداً من البيادق التى كان يُحركها الملك فيرناندو الكاثوليكى لينجز المشروع السرى الشمال إفريقى الذى سوف نعرض له فيما بعد بشيء من الإسهاب. نعرف على الأقل خطابًا غير منشور للكونت تنديًا يُذكر فيه القائد خوان غايتان، مُتصلا بخُدامٍ لعليّ باركسى أو سيدى على بن راشد، بتاريخ الثانى من نوفمبر من عام ١٥٠٤(٣).

(*) النص الأصلى يورد هنا كلمة allid، وسوف يشرحها المؤلف لاحقًا، فهى إما تحريف لاسم على Ali، وإما ظرف مكان بمعنى "هناك". (المراجع)

(**) يتحدث عن "غايتان" بالتأكيد. (المراجع)



مسجد سيدى سعيدة عند باب سعيدة فى المدينة القديمة

السور الأول والثانى والخنادق المتتابعة تبدو متوافقة فى رؤيتى كلا المصدرين، المسيحى والمسلم.

لنتذكَّر، كذلك، مصدراً آخر، ذكرَ سابقًا ويمكننا اعتباره مصدراً مباشراً وموثوقًا به، حيث إنه زار المدينة: ليون الإفريقى. إنه يتحدث عن قلعة متينة جدا، محاطة بخنادق، ويتحدث عن خنادق أيضاً، فى أسوار المدينة.

هناك إذن ثلاثة مصادر جديدة تتفق فى وصف دفاعات تطوان .

إنَّ المنظرى محارب بالوظيفة والغرناطيون الذين كانوا يرافقونه "مجاهدون" حقيقيون لن يظلوا هادئين فى المدينة التى كانوا يعيدون بناءها، بل كانوا يُشيِّدون دفاعات قوية ويحتمون وراء خنادق وأعمال أخرى شبيهة.

كانوا يعرفون العدو المسيحى وشجاعته وقوته الهجومية وبالإضافة إلى ذلك كانوا يعيشون فى بيئة عدائية. سوف يظل الغرناطيون يراجعون ويُحسِّنون، دفاعاتهم، ليس لمدة عشرين سنةً، كما يقول الفاسى، بل بشكل دائم.

إنَّ داود لا يتناول فقط الرؤية التاريخية للفاسى، بل يوسعها:

بالنسبة إلى القلعة الواقعة فى زاوية المدينة، يتعيَّن أن تكون المكان المعروف اليوم بجامع القصبة، الذى بناه المنظرى فى داخل المدينة. لقد تحولت/ هذه القلعة/ إلى مقر إقامته ومقر للحكومة ومركز لشئون المدينة وضواحيها. إنَّ أبراج هذه القلعة لا تزال موجودة".

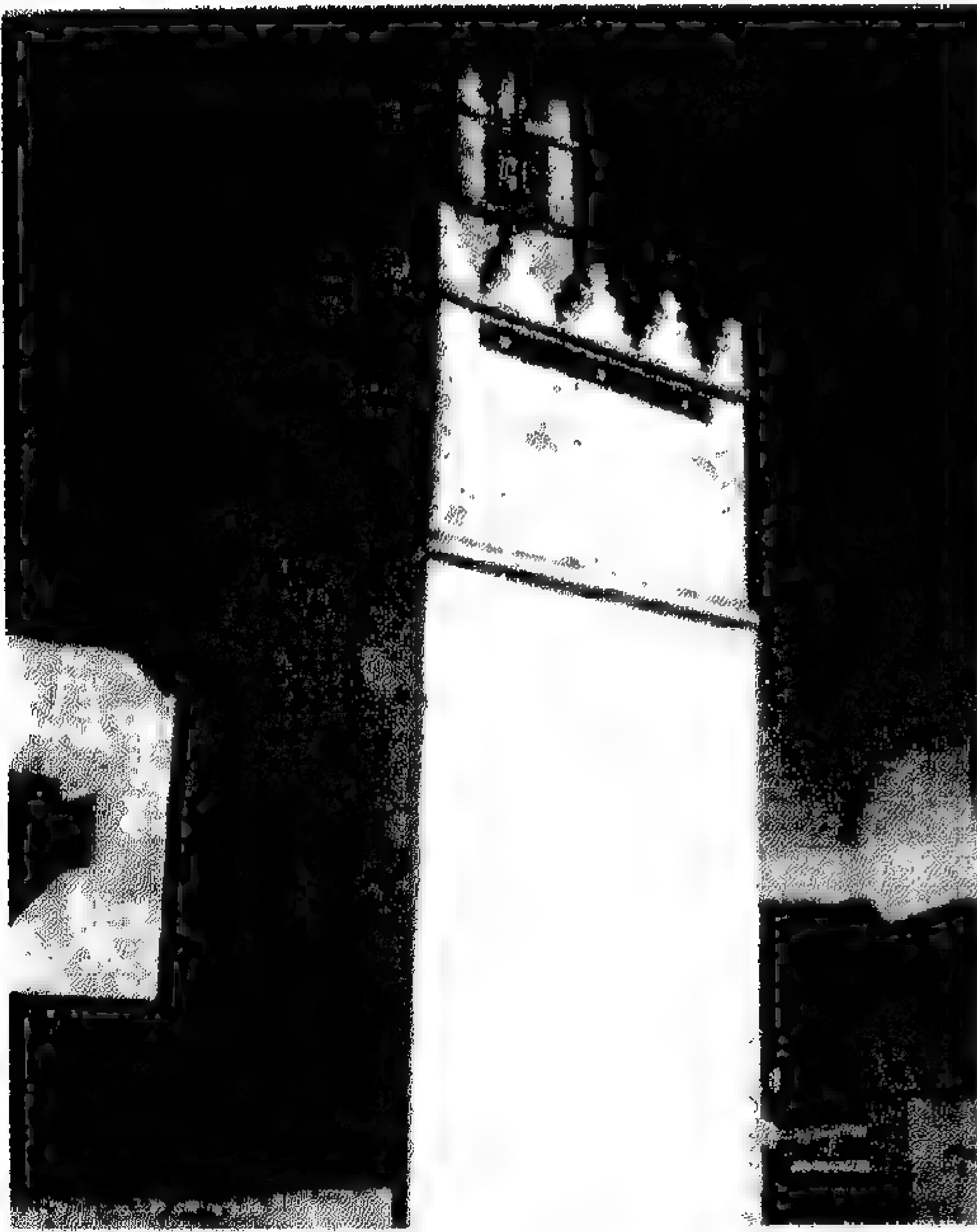
لا يزال موجوداً بالفعل جامع القلعة، مع أنه أُعيد بناؤه بشكل كبير فى عصور مختلفة، والأبراج المزودة بالاستحكامات، وأسوار قلعة المنظرى ببرجها العالى الخاص بالمراقبة، حيث كان أحد الحُراس يراقب دائمًا الأفق البحرى، على البُعْد، لكى يشير إلى ظهور أساطيل صديقة أو معادية.

على بُعْد خطوتين من ظهر مبنى القنصلية الإسبانية القديم فى تطوان، تبين قصبة المنظرى حاليًا البقايا الظاهرة الأكثر روعة ودلالة من عصر المؤسس، "مقر إقامته ومقر الحكومة ومركز شئون المدينة".

ليس بعيداً جداً، تقريبًا عند الانعراج إلى ميدان صغير، حيث يوجد الباب الرئيسى لجامع القصبة، نجد أثرًا آخر، من عصر التأسيس. إنه ما أسميته دائمًا "باب العدل" لتشابهه، فى منمنماته، مع منمنمة بنفس الاسم من قصر الحمراء الغرناطى وأن البعض يعتبرونه من عصر سابق على وصول الغرناطيين.



باب مسجد القصبة الذى بناه المنظرى



مئذنة مسجد القصبة وهو أحد البنايات الأولى

التى شيدها المنظرى



برج مراقبة فى قصر المنظرى . من هنا كانت تراقب سفن الأعداء



باب العدل من الداخل ، وهو نسخة مصغرة لباب
العدل فى قصر الحمراء ، وهو من عصر المنظرى

سوف نرى، لاحقًا، بتفصيل أكثر، هذا الأثر وآثارًا أخرى من عصر المنظرى. إنَّ باب العدل، بجوار القصبة والجامع، يعنى السلطة المتركزة فى يدى الزعيم الغرناطى. لقد كان هذا الزعيم، فى الواقع، السيد المطلق لتطوان وإقليمها، محتمياً، بشكل خاص، فى نفوذه العسكرى ومعتمداً على الأبنية الاجتماعية – الدينية للإسلام الذى كان قد ضاع لتوه فى إسبانيا. إنه عدل فى ظل الدين والسلاح.

لإكمال اللوحة بقطعة أخرى، ذات دلالة، لدينا بالقرب من باب العدل المذكور والقصبة والجامع، حى ميتامار أو مطمار أو ماتاموروس وقد حفر تحته بالكامل لبناء السجون التطوانية، مستغلين بالتأكيد خنادق من دفاعات قديمة؛ إنها نفس الخنادق التى تتحدث عنها على حدٍ سواء المصادر المسلمة والمصادر المسيحية.

لم يكن حكم المنظرى، " فى إقليم أرض بن راشد"، يواجهه أى عائق سوى تحالفه مع هذا البارَّاكس، سيد الشاون والجبل. وهو تحالف عمل، فيما يبدو، بشكل صحيح، على مدى حياة كليهما. ولأن فى الشاون وُجِدَت أقلية حاكمة، مختلطة بنبلاء وأشراف وفرسان غرناطيين، وفى تطوان هذه الأقلية، مالكة السلطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كانت تتألف فقط من غرناطيين، مع أن بين هؤلاء وجد، منذ وقت مبكر، نبلاء ومحاربون وتجار أثرياء، نظن أن من بينهم كان يوجد أثرياء يهود من عاصمة مملكة بنى نصر.

إنَّ الصعوبات التى يواجهها حكم المنظرى فى تطوان ستكون حادة وصعب التغلب عليها أمام الزيادة المفرطة فى عدد السكان المهاجرين الذى وصل إلى حصة قصوى فى السنوات القريبة التالية على ثورة ١٤٩٩ ومرسوم التنصر اللاحق. من تعداد سكان بلغ أقل من ٢٠٠٠ نسمة يقفز سريعًا إلى ١٠٠٠٠ نسمة وهو بالتأكيد يفوق هذا الرقم فى السنوات العشر الأولى من القرن. إنَّ هذا الفريق من المهاجرين، الكبير جدا من حيث العدد، لم يكن من القادة فقط، بل من آلاف كثيرة من صانعين بسطاء وفلاحين يفرون من أرضٍ تمنع عنهم الخبز والملح. إنَّ تطوان المدينة، تنمو وتنمو، لكن بالتأكيد تزداد مشاكلها فى اطِّراد. إنها صعوبات يُخَيَّل إلينا أنها ذات

طابع اجتماعى– اقتصادى أكثر من كونه سياسيا ونظن أنها، فى لحظة ما حملت إلى عقل القائدين الكبيرين، فكرة الاستسلام والبحث عن حلول لمشاكلهم الخاصة.

قسوة المنفى:

إنَّ أرض بن راشد المأهولة جداً بالغرناطيين والتى تُعْد مسرحًا حربيًا مستمراً والتى اكتسحتها كل الآفات الموجودة والتى فى طريقها للوجود، بما فيها آفات الجوع والقحط والأمراض، ليست مكانًا مناسبًا للحكم، إذا ما تعيَّن فعل ذلك بالضرب بالرُمح وعَدْو جَوادٍ مستمر.

كذلك داخل المدن نفسها، خاصةً تطوان، كان يتعيَّن أن يكون المهاجر يقظًا حتى فى أوقات الاستراحة والاحتباس فى القلاع وخلف الدفاعات المحاطة بالأسوار.

ليس الأمر هو أن نتخيل ذلك بل لقد وجدنا استشهادات مستمرة فى التواريخ البرتغالية عن قرى هاجمها بن راشد والمنظرى من أجل أن تمتنع عن دفع الضرائب للبرتغاليين. إنَّ كل محيط المواقع البرتغالية القوية كان يشكل محميَّة تقوم بتموينها، وتمدُّها أيضًا فى كثير من الأحيان بأفضل جنودها.

إنَّ قتال الأشراف والغرناطيين لم يكن ضد المسيحى الغازى فحسب بل كان ضد من يطلق عليه "مسلم مهادن"، وهو ما كان يمثل أغلبية عدد السكان الريفيين.

لولا هذا المحيط الريفى الذى يُعد مورداً للسلع التموينية التى لا غنى عنها، لكان الغلاء والسخط أمرين محتملين جداً. صحيح أن الغرناطيين عندما أعادوا بناء تطوان قد أقاموا فيها سياجًا أمام الغزوات البرتغالية التى لم تنفذ بالسهولة التى كانت تنفذ بها حتى ذلك الحين، وهو ما يعنى خلق فراغ، فى محيط المدينة ربما كان يكفى احتياجات المدينة البدائية. إلا أنه عندما أخذت الهجرات تتراكم واتسع المحيط الحضرى، ازدادت بالطبع مشاكل التموين، دون أن تكفى المقيمين هناك.

سوف يصيب هذا الجزء من البلد الجوع والطاعون اللذان سُجِّلا في مملكة فاس. على سبيل المثال، تتحدث التواريخ اليهودية عنهما، عندما يصل المبعدون إلى الأرض في عام ١٤٩٢ .

« بينما كان اليهود يقطنون في الريف بالقرب من فاس، لأن الجوع كان أليمًا في الأرض، وصل حالهم إلى الحد الذى جعلهم يذهبون إلى المدينة ويبيعون أبناءهم كعبيد في مقابل قطعة من خبز»(٤).

مع أنَّ المبعدين اليهود وصلوا بالتأكيد إلى حدود قصوى من حيث آلامهم ومجاعتهم، دون الحاجة لوجود هذه الآفات في باقي البلد، فإنَّ المصادر المسلمة تصف، في نفس الفترة تلك الأحداث الجسام التى وقعت في العصر الوسيط ونكبت البلد الشمال إفريقي.

" شاء الله في قضائه وقدره أنه عند عبور الأمير محمد بن علي (أبوعبد الله) إلى المغرب وسيره إلى فاس أن يبتلى أولئك الناس بفقر مدقع ظهر في غلاء فاحش، تبعه جوع عام وطاعون.لقد صار الوضع خطيرًا في فاس، حتى أن الناس كانوا يهربون منها؛ وحتى بعض منْ كانوا قد وصلوا إلى البلد، مهاجرين من الأندلس، عادوا إلى هذا البلد بخبر تلك الفاقة؛ لذا فإنْ أشخاصًا كثيرين ظلوا غير قادرين على الهجرة "(٥).

إنَّ كلاً من الجوع والطاعون يُعدان لاحقين بعض الشيء على مثيليهما اللذين سجلتهما المصادر اليهودية. وهو يبين تكرارهما البائس ووقوعهما بالتالي في المراكز السكنية بل أكثر من ذلك في الأراضي المأهولة جدًا بالسكان التى يتركز فيها مهاجرون من غرناطة.

كان رحيل أبي عبد الله في عام ١٤٩٣، وفي الخامس والعشرين من أبريل من عام ١٤٩٤ يكتب ثافرا إلى الملك فيرناندو الكاثوليكي: " يوجد في فاس طاعون شديد

جداً، يموت فى كل يوم ١٢٠٠ أو ١٣٥٠ شخصًا والبعض يقول إنه فى يوم يموت ٢٠٠٠ شخص، وهناك أجزاء كثيرة من تلك المملكة هى تقريبًا غير مسكونة بسبب الطاعون"[٦].

من جانب آخر لا يجب أن ننسى أنَّ تطوان كانت الملاذ لجزء كبير من طبقة النبلاء الغرناطية. إنَّ القباب أو المدافن بالجبانة المسلمة القديمة دليل جيد على ذلك؛ إنها قباب تُبنى تحديداً بواسطة ومن أجل شخصيات من العائلة الملكية. هل سببت طبقة النبلاء هذه مشاكل ذات طابع سياسى أو اجتماعى للمنظرى؟

لقد حاول بن راشد والمنظرى مرات عديدة مهاجمة وحصار القلاع البرتغالية. بيد أنه حتى أضعف هذه القلاع (والتى يمكنّ اعتبارها قلعة القصر الصغير) لم تكن فى أى وقت فى خطر الوقوع فى أيديهما. بل، بعدما اتحدت قوات الزعيمين مع قوات ملك فاس نفسه لم يحصلوا كذلك على أى نجاح فى الهجمات على أسوار أصيلة أو طنجة أو سبتة.

بالإضافة إلى البلاط البرتغالى الحافل فى أحيان كثيرة بالأحداث الحربية، كان المسيحيون الأندلوثيون والعاهلان الإسبانيان نفسهما هم الذين كانوا يسهرون حتى لا تقع تلك القلاع الإفريقية فى أيدى المسلمين.

فى عام ١٥٠٢ يرجو الملكان الكاثوليكيان من الإشبيليين أن يهبوا لنجدة " موقع لملك البرتغال حاصره المسلمون التابعون لملك فاس". بالنسبة إلى المسيحيين الأندلوثيين، كان أمنهم الخاص يدفعهم لمساعدة الحاميات البرتغالية فى المغرب، وهو ما كانوا يفعلونه برجال وعتاد حربى وفير، هذا بالإضافة إلى الفائدة الاقتصادية التى كانت حركة التبادل التجارى مع المغرب تحققها منذ عهود قديمة جدا[٧].

لقد كان هذا الدعم البشرى والاستراتيجى يفوق بكثير الدعم الذى يمكن أن يجلبه الفريق الآخر من داخل البلد. تُضيف بيانين يفصحان عن نفسيهما. فى عام١٥٠١ أراد الملك مانويل العبور إلى إفريقيا بجيش قوامه ٢٦٠٠٠ رجل، بينهم٦٠٠٠ فارس،

وفى هذا العام نفسه كانت حاميات طنجة وأصيلة تسمح بالقيام بغارات على المناطق المحيطة بالقصر الكبير[٨].

كان المنظرى وبن راشد مدركين تمامًا حدود قوتهما. إنهما لم يستطيعا حتى أنّ يفيا بتطلعاتهما للاستقلال المُطلَق، لأن نفوذ ملك فاس كان يتجاوز ويفيض ليقطع أى طموح فى هذا الصدد مع أنه بعد ذلك لم يكن قادراً على السيطرة على الفوضى المتسلطة وترك كل سيد حرب يحكم الأرض الخاصة بنفوذه.

لا نعلم، بالتحديد، أى نوع من العوائق وأى نوع من القيود وما هى الصعوبات التى دفعت كلا الزعيمين بالشمال المغربى لعقد محادثات مع البرتغاليين أنفسهم بهدف أن يمدوهما بسفن لهما ولعوائلهما وثرواتهما، بهدف الانتقال إلى تونس، وتعهدا لهم فى المقابل بتسليم مدينة تطوان وإقليمها طواعيةً بالكامل.

إنّ الأحداث سوف تبدو لنا ضربًا من الخيال لو لم تكن لدينا الوثائق لإثباتها.

تمضى المحادثات والمشاريع بطيئة من عام١٥٠١ إلى١٥٠٣، أى أنّ ذلك كان أمراً تمت دراسته والبت فيه على مدى طويل نوعًا ما. ويكشف بن راشد للورينثو دى بارغاس، مُعتق الأسرى فى طنجة، عن رغبته فى "العبور إلى تونس مع كل أهل بيته وأبناء إخوته وأقاربه مثل قائد تطوان ومع كل ممتلكاتهم، وأنه من أجل ذلك، ياسيدى، يطلب منكم يا صاحب السيادة أسطولا صغيراً يعبر به إلى تونس مع كل أهله، وأنه، ياسيدى، سوف يعطيكم تطوان، وسوف يُمَلِّكها لكم هى وكل الأرض بدون أى مجهود..."

بل إن الأكثر غرابة هو التأمين الملكى، الذى يُظهره إلى لورينثو دى بارغاس موقَّعًا ومختومًا فى البلاط البرتغالى، والذى يُسمَح بمقتضاه لـ"بن راشد نفسه وقائد تطوان بأن يتنقل فى كل واحدٍ من هذه الأماكن مع النساء والأبناء والممتلكات بشكلٍ آمن...." ويُرسل إلى كل قادة القلاع ليقدموا لهم التكريم والمساعدة التى يستطيعونها.

لقد حرر التأمين المذكور بتاريخ ١٣ من مايو من عام ١٥٠٢، وكان بن راشد يقول إنه تسلمه مباشرة من ملك البرتغال منذ حوالى تسعة شهور.

كخاتمة للوثائق الموجودة والمتعلقة بهذا الموضوع، هناك خطاب كتبه سيدى على المنظرى إلى ملك البرتغال فى ٢٢ من يناير من عام ١٥٠٣، والذى يؤكد فيه الغرناطى دعمه وموافقته على ما تم التحدث بشأنه مع بن راشد(٩).

بعد أن عرضنا كمقدمة بعضًا من الأسباب التى يمكن أن تُفسِّر هذا القرار شديد الصرامة من جانب المنظرى وبن راشد، يتبقى لنا بعض الاعتبارات التى للأسف لا يمكن أن توضح لنا شيئًا كبيرًا عن القضية.

واحد من هذه الاعتبارات المهمة جدا هو لماذا خطر ببال كلا الزعيمين طلب أسطول صغير مقابل امتلاك تطوان، إذا كان لديهما أو كانا يستطيعان امتلاك أو تدبير هذا الأسطول الصغير، خاصةً فى فصل السنة الذى لم تكن تُبحر فيه تلك السفن بسبب المناخ، وهو وقت سوف يجهزون فيه تجمعهم وهروبهم؟. بالطبع سيكون بإمكان السفن المطلوبة الوقوف فى سبتة أو طنجة، فى حماية المدفعية البرتغالية ويلجأ الزعيمان مع أهليهما إلى نفس هذه القلعة للإبحار من هناك باتجاه تونس؛ إن ذلك كان هو الأسهل للطرفين.

هناك اعتبار آخر، يتسم بشىء من الخطورة، وهو التفكير فى أنه بتسليم تطوان وإقليمها، توضع فى أيادى برتغالية حياة الآلاف من المهاجرين الغرناطيين. هل كانوا هم المتسببون فى القرار اليائس لزعيميهما ؟. هل لم يعد بأيديهما السيطرة على حكم مدينة تطوان ؟

إن ما يسترعى انتباهنا هو أنه لم يرد ذكر مدينة الشاون فى الاتفاقيات؛ فقط تطوان وإقليمها، الذى نفهمه على أنه وادى المرتيل. إن الأشراف والغرناطيين الذين كانوا يعيشون فى ظل الحماية المباشرة لـ بن راشد، لم يكونوا يسببون، على ما يبدو، مشاكل اجتماعية – سياسية، وكانوا مبعدين عن كل اتفاق تسليم أو تنازل. ومن ثم،

فإنه يبدو بالفعل أنَّ الهجرة الغرناطية الكبيرة إلى تطوان هى التى تسبب مشكلة لحكام الشمال المغربى.

هناك أمرٌ يبدو مؤكداً، بالإضافة إلى وجود تلك المفاوضات، وهو الاتحاد القوى الذى يظهر حميمًا وبدون تصدعات بين المنظرى وبن راشد. إنه اتحاد سوف يصير عائليا بعد ذلك بقليل جدا عندما يتحول المنظرى إلى صِهْر لـ " بن راشد".

هل ارتاب البرتغاليون فى وجود حيلة حربية لسيد الشمال، من أجل الاستيلاء على موقع قوى ؟

ألم يكن لديهم وسائل كافية لمجابهة كل ما كان يقتضيه المشروع ؟

نحن لا نعرف سوى ما نقلته الوثائق الموجودة(*) إن كل ما عدا ذلك كان تخمينات، قائمة على معرفة البيئة وكثير من الظروف التى انتشرت فيها الأحداث التى تم عرضها.

يعتقد كاتب " مغربى" أنَّ من المستحيل أنَّ أميراً متديناً جداً ووطنياً مثل بن راشد يمكن أن يفكر فى خيانةٍ كهذه.

دون أنَّ نتجاسر على الحكم بسرعة، نحن نتذكَّر رؤساء كثيرين وملوكًا، مسلمين ممتازين، وعلى ما يبدو محاربين أكفاء، أذعنوا أو استسلموا لقوات الملكين الكاثوليكيين، لقد فعل ذلك الكثير منهم حتى دون أن يُظهروا بادرة مقاومة.

ونحن إذ نقول ذلك، لا نفكر فقط فى الحرب الغرناطية الأخيرة بل فى الغزوات الشمال إفريقية للملك فيرناندو. أو كما كان يقول ثافرا: " كل المملكة ترتعد وتمسك بيديها المفاتيح"(١٠) .

(*) ذكرنا فى مواضع كثيرة أن لدينا أسباباً قوية تجعلنا نشك فى الكتابات التاريخية الأوروبية لذلك العصر . من ناحية أخرى لا يورد المؤلف رسالة بخط الزعيم الغرناطى تجعلنا نطمئن إلى ما ذهب إليه . (المراجع)

هكذا كان يشير إلى تلمسان وملكها، فى عام ١٤٩٤ .

إن ما يحدث هو أنه لا يمكن نقل عقلية الحاضر إلى الأحداث التاريخية الماضية، ولا عقلية من يكتب التاريخ. إن كاتب التاريخ يجب أن يقدِّر الأشخاص والظروف بما يوافق العصر الذى عاشوا فيه وليس الانهماك فى البحث فيما كان سيفكر فيه أو يفعله إذا ما وجد نفسه فى تلك المواقف الفاصلة أو فى مثلها.

يهود غرناطيون فى تطوان:

فى هذا الفصل الخاص بحكم المنظرى فى تطوان من الضرورى أن نضع فى الحُسبان عوامل كثيرة ومتنوعة، من الظروف الخاصة بالزمان والمكان وحتى الظروف الشخصية للطبقات المختلفة للسكان الذين كانوا يتوافدون، وأيضًا ظروف أقليات محددة تعيَّن عليها - مثل المبعدين المسلمين - أن تقاسى المنفى والمشاق.

نحن نشير بالطبع إلى اليهود الغرناطيين الذين رغبوا فى البقاء على دينهم وعاداتهم وفضلوا المنفى على البقاء فى وطنهم.

لا نعرف ما هى النسبة المئوية للذين اختاروا الخروج أو نسبة الذين اختاروا البقاء. على أية حال إذا تذكرنا أن عدد العبرانيين الذين صعدوا على السفن من هناك فى المريَّة بلغ ٧٨ شخصًا وأن٤١ شخصًا قد أبحروا من مالقة، يبدو لنا أن عدد اليهود الذين يرحلون لا يصل إلى نسبة ١٠٪، أما الذين يبقون ويتعمدون ويندمجون فى المجتمع المسيحى فهم يتجاوزون نسبة الـ ٩٠٪[١١].

بعد ذلك كانت بعض قوائم محكمة التفتيش، طويلة بقدر طول قوائم صعود الذين لم يمكن تنصيرهم.

يشكل اليهود الغرناطيون الذين يرحلون إلى الجانب الآخر من المضيق مجموعة خاصة سوف نقوم بدراستها، كما سندرس وجود هذه المجموعة فى مدينة تطوان المتزايدة.

وكما أثبتنا وجود يهود فى الشاون فى عهد مؤسسها سيدى على بن راشد، نستطيع الآن إثبات وجود مستعمرة يهودية فى تطوان فى عصر المنظرى(١٢).

إنَّ من الصعوبة بمكان تحديد التاريخ الذى وصل فيه يهود غرناطيون إلى تطوان : إن كانوا قد وصلوا فى نفس الوقت الذى أعاد فيه الغرناطيون بناء خرائب المدينة، أو كانوا قد وصلوا فيما بعد وفى أى وقت يفترض ذلك الوصول.

إن البحث فيما إذا كان المنظرى ومحاربوه أحضروا معهم أحد أو بعض اليهود الغرناطيين الأثرياء، علماً طبيعة أو صنَّاع، ليس ذا معنى، لو فكرنا أن قائد بيتيار لم يكن يحتاج فى البداية سوى محاربين، وأن أولئك اليهود، فى الفترة من عام ١٤٨٦ إلى ١٤٩١ لم يكونوا يفكرون فى الطرد. إلا أنهم من ناحية أخرى سُرْعان ما سوف يبدون منكبين على نشاط تجارى لمنتجات كان يحتاجها التطوانيون الجُدد والتى كان منخرطًا فيها بالتأكيد العبرانيون الذين كانوا يعيشون فى الشاون ووفدوا حديثًا من مملكة بنى نصر التى كانت على وشك الانهيار.

فيما بعد، فى عام ١٤٩٢، عندما طُردوا من شبه الجزيرة نستطيع أن نتأكد من تكوين جماعة يهودية فى تطوان. جماعة تتشكل فى صمت وتزداد كمًا ونوعًا فى سنوات قليلة إلى أن تتحول فى أقل من قرن إلى واحدة من المراكز الأكثر أهمية فى المهجر اليهودى الإسبانى فى المغرب.

قلنا إن تلك المجموعة كانت تتشكل فى صمت لأننا، بالفعل، لم نجد أيًا من التواريخ اليهودية - التى تروى أحداث المنفى وآلاف المصائب التى عانى منها العبرانيون فى منفاهم - تتحدث عن اليهود الميغوراشيم الذين استقروا فى تطوان، ولا تتحدث كذلك عن الذين يحضرون إلى الشاون للاجتماع بالجالية

اليهودية الريفية التى كانت موجودة هناك منذ عام ١٤٧١ فصاعداً عندما تأسست وتطورت مدينة الأشراف.

سالومون بن فيرغا، أكثر أولئك المؤرخين تعبيراً، يسكب كلمات كثيرة من الألم والضيق من أجل إخوته الذين سقطوا فى فاس أو فى أصيلة أو فى أماكن أخرى، لكنه لم ينبس بنصف كلمة من أجل هؤلاء الذين وضعوا أنفسهم فى هدوء تحت حماية زعيمى الشمال الكبيرين، بن راشد والمنظرى(١٣).

لقد كان اليهود موجودين، نحن واثقون من ذلك. سوف نحاول، ليس أن نثبت ذلك، فهو أمر مفروغ منه، بل أن نقدم الجزء الأكبر من الدلائل التى تقربنا من الحدث الحقيقى الخاص بوجود يهود فى تطوان، إن لم يكن فى الشهور الأولى لإعادة بنائها، ففى السنوات الأولى لإعادة تأسيسها كمدينة.

بالنسبة إلى وجودهم فى المدينة فى زمن المنظرى، ليس بالأمر البالغ الصعوبة العثور على وثيقة تدل على ذلك، نظراً للفترة الممتدة التى حكم فيها القائد الغرناطى بشكل فعلى وحقيقى.

هناك شاهد استثنائى هو رجل الدين الهولندى نيكولاس كلينارد Nicolás Clenard، يكتب فى رسالة مؤرخة فى تطوان بتاريخ ٢١ من أبريل من عام ١٥٤٠ إلى مؤدبه لدى مروره بالمدينة، فى طريقه إلى فاس، الملاحظات التى خطرت على باله، من بينها العدد الكبير من اليهود الذين يمكن أن يراهم(١٤).

si Deus me incolumem duxerit Fesam, video & aliud scribendi argumentum de profectione terrestri: aiunt nobis quinque noctes agendas sine tecto, sub dio, & sesquidiem consumendũ in altissimis rupibus. hoc Brabantino homini, & discipulo Louaniensi quid est aliud, quàm mortis species? Orabis Deum vt me seruet incolumem, & aliquo pietatis fructu reducat ex Africa. Benè vale, colende præceptor, cum tota familia, Latomo iuniore, & cæteris amicis. Commendo me precibus Magistrorum nostrorum. Septæ XV. Aprilis, Anno M. D. XL.

NICOLAVS CLENARDVS D. IACOBO LATOMO S. D.

SABBATO superiore discessimus Septa, vbi hæsimus quatriduum, ipso scilicet tempore quo Machometistæ suum celebrant Pascha. Opposui ego aliquid veteri prouerbio: Semper aliquid noui adfert Africa. Siquidem multò magis me admirati sunt, quàm ego illos, qui iampridem narrante meo præceptore illorum mores didiceram. Monitus fueram ne quid vel Machometistis crederem, vel Iudæis, quorũ etiam magna hic est copia. Neutros metuo tum quòd & sic cum illis agam, vt amare possint, non odisse: tum etiam quòd literis mei præceptoris facti sunt certiores, quàm ego illum humaniter tractem, etsi captiuum. Apertè prædico me venisse discendæ linguæ gratia, & vt librorum mihi comparem supellectilem. esse enim iam apud Christianos solennem linguarum complurium professionem: hanc deesse, velut Arabicam coronidem, mihi hanc susceptam profectionem, vt eam apud nostros homines profiterer. Ego vltrò ad disputandum non prouoco, prouocatus respondeo me nõ venisse disputandi gratia, sed discendæ linguæ Arabicæ. Illi tamen interim admirantur, cùm in colloquio me audiunt citantem fragmenta quædam Alcorani. Superiore biduo

tantus

tantus fuit hominum concursus, vt Flandrensem cernerent, qui legeret, scriberet, loqueretur Arabicè, vt vix mihi spacium relinqueretur rebus peragendis necessariis. Cumque meum sermonem vulgari puriorem audirent (è libris enim eum hausi) veluti oratorem quendam suspiciebant Arabicum: adeò vt adolescentem quendam adducerent, veluti eximiè literatũ, qui quinque annos studuisset Fesæ. Vnde nihil aliud consequuti sunt, quàm vt eum multis præsentibus confutarem in Grammatica: quæ mea victoria, multis in conuenticulis iactata est. Hæc, mi præceptor, non gloriandi causa commemoro, sed vt scias, me gratia Dei optimam concepisse spem de hac mea profectione, nec dubito, me Fesæ multis charum & gratum futurum, etsi maximè sim Campiniensis: Sin aliter eueniat, & mihi Deus pœnam statuat imponere Fesæ, fiat eius voluntas. Benè vale, colende præceptor, & Deum ora pro me. Semper sim commendatus precibus Magistrorum nostrorum. Ex Tuytuan. XXI. Aprilis.

NICOLAVS CLENARDVS IACOBO LATOMO S. D.

DIE XXIX. Aprilis discessimus à Tuytuan, noctes duas egimus sub tentorio, Calendis Maij, confectis duabus leucis, vehemens nos occupauit pluuia, & iter torrentibus impediebatur inter altissimos montes, vt necesse haberemus figere tentoria. Sub iis desedimus diem cum insequente nocte. Postridie data serenitate pergere cœpimus, & quarta Maij, ingressi sumus Fesam, vrbem grandissimam, de qua per ocium latiùs ad te scribam, simulatque hic res meas composuero. Salutaui Regem Arabicè, & cum eo prolixè sermonem miscui, exposita causa profectionis, de qua cùm aliquãto ante aduentum meum certior fuisset factus, è literis credo præceptoris mei, iam diploma fidei miserat vt tutò venirem in Africam, & si casu factum sit, vt ad me

C 5 non

نعلم أن المنظرى كان لا يزال علي قيد الحياة فى ذلك التاريخ، حيث إننا نعرف اتصالاته مع معلم العقيدة الأب كونتريراس Contreras، فى الشهور الأخيرة من ١٥٤٠ .

على أية حال فإن وجود يهود كثيرين فى تطوان حينئذٍ، كان يعنى وجود حى يهودى متأصل ومزدهر فى وقت سابق.

فى هذا العقد من القرن السادس عشر سوف ينعم الحى اليهودى التطوانى بإمكانيات وظروف حياة جاذبة لكل من كان ينوى الهرب من شبه الجزيرة ويتبع دين آبائه.

هكذا يقوم معتق الأسرى البرتغالى، فارغاس، بإبلاغ عاهله بذلك من فاس فى السادس من يونيو من عام ١٥٤٢ .

" سيدى، من الضرورى منع أى مسيحى جديد من الذهاب من طنجة إلى أصيلة، أو من مكان إلى آخر براً، لأن بعض الجنود المسلمين، الذين ينقلونهم من مكان إلى آخر، بمجرد أن يخرجوا إلى الريف، يطلب منهم اليهود(*) أن يحملوهم إلى تطوان ليعودوا يهوداً. هذا ما فعله الآن مسيحيون جُدد وصلوا إلى طنجة قادمين من لاميغو Lamego، فقد خرجوا وهم يقولون إنهم ذاهبون إلى أصيلة ولكنهم ذهبوا إلى تطوان "(١٥)

غبريال دى أراندا Gabriel de Aranda، كاتب سيرة كونتريراس- الذى تعامل مع الزعيم العجوز فى الشهور الأخيرة من حياته – يتناول شهادات يهود تطوان القُدامى،

(*) النص الأصلى الإسبانى به خطأ لغوى واضح لا يستقيم معه ، إذ يرد فيه أن الجنود المسلمين يطلبون هذا الأمر من الجنود المسلمين ، لذلك قمنا بالتصحيح . (المراجع)

عن أنشطة معلم العقيدة كونتريراس. علاوة على ذلك يؤكد أراندا أن الأب كونتريراس وعظ فى نفس المعبد اليهودى التطوانى(١٦).

فى ١٢ من أغسطس من عام ١٥٤١ يكتب ألفونسو دى نورونيا Alfonso de Noroña ، حاكم سبتة، إلى الملك خوان الثالث، حول علاقاته بالقائدة الفعلية لتطوان، ست الحرَّة، أن الحرَّة أرسلت له رسالة مع يهودى، وهذا اليهودى يعمل كمرافق لمبعوث نورونيا الذى يحمل ردَّه. يعود اليهودى نفسه برسالة أخرى من الحرَّة. وفى الوقت نفسه يقوم بإذاعة أخبار سُمعت فى تطوان عن الأتراك ولم يكن نورونيا يعتقد أنها صادقة(١٧).

إن هذه الوظيفة سوف تكون واحدةً من الوظائف الأكثر شيوعًا والتى يقوم بها اليهود، وظيفة الوسطاء والمترجمين والسماسرة، كل ذلك فى وظيفة واحدة، سواء فى تطوان أو فى المواقع البرتغالية القوية(*) وأفضل من كان يستطيع أن يقوم بهذا العمل كان بالتحديد هذه المجموعة من اليهود الغرناطيين، العارفين باللغة العربية والذين كانوا محل ثقة كبيرة من جانب أبناء وطنهم، والذين كانوا بالإضافة إلى ذلك يشاركونهم نفس البلية.

إنَّ تجارة العبيد التى امتصت تطوان الجزء الأكبر منها، كمركز لعمليات افتداء كثيرة، ستكون دائمًا عامل جذب لوساطة اليهود الذين تحولوا هم أنفسهم إلى أسياد للأسرى.

كما كان يحدث مع أى سلعة أخرى، يقول الأب أراندا:

"اعتاد اليهود شراء العبيد لكى يعيدوا بيعهم فى أماكن أخرى"(١٨) .

(*) حول دور اليهود فى العلاقات بين أوروبا والعالم الإسلامى انظر كتاب "بين الإسلام والغرب" تأليف جيرارد ويفرس وغارثيا أرينال ترجمة ممدوح البستاوى ، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٥ . (المراجع)

لقد كان الاتجار فى العبيد على نحو خاص أمراً شائعاً بين الجزائر وتطوان.

إنَّ الأحداث تجعلنا نظن وجود يهود فى تطوان منذ عودة القرصنة المركزة عند منبع نهر المرتيل، وهو ما يستلزم وجودهم فى العقدين الأولين من القرن السادس عشر.

يتأكد ذلك عندما نعلم أن يهود تطوان بايعوا (حاييم بيباس حازاكين Hayyim Bi-bas ha Zaquen) فى عام ١٥٣٠ ليكون حاخام فاس. بعد أن عينه يهود تطوان "حاخامًا كبيراً "، أصبح بيباس زعيم عائلة لحاخامات كبار وحاخامات بسطاء فى تطوان امتدت حتى أيامنا(١٩).

يمكن تفسير مبايعة بيباس، بفضل معرفته اللاهوتية والقضائية الفائقة التى كانت تُعزى إلى مدينة فاس، والتى كان مجتمعها مؤلفًا من أغلبية من يهود ميغوراشيم قشتاليين. وهو تفوق اعترفت به جماعة تطوان، المؤلفة فى معظمها من ميغوراشيم غرناطيين. هؤلاء كانوا يتحدثون اللغة العربية، وعلاوة على ذلك، كانوا يرتدون الزى الموريسكى، كما يقول بيرنالديث Bernáldez، وهو ما كان يقربهم أكثر إلى الموريسكيين الغرناطيين، وكان يسهل اندماجهم وتعايشهم مع الذين أعادوا بناء تطوان.

من الميغوراشيم الغرناطيين سوف تتغذى التجمعات اليهودية فى تطوان والشاون والقصر الكبير وأصيلة ومراكز أخرى يوجد بها موريسكيون.

من المفترض أن هذه الجماعات لم تتفاهم جيداً مع اليهود الميغوراشيم القشتاليين فقد كانت هناك اختلافات ظاهرة بينهم، ابتداءً باللغة ذاتها وانتهاءً بالعادات وعلاوة على ذلك الملبس الذى احتفظ به المسلمون الإسبان فى منفاهم، وكذلك اليهود القادمون من مملكة غرناطة.

ليس لدينا وثيقة تؤكد على وجود يهود إسبان فى تطوان فى أواخر القرن الخامس عشر. إنَّ المدينة، التى بدأ المنظرى ومحاربيه فى إعادة بنائها بدءاً من عام ١٤٨٥ أو قبل ذلك، لن تكون لها قدرة كبيرة على استيعاب أجانب فى السنوات الأولى. نعتقد أنه

فى عام ١٤٩٢، حينما خرجت أعداد كبيرة من اليهود، كانت المدينة تنمو وهى تأوى مسلمين إسبان، إلا أنه كان سيُعَدُّ أمرًا صعبًا قبول مئات من الميغوراشيم القشتاليين، الذين كانوا بالنسبة إليهم غرباء مثل المسيحيين، ومن المنطقى الاعتقاد بأنه على العكس أمكن استقبال دستة من المواطنين الذين لم يكونوا ليشكلوا عقبة كبيرة، بل كانوا سيساعدون فى مظاهر كثيرة من الحياة اليومية والتى كان المسلم يحتقر ممارستها.

هناك دلائل أخرى ذات طابع أثرى تقربنا من التواريخ الأخيرة من القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر لكى نصدق وجود تجمعات يهودية خاصة فى مدن الشمال المغربى. وهى تجمعات نحددها بميغوراشيم غرناطيين.

توجد مثل هذه الدلائل الأثرية فى المقابر اليهودية بمدن الشمال. هنا يوجد أنموذج للمقبرة يختلف جوهريا عن نماذج المقابر فى وسط وجنوب البلد. يكفى مقارنة الصور والرسومات التى نشرها ميّاس Millas[٢٠] أو فيلار Villar[٢١] أو التى قمت أنا بنشرها[٢٢]، بتلك التى أخرجها إلى الضوء كل من بوريّللى Bourrilly ولاوست Laoust.[٢٣].

عمومًا فإن شكل التابوت فى الشمال يكون منقوشًا فى شاهد القبر ذاته، أى، أن لوحة الحجر نفسها لها شكل تابوت.

فى باقى البلد يكون التابوت مرسومًا أو منقوشًا على الحجر، الذى يكون شكله مستطيلا، مثل أحجار مازاغان وأثيسور وأغادير، أو له أشكال متنوعة على شكل معين منحرف أو انحناءات عند الرأس، كما فى مراكش أو موغادور أو رباط سلا.



مقابر قديمة في مدافن كاستيا في تطوان

" كل مدينة، كل عصر، له عاداته فيما يخص شكل المبانى الجنائزية"(٢٤).

لكننا نلاحظ أن هناك مدنًا مختلفة من المعين الشمالى المغربى تتشابه مقابرها اليهودية – التى ترجع تقريبًا إلى العصر نفسه – فيما بينها وتختلف عن مقابر باقى البلد.

الفترة حددناها بفضل حدث تاريخى مؤرخ تمامًا، وهو الإخلاء البرتغالى لأصيلة فى عام ١٥٥٠، فظلت خالية، ثم أعيد احتلالها ثم تركت من جديد بعد مغامرة الملك سيباستيان فى عام ١٥٧٨ .

فى عام ١٤٩٢، عام الطرد، وصل آلاف من العبرانيين إلى أصيلة؛ بعضهم وهم الأكثرية توجهوا بعد ذلك إلى الداخل، وآخرون وهم أقل وصلوا بغرض البقاء أو العودة إلى شبه الجزيرة بعد طلب التعميد. بالتالى فإن المدافن اليهودية فى أصيلة تندرج بين السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر ومنتصف القرن السادس عشر بالضبط.

بدءًا من عام ١٥٥٠ لا توجد قبور يهودية أخرى فى أصيلة حتى التواريخ المعاصرة، لقد توقف إذن تطور "ممكن" من شكل القبر فى آخر العصر الوسيط إلى القبور التى تُبنى فى عصرنا هذا.

بهذه الطريقة نعتقد أن لدينا قاعدة انطلاق من أجل مقارنة واستنتاج بيانات مهمة لدراستنا.

يوجد يهود فى أصيلة منذ قبل عام ١٤٩٢ حتى عام ١٥٥٠ ، قبورهم يمكن تأريخها بدءًا من عام ١٤٨٧ .

تقع جبانة أصيلة العبرانية، البعيدة عن أسوار المدينة، فوق جرف على حافة البحر. هذا الوضع يؤثر فى حالة حفظ المدافن خاصةً فى الجزء القديم، حيث يصل البحر ليضرب بعض القبور، وفى أجزاء أخرى أحدثت رطوبة الجو تآكلا فى ألواح القبور الحجرية. الكثير منها محفوظ لأنها مغطاة بطبقة من تُربة نباتية حيث نمت بوفرة الأعشاب والشجيرات المتشابكة.

إنَّ ألواح القبور من حجر واحدٍ، مشيَّدة بالجير المحلي وعليها كتابات قديمة وتشبيهات. اللوح الوحيد يغطي القبر مباشرةً على الأرض. أشكال التابوت فيها متنوعة جدا، بدءًا من الشكل البيضاوى المنتفخ بشكل خفيف أكثر عند الرأس منه عند القدمين، حتى التمييز الواضح لدائرة عند الرأس تبدأ بشقين على كلا الجانبين، مشيرةً للأكتاف، مرورًا بالجزء الضيق السفلى الذى ينتهى، أحيانًا، بشكل مدبب عند القدمين[٢٥].

ينتشر هذا النوع من القبور فى الشمال فقط، ويحده من الجنوب القصر الكبير ثم أصيلة وطنجة والشاون وتطوان.

تتميز قبور تطوان عن القبور الأخرى بثروتها الزخرفية، التى تعطى إحساسًا بهدوء كبير وثروة الجماعة.

بيد أنَّ النوع هو نفسه، لوح تابوت يكون فيه عادةً دائرة للرأس وسمات مقتضبة تمثل الذراعين والقدمين، ويمتلئ الحجر بنجوم وأشكال زهرية. إذا كانت هذه الزخارف هى ببساطة ذات منشأ محلى، نظرًا لوجود مَدْرسَة حجَّارين، وهى مدرسة غير موجودة فى مدن الشمال الأخرى، فهى مجرد افتراضات تُعبِّر مع ذلك عن تمهُّل كبير وعناية عند الدفن .

إنَّ ما يظهر بكل وضوح هو أن هذا النوع من التوابيت فى الشمال المغربى تستخدمها مجموعات يهودية مختلفة عن باقى المجموعات، بما فيها مجموعات فاس ومراكش. فى فاس، حيث الجزء الأكبر من المنفيين اليهود، لا يوجد شىء يشبهه. لقد استخدم الميغوراشيم القشتاليون نوعًا آخر من القبور ونظن أن القبور موجودة فى الشمال، قبور الميغوراشيم الغرناطيين. إنهم بلا شك ميغوراشيم غرناطيين الذين يغذون الحى اليهودى التطوانى، إلا أننا نعود لنجد نفس المشكلة: متى وصل بالضبط هؤلاء الغرناطيون إلى تطوان ؟

إنَّ الدلائل المعمارية تجعلنا، نقترب من الأعوام الأخيرة من القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر.

هذا هو الذى تنقله لنا أقدم مقابر الجبانة القشتالية التطوانية.

هناك دليل آخر يُضاف إلى الدلائل السابقة وهو الموضع الذى كان لأقدم حى يهودى تطوانى، كان يقع بالضبط داخل سور بمدينة المنظرى البدائية، فى ظل حماية القلعة والتى شيدها المؤسس.

إنه أمر يُعَد بالتالى مؤكداً بشكلٍ كافٍ، وهو أنه كان هناك يهود فى تطوان فى ظل حكم سيدى على المنظرى وأن هؤلاء اليهود كانوا هناك فعلا عند بداية القرن السادس عشر.

هذه الجماعة لم يكن يحكمها قوانين يهود قشتالة ولا الطقوس الدينية ولم تكن تتحدث لغة الميغوراشيم القشتاليين، كل هذه الأمور كانوا يجهلونها عندما يتوجب عليهم أن يبايعوا سلّطة حاخامية تنظمهم"الجمعية المقدسة للمطرودين من قشتالة". من هنا فإنه لاعتبار أن أولئك اليهود التطوانيين كانوا يهوداً مُبعدين من مملكة غرناطة أو ميغوراشيم قشتاليين لا يوجد سوى خطوة؛ ألا وهى العثور على وثائق تؤكدها.

حتى الآن نستطيع فقط أن نؤكد أنه فى عهد المنظرى تأسست وكبرت مستعمرة يهودية فى المدينة التى أعاد بناءها المهاجرون الإسبان – المسلمون.

الهوامش

(١) Anais... 1-224.

(٢) VILLA-AMIL Y CASTRO, Jose: "Berbería en tiempo de Cisneros ", Bol. de la Soc. Geográfica de Madrid- IV- Madrid 1879. pág. 149.

(٣) A.H.N.: - Osuna. L. 3.406-. Fol. 81.

(٤) SALOMÓN BEN VERGA: "La Vara de Judá". Tr. Cantera. Rev de estdios históricos de Granada y su reina". Tomo XIV. Año 1924.

(٥) "Fragmento de la época sobre noticias de los reyes nazaritas". Presentado por Bustani y Quiros. Larache 1940.

(٦) C.O.D.O.I.N.: L1. pág. 91.

(٧) RICARD, R.: Etudes sur l'histoire des portugais au Maroc. Coimbra 1955. pág. 144 y s.

(٨) GOIS, Damiao de: Croniqua del Rei D. Manuel. Lisboa 1909. II-26 y s.

(٩) SANCEAU, E. et RICARD, R.: "Un projet de remise de Tetouanl.", Hesperis. 1957, 1° 2° tr.

(١٠) C.O.D.O.L.N.: L1-72 y s.

(١١) LADERO QUESADA, M.A.: "Dos temas de la Granada nazarí"en Cuadernos de Historia - III- 1469. págs. 343-4.

(١٢) GOZALBES BUSTO, G.: "Los judíos en la fundación de Xauen". M.E.A.H. XXVI-XXVIII. Fas 2°, págs. 379-325.

(١٣) SALOMÓN BEN VERGA: "Schebet Jehuda". Tr. Cantera. Rev. Est. hist. Granada y su reino. XIV. 1924.

(١٤) NIC. CLENARDI: - Epistolarum-. Amberee 1566. pág. 40.

(١٥) S.I.H.M.: Port. 1ª, IV. Pág. 55.

(١٦) ARANDA, G.: Vida del P. Contreras. Sevilla 1691. págs. 549 y 605.

(١٧) S.I.H.M.: Port. 1ª III. Pág. 500.

(١٨) ARANDA: Op.cit. pág. 580.

(١٩) LAREDO, Abraham I: Les noms de juifs de Maroc. Madrid 1978. pág. 418.

(٢٠) MILLAS VALLICROSA, José M.ª : "Lápidas sepulcrales antropomorfas en los cementerios israelitas de Xauen y Tetuán". Sefarad VI-1946-. Págs. 63-72.
"Lap. Sepulc... de Alkazarquivir y Tánger". Sefarad IX-1949-. Págs. 421-432.

(٢١) VILAR RAMÍREZ, Juan Bt.ª: "El cementerio israelita de Tetuán", en el B.A.O. VI-1970-. Págs. 218-227.

(٢٢) GOZÁLBES, G.: "Datos sobre los hispano judíos..."C.B.E.T.N.º 13-14.

(٢٣) BOURILLLY J. et LAOUSTE.: "Steles funeraires marocaines". Collection Hesperis III-1927.

(٢٤) BRUNOT, L. et MALKA, Elie: Textos judeo arabes de Fes. Rabat 1939-378.

(٢٥) انظر الصور الخاصة بدراستي المذكورة في ملاحظة رقم ٢٢ .

الفصل السادس

قادة شمال المغرب والمسيحيون

علاقات غريبة

رأينا كيف أن المعارك الحربية لم تكن هى وحدها التى كان يباشرها سيد الشمال المغربى – بن راشد – وكبار القادة البرتغاليين ، بما فيهم ملك البرتغال نفسه . كذلك كان لسيدى على بن راشد علاقات وثيقة جدا مع السلطات الغرناطية : ثافرا وتيننديا ، وكذلك مع الملك فيرناندو نفسه .

يبدو أنه فى مجال العلاقات التى يمكن تسميتها خصيصًا بعلاقات خارجية ، فإن الصوت المسموع كان دائمًا صوت بن راشد ، وهو ما يتفق منطقيا مع دوره كسيد للشمال أو لأرض "بن راشد" ، فهو – كما رأينا – معروف فى كل حكاية أو تقرير .

إلا أنَّ ذلك لا يمنع (فى أى موضوع خطير أو مفوضة) أن يعطى المنظرى ، بشكل أو بآخر ، موافقته على الخطط التى وضعها حاميه والد زوجته ورفيقه فى الكفاح . لقد أثبتنا ذلك فى المفاوضات من أجل تسليم تطوان ، التى لم تتم من خلف ظهريهما ، بل بموافقتهما ، المُعبَّر عنها وثائقيا(*) حيث كان المنظرى أحد المنتفعين من الرحيل عن الأرض ، مع حاميه . سوف نرى ذلك الآن ، عن طريق الخطابات والرُسُل الذين توجهوا إليه ، بالإضافة إلى المفاوضات التى أقيمت بشكل مباشر بين بن راشد وفيرناندو الكاثوليكى .

(*) الوثائق التى يتحدث عنها المؤلف هى كتابات المؤرخين وهى – كما رأينا فى مناسبات عديدة – ليست سوى كتابات . (المراجع)

إنَّ غرناطة وما كان يُعَدُّ آخر مملكة لبنى نصر ، كانت فى أيادى ثلاث شخصيات ، كما نعلم ؛ الراهب إيرناندو دى تالابيرا وفيرناندو دى ثافرا وإنْييغو لوبيث دى مِنْدوثا . حسنٌ إذن ، هناك وثائق معروفة ، ليست بالقليلة ، مع أنَّ هناك تكهنات بأنها كثيرة جدا ، مُعبِّرة عن المراسلات بين ثافرا وتينديًّا مع بن راشد والمنظرى ، ولثافرا مع سادته ، وبين بن راشد وتينديًّا وشخصيات أخرى ، تحمى أو تذكر ببساطة بن راشد ، وعلاقات تينديًّا بسيده ، المتعاون مع بن راشد والمنظرى فى مشاريع الملك فيرناندو .

كان العاهل الإسبانى يعرف بوجود "براكس" قبل عام ١٤٩٢ . إن هذا التأكيد يبدو طموحًا ، حيث إننا لا نستطيع أن نقيم عليه براهين، إلا أن هناك دلائل كافية لاعتباره صالحًا .

لدينا أولا وثائق فى العام المذكور، ١٤٩٢، وثيقة مؤرخة فى مايو وأخرى فى يونيو، تبرهنان على وجود اتصالات قديمة بين الملك فيرناندو وبن راشد .

الوثيقة المؤرخة فى مايو عبارة عن محضر شرعي يثبت كيف أن حاجب الملكين الكاثوليكيين، لوبى دى إيريرا، ينزل مع ثلاثة مدنيين وأشخاص مسيحيين آخرين على شاطئ مدينة ترغة، إقطاعية "على بن راشد"، لتنفيذ العدالة فى المدانين المذكورين، بشنقهم على مرأى من مسيحيين ومسلمين وبربر وعرب، وقد جمعوا أكثر من ثلاثة آلاف شخص لهذا الغرض؛ من الملاحظ أنهم اختاروا يوم سوق أو تسوق، ليكون الحضور كبيراً. لقد كانت الجريمة التى اتهموا بها هى أنهم سرقوا مسلمى غرناطة الذين كانوا يعبرون إلى الضفة الأخرى بأمان ملكى .

لا يمكن إنكار الدليل على أنه عندما يسمح لسفينة إسبانية بإنزال أناس وتنفيذ العدالة فى قلب أرض على الناحية الأخرى من المضيق، كما كانت ترغة، فإنه لكى ينفذ ذلك العقاب النموذجى، تعين وجود اتفاق مسبق بين السلطات العليا فى الضفتين .

بالإضافة إلى ذلك، عندما يطلب المسيحيون أن يسلم إليهم مذنبون آخرون، فى حوزة "بن راشد"، لمعاقبتهم بالمثل، فإن مندوبى سيد الشمال (لا يعترضون بل يطلبون أيضًا أمولا تخص بن راشد، مسروقة فى مالقة، سوف يسلم سيدهم – فى المقابل – المذنبين حيث إنهم كانوا يعرفون أنه فى خدمة أصحاب السمو. إنها صيغة أكثر من كونها مجاملة تبدو عبارة محترمة للإذعان .

نكرر إن ذلك يقتضى، وجود تعاملات سابقة، نتكهن نحن بأنها مباشرة، إلا أننا حتى الآن، لم نستطع أن نثبتها، إلا بشكل غير مباشر، من خلال الشخصيات الكبيرة فى غرناطة المسيحية(١) .

فى الثامن عشر من شهر يونيو من نفس العام، ١٤٩٢، يأمر مرسوم ملكى السيد سيرانو فى مالقة، ليعمل ضد فردين وافقا على فدية أسرى، وكان الضامن هو قائد ترغة؛ وقد قدم القائد شكوى ضدهما لأنهما لم يفيا بالتزامات الفدية المذكورة(٢) .

لا شك أن الملكين الكاثوليكيين كانا يريدان تأكيد الثقة فى حسن نيتهما وبكلمتهما الملزمة، أمام عينى السيد المغربى .

من ناحية أخرى، كان السيد المغربى يريد أن يجد سلطة قوية ومنظمة تعمل كإطار لمشاريعه. عندما لم يجد هذه السلطة فى بلده، لضعف الأسرة الوطاسية الشديد، كان يلتفت بعينيه، من حين لآخر، إلى فريق وفريق آخر معارض : البرتغال أو قشتالة. هذه الأخيرة كانت مفضلة طوال الوقت، لقوتها التوسعية، التى كان يتكهن بأنها أكبر من البرتغالية وللبريق المبهر الذى كان يحدثه المنتصرون فى حرب غرناطة فى عيون محاربى بن راشد، حيث كان "بن راشد" طبقًا لـ ليون الإفريقى يعيش هناك، فى شبابه، كبطل نشط .

لدينا شهادة تؤكد استعداد شريف الشاون لإمداد المسيحيين على الضفة الأخرى بمساعدة استخباراتية قيمة .

لدينا رسالة طويلة موجهة من ثافرا إلى الملكين الكاثوليكيين، مؤرخة فى مالقة، فى ٢٩ من شهر يونيو، دون ذكر العام، الذى يمكن أن نفرضه قبل عام ١٤٩٢ بقليل، تتعلق فى فقرتين منها، بسيدى على بن راشد .

فى الفقرة الأولى منهما يقول بالنص :

"... أخبر فكاك أسرى، يعمل فى خدمة بن راشد، والذى قدم من هناك، أن براكس بصدد المجىء إلى توروكس Torrox والماياتير Almayater ويقول أيضـًا إن مع ظهور الهلال سوف تتجمع أربعون سفينة من سلا حتى بيليث، لتصبح عند مدخل بويونيس Bullones، وأنه لا يعلم إذا كان ذلك لأمر مهم" .

إن مدخل بويونيس هو مضيق جبل طارق، وبالتالى فإن بن راشد يخطر ثافـرا عن حشود السفن لقطع حركة مرور السفن المسيحية .

من المنطقى افتراض أن هذا لم يكن الاتصال الأول لثافرا مع بن راشد، إن لم يكن كذلك لكان تعين على ثافرا أن يشرح للملك فيرناندو من كان ذلك المدعو براكس، إن الثلاثة كانوا يعرفون بعضهم بعضاً من وقت سابق وبشكل جيد. بالنسبة إلى ثافرا لم يكن هناك شىء غريب، حيث كان إرساله للسفن والرسل إلى الساحل الشمال إفريقى مستمرا لأجل معرفة الوضع السياسى والعسكرى للممالك هناك، وهى معلومات كان ينقلها بشكل منضبط إلى سيده الملك الكاثوليكى(٣) .

لنجاح خطط الملك فيرناندو كان من المهم التعرف على قادة تلك السواحل التى كان يفكر فى أن تكون امتداداً لحرب الاسترداد. وليس فقط معرفتهم بل اجتذابهم، كما فعل مع غالبية القادة والرؤساء العسكريين ونبلاء مملكة بنى نصر .

يتضح من رسالة ثافرا هذه أن بن راشد كان يخدم، بمقدار قوته وظروفه سياسة الملكين الكاثوليكيين .

فى الرسالة نفسها يظهر بن راشد فى موضوع مختلف جدا عن السابق، يمكن فهمه فقط بمعرفة العالم الذى تتصرف فيه الشخصيات: إنه عبارة عن افتداء الأسرى .

"تناولت مع خادم بن راشد الاتفاق الذى سوف تأمرون يا أصحاب السمو بدراسته والخاص بالمائة أسير والذى أرسله لكم موقعًا ومختومًا من قبل الكاتب العمومى"(٤) .

تستمر الرسالة مع وصف تجارة عبيد مقابل البضائع التى تظهر الجانب الآخر الذى تتطور فيه علاقات بن راشد. إن بن راشد يشترك فى ذلك ليس فقط مع المنظرى بل مع شخصيات أخرى من البرجوازية الغرناطية التطوانية – الذين يقومون بتجهيز السفن – وكبار قادة غرناطة المسيحية. إنه مظهر تجارى تكتشف مراحله المتعددة كذلك فى رسائل الكونت تينديا وفى وثائق أخرى(٥) .

بديهى أنها ليست ذات طابع تجارى تلك الاقتراحات التى يطلبها الملك فيرناندو من سكرتيره، الخبير فى الأمور المتعلقة بشمال إفريقيا، ويجيبه سكرتيره بحذر :

"أرسلوا لى لأطلب من سموكم أن تكتب إليهم ما يبدو لى فيما يخص براكس، وذلك لا أستطيعه أنا من هنا لأننى لا أعرف ما هى رغبة سموكم حيال ذلك؛ لكن لو أن سموكم موافقون على ذلك، بالإرادة المعتادة، سيكون أمرًا طيبًا أن تكتبوا خطابًا، تجعلونه فى خدمة رغبتكم وإن شاء الرب ستكونون سموكم فى هذه الأراضى قريبًا، وإنكم من هنا سوف تجيبونهم عن كل شيء وإذا كان لدى سموكم رغبة أخرى، فصدقوا أن لديكم نصيبًا كبيرًا، لأنه متفق مع ملك بيليث ولديه ما هو أكثر من خمسة آلاف حصان ..."(٦) .

بالتالى، فإن الأمر لا يتعلق، بكل تأكيد، بقضايا تجارية، إذ يشير بوضوح إلى كل الأمور المتعلقة بالظروف السياسية الحربية .

ربما كان بن راشد قد قدم مباشرة اقتراحاً للملك الكاثوليكى وهذا الملك، قبل أن يجيب، كان يلتمس نصيحة مستشاره فى شئون شمال إفريقيا .

إن رد ثافرا - الموجود بدون تاريـــخ، مع أنه يفتــرض أنه نحو عـام ١٤٩٣ - يبدو أنه يميل إلى الجانب الإيجابى من العرض المقترح، على الأقل لا يخفى رغبته فى قبوله، عندما شوّه - عن وعى أو بدون وعى - البيانات الخاصة بأعداد المقاتلين . لم يستطع سيدى على بن راشد فى أى وقت من النشاط الحربى، ولا حتى بتحالفه مع قوات أخرى أن يكون لديه خمسة آلاف فارس؛ إن التواريخ البرتغالية تحدد القوة الفعلية، أو السقف الذى استطاع أن يصل إليه بن راشد مع المنظرى. لقد قال لنا ليون الإفريقى عنه إنه جمع ٣٠٠ فارس وقال برناردو رودريغيس إنهم كانوا يجمعون ٩٠٠ فارس من تطوان والشاون وترغة؛ عملياً كان كل المعين المغربى الشمالى فى أياد مسلمة .

بالنسبة إلى الكونت تينديا، فهو لا ينتمى فقط لمجموعة القادة المسيحيين التى تتاجر مع مسلمى شمال إفريقيا بل يحتفظ معهم، خاصة بن راشد والمنظرى، بمراسلات متدفقة وشديدة فى ظروف محددة، وتتواكب مع رغبات صريحة عند فيرناندو الكاثوليكى .

يعامل تينديا بن راشد كأخ وصديق ويعتنى بتجارته ويرسله كشىء خاص. رسل، من ناحية أخرى، كان يرسلهم سيد الشاون مباشرة للملك القشتالى، الذى بدوره يرد برسل آخرين. هذا التيار من المعلومات والاقتراحات أو المشاريع، تمر من خلال كونت تينديا، دون أن يحاول هو أن يتدخل، ولا حتى أن يعرف، بل فقط من أجل رعاية استمرار هذه الاتصالات .

على أية حال كان تينديا أيضاً له مصادر معلوماته وبالتأكيد لم تكن لتمر فى غفلة منه المشاريع التى يمكن أن تكون لدى سيده، ملك إسبانيا .

عندما تبدأ هذه المشاريع فى أن تتحقق، حينئذ يتدخل الكونت إنييغو، ويحرك ماكينة نفوذه وصداقاته كما فى الحالة التى سوف نراها تباعًا، والتى يظهر فيها وهو يتوجه مباشرة إلى سيدى على المنظرى .

تيينديا والمنظرى :

ذكرنا فى الفصل الخاص بزواج المنظرى الحادثة التى قام فيها السيد إينييغو بالاستيلاء على عروس القائد، عندما كانوا يحملونها إلى شمال إفريقيا لعقد قرانها على القائد الغرناطى .

إن تلك الحادثة، التى يرجع تاريخها إلى نحو عام ١٤٩٠، تقدم لنا بتسلسل تاريخى أدلة متعددة. النقطة الأولى، كما ذكرنا، هى وجود القائد الغرناطى فى تطوان التى أعيد بناؤها قبل السقوط النهائى لملكة بنى نصر. النقطة الثانية، وهى التى تهمنا فى هذه اللحظة، هى التيقن تقريبًا من وجود تعارف وعلاقة بين كلا القائدين، على الأقل بدءًا من هذا التاريخ .

بما أن المنظرى ترك وطنه طواعية بمفرده، من وجهة النظر العائلية، فقد ترك فى غرناطة، على ما يبدو، عائلة كبيرة وميسورة الحال. سوف نرى فيما بعد مظاهر يبدو أنها تثبت هذا التأكيد الأخير .

إن تأكيدنا على هجرة عضو من عائلة المنظرى، سببه الصمت المطلق من جانب المؤرخين البرتغاليين والمغاربة فى هذا الصدد. ليس هناك منظرى آخر فى تطوان التى أعاد هو بناءها، سوى هو، صاحب العقل القائد لتلك الهجرة الجماعية للمحاربين .

بالنسبة إلى أفراد عائلة المنظرى الذين بقوا فى غرناطة، مثلهم مثل كل العائلات النبيلة إلى حد ما فى العاصمة، كانت لديهم مشاكلهم فى التكيف مع الأوضاع الجديدة التى خلقها غزو المملكة على يد العدو اللدود. وهى مشاكل استمرت بشكل متزايد،

كما نعلم، وانتهت بالاستبدال العنيف والسريع إلى حد ما لطبقات اجتماعية بأخرى، ولبرجوازية ببرجوازية أخرى، ولملاك بملاك آخرين، وأخيراً، استبدال أنماط حياة بأنماط حياة أخرى لها أبطال مختلفون .

بعض أفراد عائلة المنظرى سوف يصلون إلى ثورة البشرات الكبيرة، لكن إلى هنا تنقطع أخبارهم .

فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر، كان لا يزال يبدو عليهم أنهم يستطيعون التنفس، مع أنهم كمهزومين، كانوا دائمًا فى احتياج ليد كريمة تكون لهم درع واق .

فى الفقرة السابقة رأينا تينديا يعمل محاميًا لـ بن راشد فى شؤونه بشبه الجزيرة، حسن، نحن متأكدون أنه لعب نفس هذا الدور بالنسبة إلى أفراد عائلة المنظرى الغرناطى، بطلب مباشر أو غير مباشر من مؤسس تطوان. لهذه الأسباب ولأسباب أخرى، نؤكد أنه كان يعرف أشخاصهم وظروفهم، كما أننا نتكهن بأنه كان يعرف الفائدة التى يمكن أن تقدمها تلك الصداقات، سواء مع بن راشد أو مع المنظرى .

ثافرا وتينديا ونبلاء وأعيان كثيرون آخرون من أندلوثيا كانوا يريدون مواصلة حرب الاسترداد إلى الأراضى الشمال إفريقية، وفى ذلك الاتجاه كانوا يخبرون ويشجعون الملك الكاثوليكى، كما يمكن أن يرى، على وجه الخصوص، فى مراسلات ثافرا. كان الملك يريد ذلك أيضًا، لكن لكونه أكثر فطنة ولديه تقارير من كل نوع، كان يجد نفسه مقيداً، بالإضافة إلى ذلك، (الظرف وآخر)، كان يمنعه من العمل بالكيفية التى يريدها وفى الوقت الذى كان يريده. لأن الذى كان يشغل الملوك والرعايا حقيقة فى إسبانيا، كانت السواحل الأكثر قرباً من جنوب شبه الجزيرة، التى كانت قد نشأت منها مخاطر كثيرة فى عدة عصور ماضية والتى كان يخرج منها من جديد خطر آخر لعدم توقف الهجوم على السواحل والملاحة البحرية من جانب الغرناطيين المهاجرين .

لم تكن الموانئ المحصنة، التى احتلها البرتغاليون فى السواحل المغربية كافية. بدونها كان الأمر سيصبح بالطبع أسوأ، لكن سكان شبه الجزيرة وصلوا إلى بذل أقصى جهد ممكن، بالنسبة إلى ما يتعلق بالمعين الشمال مغربى، وتم إيقافهم على يد زعيمين كبيرين، هما بن راشد والمنظرى. لم يكن بالمستطاع فرض "الحماية"، التى كان يحلم بها البرتغاليون فى الشمال، فحاولوا بعد ذلك بقليل فرضها فى الجنوب .

لكن المغامرة الحقيقية للبرتغال كانت بلاد العالم الجديد وليس مملكة فاس. فى تلك القارة فجرت البرتغال أقصى طاقاتها، بحيث لم تكن الطاقات الباقية كافية للشروع فى غزو مملكة فاس التى، مع ذلك، كانوا قد طالبوا بها كمملكة خاصة بهم فى عدة مناسبات وأخيراً فى معاهدة تورديسياس Tordesillas فى شهر يونيو من عام ١٤٩٤ .

الملك فيرناندو – الذى كان ينفد صبره، من حين لآخر، فى هذه القضية – كان ينتزع كل ما يستطيع من امتيازات، مثلما كان فى المعاهدة الأخيرة المذكورة، بشأن اعتراف البرتغال لقشتالة بحقوقها فى احتلال مليلة وكزازة Cazaza .

فى غضون ذلك، كان الملكان الكاثوليكيان يبدآن حملة جزر الكنارى، التى تعد بوابة الأطلنطى وحيوية بالنسبة إلى الطرق البحرية الجديدة المفتوحة مع اكتشاف أمريكا .

كان ثافرا يشكو من الأولوية المعطاة لغزو الجزر بدلا من الحملة الإفريقية، لكن منهج الملوك كان دائماً : عدم البدء فى شىء قبل إنهاء آخر(٧) .

فى العام التالى لإنهاء احتلال الجزر، تضع إسبانيا قدمها فى الواجهة البحر أوسطية لمملكة فاس؛ فى شهر سبتمبر من عام ١٤٩٧ تحتل مليلة .

حتى هنا يبدو أن التنازلات البرتغالية وصلت إلى أقصاها. سوف يتعين عليها عدم الوفاء بالمعاهدة وأن تسبب صدمة جادة إذا واصلت قشتالة زحفها نحو غرب مليلة. ولأنه كانت هناك مشاكل من كل نوع، فإن هذه المشكلة الخاصة

بالواجهة البحرية أمام سواحل جنوب شبة الجزيرة تأخر حلها ولو أنها لم تغب أبدًا عن النظر .

إن حرب إيطاليا وموت إيسابيل الكاثوليكية والفترة الانتقالية لفيليبى الوسيم، سوف تكون، تاريخيًا، المعالم العريضة للسياسة القشتالية، التى جمدت بطريقة ما، المشروع الإفريقى. مع الولاية الثانية للملك فيرناندو، من ١٥٠٧ إلى ١٥١٦ تبدأ دفعة جديدة لهذا المشروع .

إن احتلال بيليث دى لاغوميرا أيقظ الشكوك والاحتجاجات البرتغالية، التى تم تهدئتها بحجة أن بيليث مملكة مستقلة عن فاس .

بعد ذلك سوف تأتى، فى الطريق نحو الشرق، سلسلة من الانتصارات المذهلة: وهران، ١٥٠٩، الجزائر وبجاية، ١٥١٠ وطرابلس فى نفس العام .

كان كل شمال إفريقيا من الناحية العملية، باستثناء الطرفين، تسيطر عليه السلطة العسكرية الإسبانية. عن هذين الطرفين، الطرف الشرقى، مصر، بالكاد كان مهمًا . الطرف الغربى، شمال مملكة فاس، كان يمثل الكابوس الحقيقى، لأنه لم تكن تتوقف الغارات البحرية على السواحل الجنوبية الأندلوثية، ولا الخطر فى حركة المرور البحرى .

الملك فيرناندو الذى لم يتخلَّ أبدًا عن التفكير فى كيفية درء الخطر الأقرب والحقيقى واليومى الذى كانت تشكله سواحل ريف، قرر، فى النهاية، إنهاء هذا الوضع والشروع فى معارك تهدف إلى غزو محتمل لمملكة فاس .

نعتقد أنه كان أمرًا ضروريا أن نورد بإيجاز التسلسل التاريخى لإبراز أحداث مملكة فاس، لأن هذه الأحداث، من وجهة نظرنا، منعت تنفيذ الطموحات الأكثر تأججًا لهؤلاء وأولئك. طموحات لها صيغة مهيبة فى التوصيات بشأن إفريقيا، تجسدت فى وصية الملكة إيسابيل .

مرة أخرى، شرع الملك الكاثوليكى، الذى منعته فى هذا الصدد، معاهدته مع البرتغال، فى طرح سياسة الأمر الواقع. بعد ذلك سوف تأتى التفسيرات إلى صهره وجاره ملك البرتغال .

تينديا، الذى سيكون له معرفة كافية بخطط عاهله، يكتب، فى يونيو من عام ١٥١٠، إلى مؤسس تطوان .

إنها على ما يبدو المراسلات الكتابية الوحيدة، المعروفة حتى الآن، لكل من إينييغو والقائد السابق لقلعة بينيار، لكن من نفس النص الذى سوف نراه تباعًا، يستدل على أنه كانت هناك مراسلات كتابية أخرى، والأهم هو أنه يعزز ظننا السابق أن تينديا والمنظرى كانا قد تعارفا من وقت طويل، وأن الأول أدار فى مناسبات عديدة أمورًا شخصية للقائد أو لأقاربه. سيكون باستطاعتنا إثبات ذلك فى المراسلات التى ترافق رسالة السيد إينييغو إلى القائد الغرناطى. إنها رسالة يبدو لنا أنه من المهم حقيقة نسخها هنا، فى هذه الدراسة المخصصة بالتحديد لمؤسس تطوان، لأننا، بالإضافة إلى ذلك، نعتقد أيضًا بأن شرح فقراتها يعد أمرًا ذا مغزى .

صفحة من المخطوطة رقم ١٠٢٣٠ بمكتبة إسبانيا الوطنية (الجزء الأسفل من الصفحة يتضمن مسودة رسالة كونت تنديا إلى "المنظري قائد تطوان")

إلى المنظرى ، تطوان :

إلى الفارس النزية جداء الحاكم والقائد، الشريف النبيل الشجاع والسيد الخاص. منالسيد إينييغو لوبيث دى مينوثا، كونت تينديا، قائد عام لملكة غرناطة حاكم للمدينة المذكورة وقصرها الحمراء وقلاعها بأمر الملكة سيدتنا. منذ وقت طويل لا أعرف أخباركم والآن عندما وجدت نفسى هنا فى مدريد مع السيد الموقر جداء السيد كاردينال إسبانيا ومع هؤلاء السادة أعضاء مجلس الملك والملكة سيدانا، منتظرين كل يوم مجيء الملك سيدنا، بدا لى أنه من المناسب أن أعرفكم أننى بخير وبصحة وأطلب منكم أن تنعموا علىَّ بكتابة رسالة أخرى منكم، مع الرسول الذى أرسله لهذا الغرض ولأمور أخرى. أطلب منكم أن تنعموا عليه بمنحه الثقة والأمان كما أنعمتم علىَّ، وأن تكتبوا لى كصديق ما تريدون أن أفعله هنا، فأنت تعرف أننى صديق لك منذ وقت طويل(*) بهذا أتشرف أيها الفارس النزيه جداء الحاكم والقائد، الشريف النبيل الشجاع. ليعطيه ربنا من نعمته. من مدريد، الثانى عشر من يونيو من عام ١٥١٠ .

يوجد نص مكتوب على الرسالة يقول : "كل ما تم إملاؤه حتى" الشريف الحقيقى سيدى الخاص المنظرى، حاكم تطوان"(٨) .

عندما نبدأ بعنوان الخطاب ذاته ونقارنه مع العنوان الذى رأيناه فى خطاب آخر مرسل لـ بن راشد، فإننا نلاحظ ألفة أقل مع الحاكم التطوانى ومواظبة أكبر فى علاقتهما : "من أيام لم أعلم أخباركم". لكن بالإضافة إلى هذه الاستمرارية الأقل،

(*) النص الإسبانى يتحدث عن "أيام"، لكن اللفظ نفسه سيتكرر فى الرسالة ويمعنى "زمن طويل" فآثرنا أن تكون ترجمته هنا على هذا النحو . (المراجع)

كانت هناك مراسلات سابقة كان السيد إنييغو يحاول أن يستأنفها الآن، ويعرض نفسه للقيام بالتكليفات التى يطلبها منه، ويذكره بأن صداقته ليست من الآن لكن منذ زمن مضى(*). لكن بما أن تيندیا موجود فى مدريد، كما يقول فى رسالته، فإن ذلك يعطى الانطباع بأن كل الأشخاص الذين يذكرهم بدءًا من كردينال إسبانيا، ثيسنيروس، أشاروا عليه بالتوجه إلى الحاكم التطوانى، كمقدمة لخطة كانت تحاك فى تلك الدوائر العليا .

الرسالة الموجهة للمنظرى أرسلها السيد إنييغو مع قبطان يدعى بالومينو، الذى يستلم، أيضًا، مكتوبًا به تعليمات يتوجب عليه بالإضافة إلى ذلك أن يبلغها شفاهة للقائد التطوانى .

إلى القائد بالومينو :

أن ما يتعين عليك أن تقوله باسمى للفارس النزيه والشريف، الحاكم والقائد المنظرى هو الآتى : إنه يعرف مقدار الصداقة التى كانت وتكون بينه وبينى والإرادة التى أبديها دائمًا فى مساعدة وتسهيل كل شؤونه، وأن تلك الإرادة نفسها لدىَّ الآن. وإذا كان يريد أن أتفاوض هنا فى شىء يخصه أو يخص أقاربه فأنا فى مدريد حيث يوجد السيد كاردينال إسبانيا وسادة مجلس الملك والملكة سيدانا، فليرسل لى معكم ليخبرنى به، لأننا هنا ننتظر قدوم الملك سيدنا قريبًا . من الآن وحتى يأتى، كل يوم نعرف أخبار سموه فى ثلاثة أيام، بحيث إننى سوف أستطيع أن أفعل أى شىء يرضيه ويناسبه وسوف أحاول ذلك عن رضٍ .

(*) إن تعبير "أيام" الوارد فى الرسالة يعنى هنا بالضبط "وقت طويل"، وعليه، فإن حديث المؤلف عن استمرارية فى المراسلات فى جملة سابقة لا يقنعنا كثيرًا. نفهم أن المعنى المراد من الجملة السابقة هو "منذ وقت طويل لا أعرف أخباركم" وهو ما يتفق مع بقية الرسالة. (المراجع)

حتى هنا فإن مضمون التعليمات المعطاة للقائد بالومينو خاص بعلاقات السيد إينييغو الشخصية مع المنظرى. هذه العلاقات كانت فى وقت آخر أكثر استمرارية وحسبما يفهم، كانت تتعلق بشكل مباشر بمصالح المنظرى نفسه أو أقاربه أو ملازميه .

يذكر تينديا القائد بذلك، تعبيراً عن رغبته فى العودة لخدمته كما حدث فى الزمان القديم، حتى فى أمور كبيرة وخطيرة، حيث يضع نفسه كمدافع له عند السلطات العليا الأخرى فى قشتالة .

إن ذلك يعطى انطباعًا بأن الكونت يريد أن يضع كل ثقل الذكريات مع المنظرى، التى لابد أنها كثيرة وطيبه جدا، من أجل إعادة بناء ثقة هو فى حاجة إليها فى تلك اللحظات من أجل شىء يتحدد، إما فى طريقه ليكون مشروعًا، وإما فى مرحلة الإعداد، وهذا الشىء كان يتعلق بمنطقة تطوان، كمركز أو كبؤرة لنشاط مسيحى .

إن التعليمات الموجهة للقائد بالومينو تنتهى بشىء يقودنا نحو الغرض الحقيقى للرسالة .

"... سوف تستطيع أن تختبره إذا كان يريد أن أسعى له أنا فى عقد معاهدة سلام، أو هدنة، بعد أن تسمع ما قاله عن ذلك، لا تدع شيئًا دون أن تأتى لتبلغنى به" .

معاهدة سلام أو هدنة، لماذا؟ ومع من؟. إنها الأسئلة التى نستطيع أن نطرحها على أنفسنا. لأن الحالة أو الوضع الحربى للمنظرى كان متعلقًا بالبرتغاليين فى سبتة والقصر الصغير وطنجة وأصيلة وفى هذه المعارك كان، على العكس، بن راشد وليس المنظرى، هو الزعيم المناسب لمناقشته فى معاهدة سلام أو هدنة .

لا نعلم ما إذا كان تينديا والبلاط القشتالى يعتبران أنشطة القرصنة التى تنفذها سفن تطوان أو ترغة بمثابة حالة حرب. إن أنشطة القرصنة هذه كانت تشغل السلطات الإسبانية جدا بدءًا من الملك فيرناندو نفسه. لكن، فى كل الأحوال، من الغريب عرض

هدنة أو معاهدة سلام فى هذا النوع من المعارك التى كان من المعلوم أنه لا يمكن لهذا الفريق أو ذاك السيطرة عليها بشكل كامل. إن ما نعرفه، من خلال رسالتين أخريين، هو ما كان يسعى إليه تينديا بالتأكيد عندما توجه بمودة إلى المنظرى وأخبره شفاهة عن طريق بالومينو، أن ما كان يريده هو ألا يعترض المنظرى بأية قوة غزوة التأديب التي كان تينديا يعتقد أنها بصدد أن تنفذ، لحرق السفن التطوانية فى عقر دارها فى مصب نهر مرتيل .

هذان الخطابات اللذان نشير إليهما هما، واحد لإنييغو مانريكى والآخر للملك فيرناندو .

فى الخطاب الموجه للأول، وهو قائد مالقة ، يأتى ذكر السفن بوضوح و"إحراقها على أيدى أشخاص قليلين"، ينصح الكونت بألا يتدخل "أناس كثيرون"، هذا هو ما يشير به على قائد مالقة بصفته المسئول عن الحملة .

هذا الخطاب مؤرخ فى نفس تاريخ الخطاب الذى أرسل إلى كل من بالومينو والمنظرى .

بعد ذلك بأربعة أيام يوجه تينديا خطاباً آخر إلى العاهل الإسبانى يفصل فيه بعض البيانات المهمة والتوضيحية : "لقد أرسلتم سموكم تطلبون من محامى فارغاس إبلاغى بما يتعين على بالومينو أن يفعله" .

لقد كان الملك بالتالى ليس فقط على علم تام بل فى جوهر الموضوع نفسه، وهو ما لم يكن من الممكن أن يكون غير ذلك. وحسبما يخيل إلى تينديا أو يبدو له أنها الخطة المقصودة، فإنه ينصح عاهله .

> **"أنا أعطيت رأياً فى بعض الأمور، على الأخص فى فصل يتكلم عن الهجوم بعدد قليل، لأن رأيى وضع على اعتقاد أنه لم يكن من المتعين وجود حراس عند مدخل النهر ولا مع السفن، وأنه إذا كان هناك حراس فسوف يتعين على الذين ذهبوا أن يقتلوهم" .**

ليس هناك حاجة لذكر اسم تطوان للتأكد من المكان الذى كانت تتجه إليه فيما يبدو تلك المعركة: مدخل نهر مرتيل والسفن التى كانت تحتمى به. لم يكن بإمكانهم التوجه إلى شخص آخر مباشرة إلا إلى سيدى على المنظرى، الغرناطى، قائد تطوان زعيم تلك المنطقة التى كانت – لا يجب أن ننسى – أرض (بن راشد) .

هل نسى ذلك المحرضون على ذلك العمل؟

ربما نسيه البعض، لكن الملك الكاثوليكى لم ينسه بأى حال من الأحوال. سوف نعرف ذلك فيما بعد .

فى خطاب تيندِيا إلى الملك لا يزال هناك بعض الفقرات التى ينبغى الإشارة إليها . إلى جانب التوصية الشديدة على السرية فى تلك المهمة، يعرض على الملك سبب قيامه بالكتابة إلى المنظرى :

> **"بدا للسيد الكاردينال، حتى لو لم يتم شىء، أنه من المفيد جدا أن يعلم المسلمون أن سموكم لديكم الرغبة فى القيام بذلك، فى أن يتوقفوا، لأجل ذلك بدا أنه يتوجب علىَّ أن أكتب إلى المنظرى، وهو صديق حميم لى، لكى يذهب بالومينو بالرسالة" .**

إن قوله "المنظرى، صديق حميم لى" هو قول ذو دلالة، إلا أننا لا نعلم إن كان يشير إلى صداقة قديمة أو أنه ينتظر، بالفعل، رداً ينسجم مع علاقات ودية حقيقية منذ عهد قديم، كما نظن نحن .

هناك فقرة أخرى ذات دلالة كذلك : "حتى لو لم يتم شىء" إن السيد إينييغو نفسه وحتى الكاردينال، ليسا متأكدين تمامًا من أن الحملة سوف تتم، بل أكثر من ذلك، يمكن أن نضيف نحن، ولا حتى يعرفان أى نوع حملة تلك التى سوف تنفذ عمليًا . إن الملك فيرناندو، لا شك، هو الذى كان يقرر متى وكيف. سوف يكون بوسعنا أن نبرهن على ذلك لاحقًا .

الكونت تينديا يسمح لنفسه بإعطاء نصائحه ذات الطابع العسكرى، وهى سديدة بدرجة كافية وليست بعيدة عن الواقع الذى شوهه ثافرا فى موضوعات مماثلة .

" إن ما يجب قوله الآن يا سيدى هو أن سموكم ستكونون على دراية أفضل منى بالناس الموجودين فى ذلك المكان – هناك تأكيد أنهم أكثر من مائتين من الفرسان والجنود والمشاة، والمسافة من عرض البحر كبيرة" .

إن مدفعية السفن، فعلا، لم تكن تستطيع الوصول إلى مدينة تطوان، ولا حتى أن تحمى أى معركة تنشب فى وادى المرتيل ضد دفاعات التطوانيين، الذين سيكون باستطاعتهم أن يجمعوا بسهولة هذه القوات التى تقدر بأكثر من مائتى فارس وما يقرب من الألف من المشاة، طبقًا لرأى السيد إينييغو السديد .

يقول السيد إينييغو :

"يتوجب على سموكم أن تأمروا بألا يتم الهجوم بعدد قليل من الناس، لأنه يقال هنا إنه بالألف رجل والأربعمائة من خدام الجنود الذين أمرتم سموكم بذهابهم إلى الساحل يمكن تحقيق ذلك. بالنسبة إلىّ، يا سيدى، يبدو أنه لا يجب أن نحيل كل الأمور إلى الرب، وأن نظن أنه – لأن الأمر يخصه – سوف يصنع المعجزات"(٩) .

إنها فلسفة عملية لقائد جيد كان يبدأ بالتعرف بشكل تام على عدد القوات المعادية والأرض التى كان يتعين القتال فيها ومستويات قواتها .

لقد كان تينديا يظن أن الهجوم على مدينة تطوان لم يكن من الممكن تنفيذه بـ ١٤٠٠ رجل، ولا حتى بضعف هذا العدد حتى ولو كان سيدافع عنها ١٢٠٠ محارب فقط .

إن القائد القديم لقلعة بينيار كان أيضًا مقاتلا بارزًا، وسوف يستطيع بسهولة أن يهزم الذين يتجاسرون على القيام بحملة بقوات جيش قليلة. أولا كان يتوجب إقناعه إن لم يكن بأن يساعدهم، على الأقل بتحييده، والشروع بعد ذلك فى الحملة بالعدد المناسب من القوات .

لكن، فى رأينا ، فى هذه المناسبة، لم يكن الأمر يتعلق فقط بحملة تأديب، إن هدف الملك الكاثوليكى كان شيئًا آخر، مع أنه ليس بعيداً عن اختفاء سفن القرصنة والخطر الدائم الذى كانت تمثله. الهدف النهائى بدا أكثر طموحًا بكثير .

كان عبارة عن غزو مملكة فاس، لا أكثر ولا أقل، باستخدام الشواطئ التطوانية كرأس قنطرة للحملة العسكرية .

إن ذلك يستحق دراسة مطولة .

الهوامش

(١) LADERO QUESADA, Miguel A.: Los mudéjares de Castilla en tiempos de Isabel II. Valladolid 1969

(٢) Arch. Catedral Málaga: L. 62. pég. 44.

(٣) Cf. Por rjemplo carta de Zafra a los RRCC en Granada a 28-6-1493. C.O.D.O.I.N. LI-. Págs 67 y s. Y otra id. id. LI. Págs. 72 y s..

(٤) C.O.D.O.I.N.: LI. Págs 51 y s.

(٥) Cf. LOPEZDE COCA CASTAÑER, J.E.: "Esclavos, alfaques...". En especial su Apéndice. Rev. Hispania - 139- Madrid 1978.

(٦) C.O.D.O.I.N.: LI. Págs 99.

(٧) C.O.D.O.I.N.: LI. Págs 78 y s.

(٨) MENESES, Emilio: "Correspondencia del Conde de tendilla" Madrid 1474. -II-. Pág. 36.

(٩) MENESES: Corresp..., II - 38.

الفصل السابع

غـزو مملكة فـاس

التواريخ البرتغالية:

أكدنا أن الملك الكاثوليكى حاول غزو مملكة فاس على الرغم من الاتفاقيات التى كانت تُدْرج تلك المملكة فى فَلَك النفوذ البرتغالى، وهو التأكيد الذى قوبل بمعارضة البعض حتى حينه.

كانت الأضرار والمصائب الآتية من سواحل الريف من ناحية، والمنطقة الأطلنطية من ناحية أخرى كثيرة كى لا يفكر الملك القشتالى فى حملة مشابهة، علاوة على ذلك، نظراً للاستحالة المادية للحاميات البرتغالية للشمال الإفريقى من أجل السيطرة على الموقف ذى الخطر المستمر على السواحل الأندلوثية.

لا الحملات فى أراضى العالم الجديد البعيدة، ولا النجاحات فى أجزاء ساحلية أخرى من شمال إفريقيا حجبت الرؤية عن الملك. إن السرطان الحقيقى بالنسبة إلى إسبانيا كان يتأتى من تلك السواحل الأخرى الأكثر قربًا والتى كانت تقع على بُعْد ساعات إبحار قليلة جداً من سواحل أندلوثيا والتى كان الغرناطيون المهاجرون يشنون منها قتالاً، خاسراً، لكنه كان دائمًا ثقيلاً بالنسبة إلى المنتصر. كان ذلك ثأر الإسلام الإسبانى المخلوع من أرض شبه الجزيرة.

سوف تمتد الحرب لقرون، لأن الدولة الإسبانية اكتفت بالقدرة على صد الهجمات على سواحلها. هذه السواحل سوف تمتلئ بالأبراج والقلاع، وسوف تظل المشكلة بدون حل حتى العصور الحديثة تقريباً.

أراد فيرناندو الكاثوليكى، بنظرة ثاقبة للمستقبل حل المشكلة، كما كانت قد حُلت مشكلة اتحاد شبه الجزيرة، وكما حُلت، بشكل جذرى، مشاكل أخرى كثيرة، وقفز على

الضفة الأخرى وشكّل درعًا واقيًا لم يكن البرتغاليون يعرفون أو يقدرون على خلقه: مملكة ملتزمة بدفع الجزية للمملكة القشتالية.

كان الملك يعرف أن البرتغال سوف تعارض دائمًا التدخل القشتالي في فاس، لكنه كان يعرف كذلك وبشكل تام حدود القوات البرتغالية، وأن هذه القوات لن تستطيع أبداً السيطرة على المملكة المغربية.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الملك البرتغالي مانويل Manuel كان صهره، تزوج أولا من ابنته إيسابيل Isabel، وبعد موتها تزوج من ابنته الأخرى الصغرى ماريا .María لقد كان ذلك يشكل عنصراً مهماً داخل شبكة التحالفات التي نسجها الملكان الكاثوليكيان ضد أعدائهما. لقد كان هناك توازن صعب يحتفظ به بين الرغبات الدفينة لفيرناندو وهدفه في ألا يوقظ عداءً لا لزوم له.

سوف يستغرق وقتًا طويلا يفكر في إشكالية تدخله المسلح الذي يشجعه عليه، من ناحية أخرى، مستشاروه الأساسيون لشئون إفريقيا، الذين كان من بينهم ثافرا Zafra وتينديًّا Tendilla .

إن العلاقات مع بن راشد، زعيم الشمال المغربي، كانت تمده، في أية لحظة، بمساعدة ليست بالهينة أبداً، على الأقل لكي يتمكن من إنزال عدد كبير من المقاتلين، دون خسائر في هذه الحملة الوشيكة.

تبدو لنا علاقات القادة المسيحيين هذه مع المنظري وبن راشد، في عام ١٥١٠، ليست كمحاولة أو ضربة جزئية ضد تطوان وملجئها القرصاني، بل كمقدمة أو تمهيد لهذه الحملة الأكثر أهمية التي كانت تتضمن قلب نظام الأسرة الوطاسية في فاس وتنصيب بن راشد، سيد الشمال المغربي كملك يلتزم بدفع الضرائب.

على الأقل هذا الهدف الأخير هو ما تؤكده التواريخ البرتغالية، التي تستحق روايتها تركيز اهتمامنا، لأنها لا تبدو، بالتأكيد، قصة مصطنعة ولا مكتوبة لتبرير شيء أو من أجل أحد.

النص التالي مأخوذ من غويس:

"أرسل الملك مانويل إلى قشتالة، خوان مينديث دى فاسكو غونسيوس Joanne Mendez de Vascogoncellos، على خلفية بعض الممارسات التى عَلِمَ أنها كانت مُثارة بين الملك فيرناندو وملك فاس ومولاى على باراكسى، التى كان يمكن أن تكون ذات ضرر كبير على هذه الممالك ... كان يتصرف بالأسلوب المتبع".

كان فى قشتالة شريفٌ يُدعى بدرو الباستاردو(*)، شخصًا ذا أصل وتأثير حتى أنه شارك فى الخلافات الكبيرة التى وُجِدَت بين فيليبى الوسيم والملك فيرناندو، كان باختصار ينتمى للفريق التابع لفيليبى، وعندما عاد الملك الكاثوليكى فى فترة ولايته الثانية خشى مثل آخرين من الفريق المذكور، من غضب الملك ونفى نفسه مثلما فعل الكثيرون أيضًا.

اختار لمنفاه الشمال المغربى، وبقى بعض الوقت لاجئًا عند سيدى على بن راشد، "بين المسلمين كان يُعَد سيدًا عظيمًا."

نعلم أن بن راشد، كان يعرف الملك فيرناندو ويتعامل معه، وقد حصل من الملك على عفوٍ عن الباستاردو، بمقتضاه رحل بدرو إلى قشتالة، يحمل معه تعليمات من سيد الشمال المغربى للملك المسيحى.

كانت التعليمات أو الاقتراحات التى قدمها بن راشد إلى الملك الكاثوليكى هى: "أنه إذا وعده بالنظر فى موضوع مملكة فاس، فسوف يساعده بشرط أنه بعد الاستيلاء

(*) أى أنه ابن غير شرعى. الطريف أن هناك كتابا كاملا يتحدث عن الأمـراء من أبناء غير شرعيين، انظر González Cremona, Bastardos reales, Planeta De Agostini, Barcelona, 1996: (المراجع).

على المملكة يجعله ملكًا عليها، ويعد أن يصل المشروع إلى النهاية التى يريدها هو، أن يدفع بن راشد الجزية، ويطيع ملكى قشتالة فى كل الأمور."

لا يمكن أن يكون الأمر أكثر وضوحًا. إن غويس، كما يُرى، يجعل بن راشد مسئولاً عن مبادرة المشروع. مع ذلك، من الصعب أن ينقاد الملك فيرناندو ببساطة لاقتراح من هذا النوع. عندما مال الملك إلى الحملة التى كانت تُقترح عليه فإن الموضوع لابد أنه كان مختمرًا فى ذهنه.

يُرسل الملك السيد بدرو الباستاردو بخطابات لـ بن راشد ولسلطان فاس. ينزل السيد بدرو عند القلعة البرتغالية بالقصر الصغير، للدخول إلى المملكة المغربية من هناك، إلا أن حاكم الموقع، يشك فى شىء، يأخذه بناءً على تناقض فى كلامه ويحتجزه عدة أيام ريثما يستطيع قراءة الخطابات التى يحملها الباستاردو. يُخبر بها الملك مانويل، ولكى يخفى الإجراءات التى تم اتخاذها يفرج عن السيد بدرو ورسالته.

> **" من ثَمَّ أعدَّ الملك فيرناندو من أجل هذا المشروع أسطولا كبيرًا دون أن يعلن عن وجهته، سوى أنه كان ضد المسلمين". كان هذا الأسطول مستعدا ومتأهبًا للخروج من ميناء مالقة، عندما تلقى الملك فيرناندو رسائل من البابا خوليو الثانى يخبره فيها بتشكيل تحالف ضده من قِبَل فرنسا وفينيسيا، ويطلب منه، بالإضافة إلى ذلك، مساعدته".**

"حَزِنَ الملك فيرناندو كثيرًا، لأنه اضطر إلى التخلى عن هذه الحملة التي كان يريد أن يقوم بها."

فى الحادى والعشرين من شهر مايو من عام١٥١١، يكتب الملك فيرناندو إلى الملك مانويل يحيطه علمًا بالأخبار التى تلقاها من البابا خوليو الثانى، بشأن فرنسا وفينيسيا، مُعربًا عن رغبته فى تحالف الملك البرتغالى معه ضد الفرنسيين.

" الأمر الذى لم يشأ أن يفعله أبدًا والذى كان مغتاظًا منه جدًا."

إن ذلك، إضافة إلى أعمال أخرى غير ودية، يبدو أنه كان رد الملك البرتغالى على محاولات الملك الكاثوليكى التدخل فى الأراضى المملوكة للبرتغال، وإفهامه أنه كان على علم بمشاريعه.

بالنسبة إلينا، فإن غويس، ١٥٠٢-١٥٧٤، يتميَّز بكونه مؤرخًا معاصرًا للملكين اللذين يعرض حياتهما.

إنه يُعَد بالتالى مَصدرًا أصليا وعلاوة على ذلك فهو مُعتمد كمؤرخ رسمى. يثبت لدينا رقابته من قبَل أعلى دوائر البلاط البرتغالى[١].

إن سرد الأحداث موجز وبصبغات حقيقية مستندة بالتأكيد إلى وثائق أمانة الدولة، التى وضعت تحت تصرفه. إنه بالنسبة إلينا صادق من كل الوجوه.

من المحتمل جدا أن مؤرخًا آخر لاحقًا قد أخذ منه أخباره، مُلخِّصًا إياها بقدر استطاعته. هذا المؤرخ هو السيد مانويل دى فاريا، الذى تُعَد ترجمته للأحداث مماثلة، لكن بصبغات نقدية أكثر اتهامًا لفيرناندو الكاثوليكى الذى يتهمه بأنه " مكَّار" و " تعميه المصلحة "، مع صفات أخرى، ليست أقل قسوة[٢].

بعد جمع تاريخ الملك مانويل ملك البرتغال، الذى استخرجنا منه الأخبار السابقة، التمس غويس تمكينه من توسعة الكتاب وقد قبل البلاط البرتغالى التماسه مع بعض القيود التى تتعلق بعضها بالتحديد بالفصل الثالث والعشرين من الجزء الثالث الذى يشير إلى محاولة فيرناندو الكاثوليكى غزو فاس.

بما أن تلك الإضافات تشتمل على بيانات عظيمة الأهمية، فسوف نعكسها، لأنها غير موجودة فى أية حكاية أو تاريخ آخر، دون أن نكرر بشكل غير ضرورى البيانات التى قدمها قبل ذلك غويس نفسه، والمكررة فى ترجمته الجديدة.

من بين الخطابات التى كان يحملها السيد بدرو الباستاردو والتى نجح حاكم القصر الصغير فى نسخها، كان هناك خطاب موجه إلى " مولاى محمد Mofamed ملك فاس". فى هذا الخطاب يطلق الملك فيرناندو إنذاراً نهائيا حقيقيا للعاهل المغربى، مع سلسلة من الشروط كان من الصعب على العاهل الإفريقى أن يتمكن من تلبيتها.

أن يكون الملك تابعًا له وأن يدفع جزية قدرها ألف عُملة doblas من الذهب؛ أن تكون هناك موانئ جاهزة لكل البضائع الإسبانية التى تدخل إلى فاس، وأن لا تدخل إلى تلك المملكة بضائع أخرى سوى الإسبانية، على سفن إسبانية، وأن يعطيه رهائن لتأمين السفن والبضائع؛ وأن يسلِّم إليه قلاعًا فى السواحل وكل السفن ذات المجاديف الموجودة فى مملكة فاس، دون أن يكون فى الإمكان فيما بعد بناء تلك السفن ذات المجاديف. وأنه إذا لبى الشروط المذكورة فسوف يكون هناك سلام دائم بين المملكتين.

لا يستطيع المؤرخ سوى أن يشرح أن تلك البنود كانت غريبة جدا بحيث إن الملك فيرناندو كان يعرف جيداً أن ملك فاس لن يوافق عليها وبالتالى فسوف تكون لديه ذريعة لشن الحرب عليه.

كان هناك خطاب آخر موجه إلى سيدى على بن راشد، يطلب منه أن يجهز كل أتباعه وأصدقاءه وحلفاءه، ونحسب من بين هؤلاء، منطقياً، سيدى على المنظرى، بهدف أنه عندما يجتاح مملكة فاس، تكون لديه صعوبات أقل فى خلع مولاى محمد من العرش، وجعله هو ملكًا وتحويله إلى تابع له.

إنه أقصى طموح لـ "بن راشد" الذى أصبح الآن مسنا، والذى كافح طوال حياته ليجعل لنفسه منطقة سيادة يمكن أن تتحول إلى شىء أكبر.

تتذكر فى هذه اللحظات فترة الشباب البعيدة لـ بن راشد التى رواها ليون الإفريقى، حينما كان يستحوذ على ضرائب الجبل، المستحقة للملك، أى أنه كان يهدف إلى خلق سلُطة فى مواجهة السلُطة المركزية، عندما كانت تتمكن من إخضاعه مستعينة بجيش قوى(٣).

إن ضعف المرينيين والوطاسيين سمح له بأن يعيش من الناحية العملية فى حالة شبه مستقلة، محتقراً دائمًا السلطان الذى يأتى عليه الدور، إلا أنّ هذا الوضع لم يُشبع طموحاته فى السُلطة، التى كانت تدعمها، إضافة إلى ذلك، مواهب غير عادية لسياسى وحاكم ومحارب استثنائى. إن والد زوجة المنظرى وحليفه وصديقه، كان سيقدم، ومعه المنظرى، مساعدة لا تُقدر بثمن فى خطط العاهل الإسبانى، لو تم تنفيذ الحملة.

لا يزال المؤرخ يقدم لنا بعض البيانات المهمة: لم يرد ملك فاس على الرسالة لأن مملكته كانت مُنهكة جدا بسبب فُقدان أناس كثيرين، ماتوا بالطاعون فى السنوات السابقة، وقد تحالف الملك فيرناندو بشكل حاسم مع " بن راشد ".

أعدّ الملك فيرناندو جيشًا كبيراً، دون أن يقول إلى أين كان يتجه سوى أنه كان ضد المسلمين الأفارقة، ومؤلف من أشرف الناس وأكثرهم عدداً من كل الذين خرجوا من سنوات كثيرة من إسبانيا، على حد قول غويس.

لا تدهشنا الحماسة المتيقظة من أجل الحملة عندما نعرف اللحظة النفسية لها.

عندما كان الملك فيرناندو على وشك الخروج مع ذلك الجيش من ميناء مالقة، تلقى خطاب البابا الذى كان يحدثه عن الرابطة التى تشكلت ضده، وتنازل الملك عن حملته التى كان مستعداً أن يشارك فيها شخصيا(٤).

هناك معلومات أخرى منشورة، وهى غضب الملك مانويل الذى يستعد، علاوة على ذلك، لأن يقود بنفسه جيشًا إلى شمال إفريقيا، عندما وضع فى حالة تأهب كل حاميات المواقع البرتغالية القوية فى المعين المغربى الشمالى. وهو ما يُعَد إجراءً ممتازًا للدفاع عن حقوقه فى مملكة فاس، لو لم نعرف أن تلك الحاميات بالكاد كانت تحتمى خلف أسوارها، حينما كانت تُهاجم بشكل جاد، كما حدث فى حصار أصيلة، فى عام ١٥٠٨، وقد تم إنقاذ الحامية والمدينة بفضل قوات إسبانية حضرت لنجدتها. لا يوجد أى مؤرخ آخر يمدنا بتفصيلات كثيرة عن المحاولة الفاشلة لفيرناندو الكاثوليكى لغزو مملكة فاس.

رودريغيس، المعاصر أيضًا للأحداث، يخصص له بالكاد أربعة أو خمسة سطور، دون أن يتكلم عن غزو فاس، بل عن تدمير تطوان.

"... عندما كان الملك فيرناندو ملك قشتالة موجودًا في إشبيلية أمر بحشد أناس كثيرين بغرض العبور لتدمير... تطوان، لكونها مؤذية جدا لكل ذلك الساحل التابع لأندلوثيا؛ وقد ألغى القرار الذى أصدره الملك فيرناندو بناء على طلب من الملك مانويل، سيدنا"[٥] .

يتعيَّن علينا أن نلفت الانتباه إلى أنه، إلى جانب أخبار أصيلة، التى كان بالتأكيد مؤرخًا أمينًا لها، فإن رودريغيس فى المسائل البعيدة عن ذلك الموقع يكتب قليلا عما سمعه أو قرأه من طرف ثالث و، بالإضافة إلى ذلك، دون الاهتمام بتحديد بيانات، مثلما فعل عندما بدأ الفقرة التى سوف يوجز فيها نشاط ملك قشتالة، يقول إنه فى السنوات الماضية، عشر أو إحدى عشرة أو اثنتى عشرة[*]، وهو ما يسبب لنا بعض الشك، فى وجود تزوير، أو فى وجود بعض التردد وعدم الدقة فى رواية الأخبار.

لا نجد أى مؤرخ برتغالى آخر ينقل لنا بالتفصيل المحاولة الفاشلة للملك الكاثوليكى على شمال إفريقيا الأقرب للسواحل الإسبانية، إلا أن تاريخ غويس يبدو بالنسبة إلينا كافيًا.

إن كون الكتاب قد مُنع مرتين بقرار الملكة البرتغالية الحاكمة، فى وقت صدور كلتا الطبعتين الأوليين، وكون هذا الفصل الخاص بمحاولة الملك فيرناندو نقض المعاهدات هو بالضبط أحد الأسباب الرئيسية لذلك المنع، يدفعنا إلى منح المؤرخ غويس كل ثقتنا فى صدق أخباره.

(*) أى عام ١٥١٠ أو عام ١٥١١ أو عام ١٥١٢ . (المراجع)

الفقرة الخاصة بالخطاب الملكى الخاص بمنح المؤرخ الإعانة المالية التى طلبها لطبع العمل، تردُ هكذا:

""Vi os capitulos que me enviastes assim o que falla no C ardenal Infante meu tio como o que toca as cousas d el Rei Dom fernando. No do Cardenal mandei emendar o que vereis, e no del Rei Dom Fernando mudar o que tambem vereis pelo caderno que com esta vai, conforme ao qual o fareis lancar em seu lugar"

فيما يخص الموضوع القشتالى، فإن البلاط البرتغالى لا يصحح، لكنه يُغير أو يبدل الفصل، وهو ما يشير إلى أنه كان لا يزال يُشكِّل حدثًا جدليًا بين قادة كلا البلدين.

لن يكون التغيير جوهرياً إلى الدرجة التى تؤثر فى مضمون الأحداث التى تبدو متماثلة فى طبعتى تاريخ غويس، إذ تحتوى الطبعة الثانية على تفاصيل أكثر لا تؤثر فى شىء على السياق العام.

تفاصيل، من ناحية أخرى، لا نعتقد أنها كانت السبب فى التصحيحات التى تمت بيد الملك. هذه التصحيحات سوف تشير على نحو خاص، إلى انتقادات أو أوصاف أشد قسوة وعدائية، وُجهت للملك فيرناندو، الذى، هو فى نهاية الأمر، كان أصل العائلة الملكية البرتغالية.

عندما كان غويس، كمؤرخ رسمى، يستعمل وثائق أمانة الدولة البرتغالية كان، فى وقته، الأفضل إحاطة بالموضوع الذى، فى اعتقاد البرتغاليين، كان يضر بشدة مصالحهم فى إفريقيا.

فيما بعد سوف تقنعهم الظروف بما هو عكس ذلك.

التواريخ القشتالية:

لا نجد عند المؤرخين الإسبان شيئًا شبيهًا لرواية غويس. ليس السبب هو أنهم كانوا يجهلون الحملة المخططة للملك الكاثوليكى على أراضٍ فى إفريقيا، فهذا الأمر

كان يعرفه الجميع، لكن أيًّا منهم لا يتحدث عن أن فاس كانت الهدف الواضح للملك فيرناندو.

المؤلف المجهول الذى واصل ما بدأه بولغار يذكر أنَّ الملك رأى أن هناك أربع مدن لها موانئ جيدة جدا كانت تُعدُّ كل منها مدخلا آمنًا لإفريقيا كلها وأن هناك ملوكًا كثيرين وقَّعوا معه اتفاقيات هُدنة، يدفعون له الجزية، مثل ملوك بيليث وتلمسان، " وقرر هو نفسه بشكلٍ حازم أن يذهب بشخصه ليعبر إلى إفريقيا"، وكان السبب، ببساطة، هو القتال من أجل الدين.

من أجل هذا الهدف الخاص بالعبور شخصيًا إلى إفريقيا، جمع المجلس فى مونثون، فى عام ١٥١٠، بهدف طلب المال من أجل هذه الحرب التى " كان يعتزم القيام بها ضد مسلمين أفارقة ". على ضوء هذا البيان التاريخى نرى أن مراسلات ورسل تينديًا إلى المنظرى فى هذه التواريخ كان لها ما يُبررها.

يتعيَّن علينا أن نلاحظ – على ضوء ما قاله المؤرخ – أنه، إذا كانت هناك موانئ محتلة فى إفريقيا، وكان هناك ملوك يدفعون الجزية فلم يعد هناك شىء كثير يمكن أن تقومْ به حملات إلى الشرق من مليلة، وتتطلب بذل مجهود كبير جدا.

فى أوائل عام ١٥١١، غادر الملك مدريد متوجهًا إلى إشبيلية، وقد أمر بتهيئة الأمور وتجهيز عمليات التموين اللازمة لجيش ضخم مثل الذى كان يجمعه، وهو ما كان يصل إلى مدينة قادش حيث كان من المتفق عليه أن يجتمع الأسطول والجيش "الذى كان يتعيَّن عليه أن يعبر مع جلالته؛ وهو ما رأيناه جميعًا بوضوح بأعيننا، ولا أحد يمكنه أن ينكر، وكل الناس يقرون بأنهم يعرفونه ورأوه".

يبدو كما لو أن، فى وقتها، كانت هناك اختلافات فيما يخص الحملة وأهدافها.

يوجد اختلاف مع غويس: يجعل المؤرخ البرتغالى من مالقة نقطة انطلاق الأسطول الإسبانى، فى حين أن المؤرخ القشتالى يحدد مكانها فى قادش.

ولكون المؤرخ القشتالى، كما يصرح، شاهد عيان على الحشد، فإنه يتعين علينا أن نصدق بأن المحاربين الرئيسيين قد التقوا بالفعل فى قادش، لكن تجمعت أيضاً فى مالقة عتاد ومؤن عديدة، كما هو مثبت وثائقيا، طبقاً لما سوف نراه. قادش ومالقة، كلاهما كانتا قريبتين من الهدف.

بعد أن عُرف وأشيع فى كل إسبانيا الإعلان بأن الملك سيذهب شخصيا، تطوع سادة عظماء على نفقتهم لعبور البحر مع الملك وحضر جزء كبير منهم إلى مدينة إشبيلية، مثل رجال آخرين وفرسان وأناس من العوام وأشراف كانوا يريدون العبور لمحاربة المسلمين.

" لقد كان العدد كبيراً بحيث لا يمكن تصديقه والسفن الكثيرة والأسطول الضخم الذى تجمع فى قادش لم يتسع ولم يستوعب أناساً كثيرين. أقول لكم إن شباناً كثيرين جاءوا من إنجلترا لخدمة صاحب الجلالة فى هذه الحرب المقدسة...".

إنهم رُماة سهام إنجليز، فعلا كانوا لا يزالون يلعبون دوراً معيناً فى المعارك، حيث كان دور البارود فى بدايته.

بعد الحشد والتجهيزات الكثيرة تصل الأخبار من البابا ويترك الملك فيرناندو "كل أفكاره وأسطوله وعتاده الذى كان قد أعده بتكلفة لانهائية"، وذهب إلى بورغوس ليتابع الموقف الأوروبى الجديد"(٦).

هناك نقاط اتفاق كافية، من الممكن رؤيتها، بين الروايتين القشتالية والبرتغالية.

فى عام ١٥١١ يفكر الملك الكاثوليكى فى أن يقود شخصيا حملةً إلى شمال إفريقيا.

لا يذكر المؤرخ الإسبانى المكان أو الغرض من حملته، لأنه من المحتمل أن الملك لم يبح له بذلك؛ يؤكد غويس أن الهدف كان مملكة فاس ويورد الأدلة اللازمة.

يقول غويس إن مالقة كانت مكان حشد الأسطول، فى حين أن زميله الإسبانى يشهد أن فى قادش تجمع أسطول وجيش. نعتقد أن التفسير الذى قدمناه يلائم كلتا الصيغتين.

لا يأتى غاليندبث دى كارباخال بشىء جديد أو استثنائى. يضيف فقط أن الملك وصل إلى إشبيلية فى فبراير من عام ١٥١١، عندما كان يُعد جيشه لعبور المضيق، وهو ما عرقلته كل المملكة، مع أن الحقيقة أنها كانت، فى السر، ضد ملك فرنسا.

ثم تأتى فقرة لا توضح لنا شيئًا كبيراً:

" أرسل الملك هذا العام الجزء الأكبر الذى كان لديه من جيشه من أجل عبور المضيق، وقد أبحر الجيش من مالقة ". لا يقول لنا أين ذهب هذا "الجزء الأكبر من جيشه " وليس كله بالتحديد، بل الذى كان يعده، والذى يذكر غاليندبث بأنه أبحر"(٧).

لا يوضح لنا برنالديث أيضًا الهدف من هذا الأسطول الضخم الذى يُنَظَّم بطلبٍ من الملك، ويحتشد فى إشبيلية ومالقة وفى كل موانئ أندلوثيا، حيث تتراكم أيضًا إمدادات لا نهائية من القمح والشعير والنبيذ والجبن وشحم الخنزير والأسلحة وكل الأمور الأخرى التى كانت ضرورية.

إن ما كان يُحَدد مكانه عند البعض فى مالقة وعند آخرين فى قادش، هنا هى كل موانئ أندلوثيا، وهو أمرٌ أكثر منطقية، إذا كانت الحملة قد جُهزت على نطاق واسع وليس من أجل وقت محدد أو حدث منفصل، مثل تدمير مدينة ساحلية معادية وانسحاب سريع للقوات.

دخل الملك إشبيلية فى فبراير من عام ١٥١١، معلنًا الحرب ضد المسلمين هناك فى إفريقيا، وأنه سوف يعبر بشخصه، " إن القرى والمدن، كانت حزينة، لأنه سوف يعبر بنفسه... وكتبت له بعض المدن تطلب منه ألا يعبر، بل يرسل القادة..."(٨).

لكن الملك فيرناندو ردَّ بأنه كان يتعيَّن عليه أن يعبر بمساعدة الربِّ.

لقد تأكدت كل أخبار عموم المؤرخين، الإسبان والأجانب من رغبة الملك الكاثوليكى فى الذهاب شخصيا على رأس جيش قوى، لقتال الكفار فى الأرض الإفريقية نفسها.

إن مكان هذه الأرض الإفريقية هو الذى لا نعرفه، مؤقتًا، داخل التواريخ القشتالية مع أنه نادرًا ما تتجمع قوات كثيرة للهجوم على مدينة.

يُنهى برناليديث، مثل الباقين، هذا الموضوع بالأخبار التى وردت من البابا، والتى بسببها " تعيَّن عليه – على الملك فيرناندو – أن يترك العبور إلى شمال إفريقيا، مع أن السفن كانت جاهزة والإمدادات وصلت، وأناس كثيرون من الذين كان قد تعيَّن عليهم أن يعبروا، جاءوا ورحلوا عن أراضيهم ليعبروا...".

بدا الملك غاضبًا جدا عند تلقيه خطابات البابا، وأمر بصرف الناس الذين كانوا قد تجمعوا. من بين هؤلاء، يتذكر برناليديث أيضًا ألف وخمسمائة رامى سهام إنجليز.

لا شىء جديدًا يقوله لنا مؤرخون آخرون، بالكاد يشيرون إلى الموضوع.

ربما لكون الموضوع تم تأمله بشكل فيه كثير من التحيز من قبل كاتب برتغالى فقط لم يركز المؤرخون المعاصرون القشتاليون انتباههم حتى فى عقدة القصة، التى تم سردها إلى حدٍ ما من أجل النيل من مكانة صورة فيرناندو الكاثوليكى.

لكون الحملة فاشلة من حيث المبدأ فإن التأريخ الإسبانى اللاحق لم يسلط انتباهًا كثيرًا عليها. لنضع فى الحُسبان أن العاهل الإسبانى نفسه كان هو الذى أخفى دائمًا الهدف الأخير الذى كانت تكرس له كل تلك الاستعدادات والتى لم يفسر الهدف منها، حتى بعد صرف النظر عنها.

فى أيامنا، مؤرخون لفترة حكم فيرناندو، لا يذكرون حتى المحاولة على الرغم من أنها محددة بوضوح فى حوليات وتواريخ ذلك العصر.

وثائق أخرى:

سوف نختم بإيجاز هذا الفصل الخاص بحملة فاس التى خطط لها فيرناندو الكاثوليكى، عبر أراضى بن راشد والنزول على شواطئ يسيطر عليها المنظرى، بوثائق ذات طابع مختلف عن التى تم فحصها حتى هنا والتى كانت عبارة عن تواريخ العصر، البرتغالية والقشتالية.

كانت المؤن التى تم جمعها فى مالقة من أجل الحملة وفيرة جداً كما يوضح المؤرخون بشكل صائب. من الطبيعى عندما أُلغيت الحرب التى خطط لها، أن أصبحت كل تلك المؤن إلى حدٍ ما مُعَرَّضة لفقدها الكلى أو الجزئى، مع الأضرار المترتبة على ذلك بالنسبة إلى التجار أو المولين الذين كرسوا أنفسهم بشكل خاص لذلك وانعدام الثقة المترتبة على ذلك فى الخزانة الملكية إذا جرت فى المستقبل أحداث من هذا النوع، من هنا فإن الملكين أصدرا أمراً ملكيا يعطى فترة ستة شهور، حتى يمكن فى تلك المدة بيع المواد المخزونة، بأفضلية على مواد أخرى، وقد لبوا على هذا النحو بالتأكيد طلبات المتضررين. هذا الأمر الملكى محفوظ فى أرشيف بلدية مالقة، وهو ما يُعَد حُجة لنا، بالإضافة إلى المشروع فى حد ذاته، على أن له وثائق أكثر من اللازم تكفى لكيلا نشك فى حقيقته وفى أهميته، إذ احتاج الأمر إلى ستة أشهر من أجل التخلص من كمية كبيرة من الأطعمة المتراكمة(٩).

يعطى الأمر الملكى فكرةً، ليس فقط عن عدد القوات التى كانت على حد قول المؤرخين كبيرة جدا، بل أيضاً عن مدة الحملة، التى لم يكن يظن أنها ستكون قصيرة. يتعيَّن علينا، كما قرأنا، اعتبار أن الاستعدادات من أجل الحملة كانت قد اتخذت فى كل موانئ أندلوثيا وليس فقط فى مالقة. إنها أسباب إضافية تؤكد أهميتها.

بعد ثمانية عشر عامًا من هذه الحملة الفاشلة، اختفى أبطالها الأساسيون: فيرناندو الكاثوليكى ومانويل الأول ملك البرتغال وسيدى على بن راشد. بقى فقط منظرى عجوز وأعمى موجود فى حكومة تطوان وإقليمها كظل فقط، لأن اللذين كانا

يتوليان السُلطة حقيقةً هما زوجته ست الحُرة وشقيقها مولاى إبراهيم، المفضل عند سلطان فاس، الذى تغير أيضًا. أصبح يحكم فى البرتغال خوان الثالث، ابن الملك مانويل والسيدة ماريا، الابنة الصغرى للملكين الكاثوليكيين. هو إذن حفيد فيرناندو وإيسابيل ابن عم للإمبراطور كارلوس. فى عهده تم التوصل إلى نتيجة مفادها أن المواقع الإفريقية القوية، " الحاميات"، مكلفة بشكل أكثر من اللازم للخزانة العامة مقارنةً بالربح الحقيقى الذى تُدره أو المنفعة والخدمة التى تقدمها.

لقد كان كفاح بن راشد والمنظرى يعطى بالتالى ثماره على المدى الطويل.

يقرر القصر البرتغالى التخلى، إن لم يكن عن المواقع كلها فعلى أغلبيتها، لكن قبل ذلك يستشير خوان الثالث كبار البارزين فى المملكة فى إلغاء أو إعادة تنظيم تلك المواقع الواقعة فيما وراء المضيق.

تُعد الفقرات المأخوذة من رسالة يوجهها دوق براغانثا إلى الملك، ومؤرخة فى بيَّابيثيوسا فى الثانى عشر من فبراير من عام ١٥٢٩ ردا على هذه الاستشارة.

يُعبر الدوق عن أفكاره بخصوص تكلفة الحاميات بشمال إفريقيا، متخذاً الحطب كمثال، الذى يكلِّف إحضاره من إفريقيا أكثر مما لو جُلِبَ من إسبانيا أو البرتغال. يقول الدوق إنه يتعين سحب سلاح الفرسان وترك المشاة فقط، لأن الفرسان هم الذين يسببون الأخطار الكبيرة للقلاع وهم بلا شك الأكثر كُلفة.

يرى الدوق أنه من الأفضل التنازل للإمبراطور كارلوس عن مواقع سبتة، والقصر الصغير، وطنجة وأصيلة، والاحتفاظ فقط بأزمور **Azzemur** وصافى **Safi**، اللتين تُسببان نفقات قليلة؛ بالإضافة إلى أن التنازل عن تلك المواقع سوف يوفر الاحتفاظ بأسطول فى المضيق.

غير أن الفقرات الأكثر أهمية فى الرسالة هى تلك التى تذكر الموضوع المتناول فى هذا الفصل، أى حملة الملك الكاثوليكى على أراض إفريقية.

..."me pesou muito de voso pay nom dar licença para se tomar Totuao a el Rey voso avooo, a ainda segundo meu voto, ele lhe ouvera d ajudar a tomar , e meter nyso huua quintelada; e o conservar da conquista nom he senao pera quem tem as ma os na masa, para querer executar, mas pera as ter asy enbaraçadas, e nom nas consentir aproveitar a outrem, ou o nao procurar aimda que as exercytem, parece que tem huua leiva de cao de palheiro".

لقد أحزنني كثيراً من أبيكم أنه لم يُعطِ الإذن بالاستيلاء على تطوان من الملك جدكم، وهو ما يعنى أن دوق براغانثا عاش تلك اللحظة التاريخية ويؤكد لنا، على وجه الخصوص، رأينا، حول المكان الإفريقى الذى كان يفكر الملك فيرناندو فى التوجه إليه أو إنزال جيشه فيه. لم يكن شرق مليلة، لكن، كاحتياط أولى، الاستيلاء على تطوان التى نعتقد أنها هدف أوّلى، وأن غويس كان على حق. الهدف الأخير كان سيكون مملكة فاس.

يعود دوق براغانثا فى نفس الرسالة للتذمر من شكوك أبناء وطنه، الذين منعوا تحقيق استفادة كبيرة من قوات شبه الجزيرة.

يبدو له أنّ ملك البرتغال ليس قويا بما فيه الكفاية كى يتم احتلال مدينة فاس، وليس لديه من المال ما يساوى نقل خمسين أو ستين ألف رجل يذهبون ليقطنوا فى شمال إفريقيا. إن ذلك يمكن أن يفعله بسهولة جدا ملك قشتالة بسبب المدن الكثيرة التى لديه، وبالإضافة إلى ذلك لكون القشتاليين طموحين جدا للتجديدات.

يقول بعد ذلك إنه من الممكن توطين رهبانية الأوسبيتال فى سبتة والقصر الصغير؛ بذلك سوف تمنع سفنهم المسلمين من عبور المضيق.

" وستكون خدمة للرب أن نمنع أسر أشخاص كثيرين، وسيكون ذلك تعويضًا عن أسر أشخاص كثيرين فى تطوان ... ويعلم الرب قدر حزنى على ذلك."

( )"

يوجد بالتأكيد ألم مرير لدى دوق براغانثا وهو يتذكر ما كان من الممكن أن يكون ولم يَكُن والنتائج التى يعانيها بلده الآن بسبب الاحتفاظ بمواقع قوية لم تُؤد، فى وقتها المناسب، إلى تلبية تطلعات شبه الجزيرة فى توسيع حرب الاسترداد إلى الجانب الآخر من المضيق.

بعد هذه المحاولة التى قادها فيرناندو الكاثوليكى، لم تحدث محاولات أخرى على شمال إفريقيا القريب تستحق أن توضع على مستوى ذلك المشروع الفاشل.

إن حملات المعمورة، فى مصب نهر سبو Sebu والعرائش فى مصب نهر لوكوس، هى حروب دفاعية بسيطة.

ولا حتى أمكن الاستفادة من الرغبة فى استسلام الرباط وقلعتها.

يشهد القرن السابع عشر، حيث تجرى الأحداث التى ذكرت للتو، ليس قمة القوى الإسبانية بل انحدار قدرتها.

إن رسالة دوق براغانثا إلى خوان الثالث تشكل هكذا، وثيقة ثمينة، ولكونها بالتحديد من الجانب البرتغالى فهى بالنسبة إلينا تنطوى على قيمة عاطفية وتاريخية.

لا ينبغى علينا أن نصنع تاريخًا خياليا، كما هو منطقى، بل نفكر فى النتائج المختلفة التى كانت ستحدث لأجل التحول التاريخى لشبه الجزيرة لو تم تنفيذ جزء من جهود التوسع الأوروبى والأمريكى فى بلاد شمال إفريقيا، خصوصًا تلك المنتمية لغرب البحر المتوسط، المتشبعة بهجرة إسبانية.

الهوامش

GOIS, Damiao de: Crónica d'el Rei D. Manuel. Lisboa 1909.3.ª parte. Cap. XXIII. (١)

FARIA y SOUSA, Manuel de: África portuguesa. Lisboa 1681. pág. 99. (٢)

L'AFRICAIN: 1-271 (٣)

GOIS: Op. cit. Vol. XII. Págs. 73 y s. (٤)

RODRIGUES: Anaisi, 1-90. (٥)

CRONICA DE LOS RECC D. FERNANDO e D.a ISABEL: B.A.E. (٦)

Id.id.id. Pág. 558. (٧)

id.id.id. pág. 743. (٨)

Archivo del Ayuntamiento de Málaga. Libro de Provisiones. Vol. VI. Fols. 14 vt.o y (٩)
15 vt.o.

- S (ources) I (nedites) de l'H (istoire) du M (aroc). S.I.H.M. Portugal Tom. II-2.a (١٠)
París 1946. págs. 443 a 445.

الفصل الثامن

وفاة المنظرى وخلافته

طول حياة المنظرى

توفى سيدى على بن راشد المجاهد العظيم فى الشمال المغربى عام ١٥١١- وهو نفس العام الذى تقرر فيه غزو الملك الكاثوليكى، لا تعرف خطط أخرى لهذا الملك على هذا النطاق فى شمال إفريقيا- فبعض من تلك الحروب كان يرجع إلى سياسة شبه الجزيرة، التى شهدت قبل موت السيد فيرناندو عام ١٥١٦ اندماج مملكة نابارا، والبعض الآخر يرجع إلى موت سيد الشاون الذى سيكون حافزاً قويا للاقتراب من قشتالة، التى كانت تمثل أكبر قوة فى ذاك العصر.

وكان مولاى إبراهيم نجل بن راشد وصهر المنظرى مهتما بالسياسة الداخلية للدولة المغربية فوضع سلطاناً على هواه وصار رئيساً قويا للوزراء، ولم يكن رغم مهاراته الفائقة كحاكم وكمحارب قادراً على تجنب سقوط الأسرة الوطاسية وانهيار الدولة.

وقد توفى أيضاً قبل موت المنظرى.

وقد عاش مؤسس تطوان أكثر مما عاشت مآثره وبطولاته، ولكننا نعرف أن أحداً لم يضعه فى الحسبان فى أى نشاط مخطط ضد الأرض الخاضعة لحكمه.

ومع ذلك فإن قوارب الاستكشاف التى كانت تلجأ إلى نهر المرتيل كانت تقلق مسئولى السلامة البحرية فى الشواطئ الأندلوثية. وعلى الأقل نعرف مجموعة من الرسائل المتعلقة بهذا الموضوع كتبها كونت تنديا على مدى عام ١٥١٣ ، وفى السادس

من يناير كتب إلى الملك متعهداً بإخراج " القوارب الاستكشافيه من تطوان، إذا جاءت السفن فى وقت الليالى العظيمة"(*).

وابتداء من فبراير حيث كتب تنديا إلى كونت ألكاوتين الحاكم البرتغالى لسبتة، كانت هناك خطة لهذا الحاكم، حيث كان يريد الاعتماد على الأسطول البحرى الإسبانى طبقًا لما يستنتج من الرسالة التى وجهها السيد إنييغو إلى الأب بيرنخيل دومس قائد السفن فى ٢٥ مايو:

"لقد كتب إلىَّ فى هذه الأيام الماضية السيد كونت ألكاوتين القائد العام لسبتة أنه يريد أن يدبر حيلة لخروج قوارب الاستكشاف من تطوان..وكان يبدو أن هناك عوائق كبيرة فكتبتُ إلى جلالته ..فأجابنى الملك...أما بالنسبة إلىَّ فأرى ألا نغامر بسُفُنِك، على الرغم من إمكانية المغامرة ببعض الناس فما يمكن إدراكه لا ينبغى تركه. ولكن أرى أنه لا ينبغى التجربة بحيلتين مجتمعتين...إخراج السفن واجتياح بعض الأماكن...حيث يأتى أكبر الخطر من تطوان...".

ثم رجع يكتب إليه فى الشهر التالى قائلا له إن البرتغاليين هم أناس طيبون ولكنهم لا يحفظون السر لذلك "كان المسلمون قد تنبهوا إلى الحيلة التى دبرها البرتغاليون أصحاب القوارب الاستكشافيه".

لذلك وكما هو معهود كان على تنديا أن يُعلم سيده: "لقد أخبرنى قائد السفن أن لديه معاهدة لإخراج قوارب الاستكشاف من تطوان بمساعدة كونت ألكاوتين وأنه فى بولبونس (تقع بولبونس فى مضيق جبل طارق) وأن المسلمين قد أسروا رجلا ليعرف هذه المحاولة مما أدى إلى اكتشافها...".

(*) لم نتوصل إلى معرفة المعنى المراد بهذا المصطلح ، وربما كان المؤلف يشير إلى الليالى القمرية. (المراجع)

وكانت هناك رسالة أخرى إلى الملك في سبتمبر تتحدث عن تلك الخدعة كشيء مضى[١].

وباستثناء تلك الحيل، فإننا لا نجد حتى عام ١٥١٧ تقريباً مخططات أخرى ضد تطوان فيما بقى من فترة حكم أو وصاية السيد فيرناندو على العرش، ومن جانب آخر فلا يزال لدى قائدها أعمال حربية كثيرة وذلك طبقا للمؤرخين البرتغاليين.

وبعد ذلك، فإن ضعف قواه الجسدية وخاصة إصابته بالعمى، قد أسدلت ستارا كثيفًا من الغموض على آخر سنين عمره الطويل.

وهنا بالتحديد يسيرالكُتّاب المغاربة بحذر، فالبعض منهم يؤرخ موت المنظرى عام ١٤٩٤ أو ١٤٩٥، وهو شيء يسهل رفضه من خلال الوثائق. فقد رأينا سابقًا بعض الأدلة المتعلقة بافتداء الأسرى بتاريخ ١٥٢٣ والتى ذكر فيها أن المنظرى كان يملك أربعة عشر منهم. وكان عشرون ينتمون إلى محمد إبراهيم، مما يشير إلى الزعامة التى تحركت خلالها البرجوازية التطوانية فى ذلك الوقت.

ولم يختف المنظرى فى عام ١٥٢٣ جسمانيا ولكن اختفى عمليا وبقى تحت سيطرة كل من زوجته ست الحرة وصهره. والبعض يتحدث عن منظرى ثان ومنظرى ثالث، وحتى عن منظرى رابع، وآخرون يتحدثون عن ابن أخ له ويتحدثون حتى عن حفيد.

لذا فربما أخطأ ليون الإفريقى الذى أعلن أنه زار المدينة حينما كان يحكمها حفيد المنظرى، الذى كان قد مات ضريراً مسنا قبل ذلك بقليل.

ومثل هذا التصريح من الممكن أن يستخدم على الأقل لتعديل وجهة نظر هؤلاء الذين حددوا موت القائد فى نهايات القرن الخامس عشر. وهذا شيء غامض إزاء تأكيد الإفريقى أن المحارب العظيم كان قد مات قبل زيارته المدينة بوقت قليل، والتى لم تتم قبل نهاية العقد الثالث من القرن السادس عشر.

وبالتالى لا نعرف من أين جاء خلفاء المنظرى هؤلاء الذين ذكرهم مؤرخ مغربى بتسلسل زمنى بادئًا بالديب Ad Dib مؤسس القصبة وكذلك آخرين قليلين.

ولا ينبغى أن ندخل فى تدقيقات حين ما إذا وجدت تلك الأسماء فى تاريخ تطوان، ولكن نستطيع أن نؤكد بشكل قاطع أنهم لم يكونوا خلفاء للمنظرى، وكذلك يمكن التأكيد بكل وضوح على أنه لم يكن هناك منظرى ثان ولا ثالث، حيث إن خليفة الزعيم فى الحكم لم يلقب باسمه ولا حتى طمح إلى ذلك.

وقد طالت حياة المنظرى حتى نهايات عام ١٥٤٠ أو بدايات عام ١٥٤١وإن لم تكن سنوات حكمه قد طالت.

ويؤكد لنا ذلك الكتاب الذى كتبه الراهب اليسوعى غابرييل دى أراندا بعد ذلك بقرن تقريبا، محاولا تقديم الأدلة والأحداث المهمة والضرورية لترسيم مبشر إشبيلى هو الأب فيرناندو دى كونتريراس على أنه قديس.

ولكى يتم القيام بالمهمة بشكل دقيق، يجرى البحث عن شهود ووثائق وإثباتات يمكن إيجادها، وتم مضاهاة التواريخ بعناية، وفى النهاية كان يتم البحث عن كل أنواع الآثار لكى تظهر أن الكاهن فيرناندو دى كونتريراس الذى كرس الفترة الأخيرة والكبيرة من حياته لافتداء الأسرى، كان جديراً بأن يكون قديساً.

إذن فهذا الكتاب يمثل وثيقة ذات قيمة كبيرة بالنظر إلى صحته، أما فيما يتعلق بنا، فإنه ضرورى من أجل معرفة المعلومات الكافية حول افتداء الأسرى، وخاصة فيما يتعلق بالسيرة الذاتية للمنظرى، ولكى نستطيع أن نحدد الفترة الزمنية الدقيقة عند اختفاء القائد الغرناطى.

وعلى حد علمنا، لم يقم أحد حتى الآن بالبحث فى كتاب الأب أراندا لكى نستكمل حياة المنظرى.

ربما لأنه كان يعتقد أن هذا المنظرى كان الثالث أو الرابع للأسرة المختلقة التى اخترعها بعض المؤرخين وتبعهم آخرون. ربما لأنه كان يعتقد خطأً أن كتاباً حول إعلان القداسة كان أبعد من أن يتناول شخصية تاريخية مسلمة.

ومع ذلك فإن الأب كونتريراس كان محملا بتاريخ إفريقى وقد امتلأت سنين عمره الأخيرة بالأخبار والخطط المتعلقة بمملكة فاس وبتطوان بشكل ملحوظ، ولم يقتصر دوره فقط كمفتد للأسرى، بل كوسيط بين خليفة المنظرى الذى يدعى حسن وبين البلاط الملكى الإسبانى.

وهناك رسائل ومذكرات للأب كونتريراس مكتوبة من تطوان وأخرى قد تسلمها، تشكل كلها حبكة تاريخية، تكفى فى رأيى لتقييم كتاب الأب أراندا كوثيقة تاريخية ذات أهمية بالغة.

لقد عرف الأب كونتريراس المنظرى وتعامل معه فى الشهور الأخيرة من حياته. ومن الممكن أن يكون قد تعامل معه آنفا فى زيارته الأولى إلى تطوان فى عام ١٥٣٥ ولكن لم يخبرنا الأب أراندا شيئًا عن ذلك. ومن المحتمل أن اتصالاته بهدف الافتداء كانت مع سلطات أخرى دون علم القائد المسن.

وعندما مر المبشر عبر تطوان فى عام ١٥٣٥، فى الطريق من مدينة فاس إلى سبتة حاملا معه مجموعة من المسيحيين الذين أطلق سراحهم من عاصمة المملكة، لقى مفاجأة غير سارة فى تطوان.

وجد هناك عبيداً أكثر عدداً مما كان يتوقع وأشد بؤساً مما كان يظن. ولم تكن لديه أموال كافية للقيام بعمليات افتداء أخرى، ولكن نشاطه التبشيرى جعله يتضرع ويأمل ذلك. فوسع من عمليات الافتداء وخصوصًا النساء والأطفال من الأسرى ذوى الوضع الأكثر خطورة، وبما أنه لم يكن لديه مال ولا بضاعة فقد استدان بثلاثة آلاف دوقية على أن يردها فيما بعد.

بيد أن مالكى هؤلاء العبيد – وهم أعضاء الطبقة الحاكمة والذين كانت تلك التجارة هى الأكثر ربحًا بالنسبة إليهم – فكان حتمًا عليهم أن يتفاهموا مع كونتريراس لكى "يضمنوا" بضاعتهم. ولأن المنظرى لم يظهر، نفترض أن كونتريراس تعامل مع زوجته ست الحرة أو مع مفوض منه. وتظهر زوجة المنظرى فى العديد من الوثائق متحمسة للتجارة التى كانت تقوم بها القوارب الاستكشافية.

وقد وصل الأب كونتريراس إلى تطوان مرة أخرى بعد ذلك فى عام ١٥٣٩ بعد أن ترك التاجر خوان دى إيريرا فى إشبيلية المكلف بتنفيذ وتلقى الوصايا والتبرعات التى جعلته يسافر للقيام بمهمة الافتداء.

وقد حددت بعض الأوامر نوعية الأسرى الموفد إليهم، كالعبيد فى مدينة فاس على سبيل المثال ولكن كونتريراس كان قد شاهد بؤس المنظرى فى تطوان مما جعله يقرر أن يرجع إلى تلك المدينة التى تعتبر أحد المراكز الرئيسية لنشاط القرصنة وإحدى أهم أسواق العبيد فى الشمال الإفريقى.

وقد تردت أوضاع الأسرة الوطاسية منذ زيارته السابقة. ففى ٢٤ من يوليو عام ١٥٣٦ مُنِىَ أحمد الوطاسى ورئيس وزرائه محمد إبراهيم بهزيمة فى معركة ضد شريف مراكش.

وقد سقطت مملكة فاس من تحت سيطرة الابن محمد إبراهيم و كان أبوه يحلم أن يحكمها يومًا ما.

وكان الموت وحده هو ما منعه من أن تلحق به هزائم أخرى أو أن يرى انهيار إنجازات أبيه مثلما حدث له. وقد توفى قبل عام من وفاة المنظرى معلمه والمدافع عنه فى ميادين الحرب والذى عاش أكثر مما عاشت الشخصيات الأخرى وأكثر من ذكرى الأحداث.

وقد عاش ضريرًا ومسنا، وقد أحل صهره وزوجته محله فى السنوات الأخيرة. وفى الواقع كانت ست الحرة هى التى تدير الشؤون العامة، ولكن عندما كانت تتعامل

مع أمر فنى كان يتدخل محمد إبراهيم. على سبيل المثال كان محمد إبراهيم يبعث قائداً عسكريا ليراقب أسوار المدينة ويدعمها(٢) .

إذن كان الأب فيرناندو دى كونتريراس المبجل يتحدث ويتعامل مع منظرى ضعيف فى كل المظاهر وقد أشرف على الموت.

وتنقصنا بعض المعلومات الأخرى المهمة فى الأدلة التى حصل عليها الأب أراندا، منها وصف الحالة الجسمانية للمنظرى فى ذاك الوقت. وفى مقالة موجهة إلى الغرناطى يقول فيها بالنص مشيراً إلى حياته: "ينبغى أن تنتبه إلى أنه لم يبق لك الكثير، لأنه قد طالت سنين عمرك". وهذا الذى يرد على لسان كونتريراس الذى جاوز السبعين يشير إلى أن المخاطب كان أكبر منه سنا(٣) .

وفى تلك السن المتأخرة التى أضعفت المنظرى نفسيا وزادت من حنينه، كان يستدعى الأب كونتريراس يوميا إلى قصره ويقيم معه حوارات ممتدة حول الأحوال فى إسبانيا(٤).

إسبانيا تلك التى كانت تحت حكم الإمبراطور لم تكن هى التى كان قد تركها القائد الغرناطى أيام شبابه.

ولنتصور الأسئلة التى كانت تستهوى القائد العجوز وإجابات الكاهن المبجل التى لم تكن أقل إثارة.

وقد انعقدت تدريجيا صداقة أثقلتها الذكريات، مما جعل الاثنين يقومان ببعض الإشارات خارج المألوف. وهكذا فقد سمح المنظرى للكاهن بزيارة السجون عندما يريد ذلك، بل وأذن له بشىء أكثر من ذلك حيث سمح له أن يقيم قداساً فى المكان الذى كان يقيم فيه المبشر لكى يمنح الأسرار الكهنوتية للأسرى. وهو إجراء غير عادى، ذكره دييغو دى تورس بعد ذلك بقرن تقريباً كشىء معجز فى كتابه "تاريخ الأشراف..."(٥).

ولم تنته هنا الإيضاحات القيمة التى قدمها المنظرى إلى الأب كونتريراس، ولكنها أسهمت فى افتداءات الكاهن بطريقة غير عادية.

وقد اضطر الأب كونتريراس أن يظل في تطوان منتظراً المال الذى سيرسلونه إليه من إشبيلية وقد أدرك أن مشكلاته قد ازدادت، إذ إن عليه أن يساعد كل الأسرى المفتدين فى تلك الأثناء. وقد أمر المنظرى أن من يستطيعون العمل فسيحصلون على أجرهم اليومى فى الأعمال العامة وأن على النساء أن يقمن بالخدمة بهدف الحصول على قوتهن وقوت أولادهن، أما بالنسبة إلى الذين تم افتداؤهم من مدينة تطوان فقد أمر رؤساءهم القدامى أن يعاملوهم بالحسنى كرجال أحرار.

وإلى جانب أن العبد كان يعتبر بضاعة وأنه ينبغى ألا يؤذى، فهنا هم عبارة عن عبيد قد أطلق سراحهم وبالتالى تكون مسئولية تلك "البضاعة" مناطة فقط بالشخص الذى كان قد اشتراهم وهو فى هذه الحالة الأب كونتريراس. وقد ترجع تلك الأمور إلى مشاعر المنظرى الإنسانية، وبالإضافة إلى ذلك فقد قام بمساعدة المبشر بكل الوسائل المتاحة.

تلك المشاعر التى كان قد مضى زمنها فى تلك الأوقات قد خلقت ميلاً كبيراً للأب كونتريراس نحو القائد الغرناطى، فكان يزوره كل يوم. تلك الزيارات التى كان ينتظرها القائد العجوز الذى من المحتمل أنه كان بمعزل عن العالم الخارجى فى هذه الفترة من حياته.

بل إنه يزيد من إيضاحاته القيمة، حيث إنه فى إحدى المناسبات أقرض المنظرى ثلاثة آلاف دوقية للمبشر، ويظن الأب أراندا أن كونتريراس قد استدان مبالغ أخرى كثيرة فى المصاعب المتتالية التى تعرض لها لكى يفتدى أكبر عدد ممكن من أولئك البؤساء.

وكان كونتريراس يراقب الغرناطى وكان كثيراً ما يشعر أنه لم يكن مجرد مرشد مسلم يسهل له الأمور فى عمليات الافتداء، بل كان الأخ الإنسان ذا الشخصية العظيمة وصاحب الفضائل الكثيرة التى تقربه من النموذج المسيحى المثالى الذى كان هو نفسه يمثله.

وبالنسبة إلى الكاهن فلم يكن لديه إلا مخرج واحد إزاء ذلك، فكان عليه أن ينقذ تلك الروح حاملاً إياها إلى الطرق المناسبة.

وقبل أن يخرج من تطوان فى شهر نوفمبر من عام ١٥٤٠، اجترأ كونتريراس على أن يحضه بشدة كى يعتنق المسيحية.

الصحيح أن المنظرى نفسه تناول تلك المسألة متحدثًا عن الدين، وكان رأيه بموضوعية أن المسلم الصالح ليس هو الذى يتنكر لدينه ويرتد إلى المسيحية، وكذلك ليس المسيحى الصالح هو الذى يقوم بنفس الشىء، ومع ذلك كاد كونتريراس أن يقنع القائد الذى وعده أن يصير مسيحيا حيث طلب منه أن يشرح له تدريجيا تعليمات وأسرار شريعة المسيح، وخصص له أوقاتًا وساعات كى يستطيع أن يراه كل يوم وأن يتكلم بتأنٍ عن تلك المسألة.

ونحن نتساءل ما إذا كانت لدى المنظرى النية فى أن يرتد كما كان كونتريراس يعتقد ذلك، أم أن الحقيقة هى أنه كان يريد أن يتحدث مع المبشر لكى يقطع عليه تلك الوحدة النفسية التى كان يعيش فيها. ومن ناحيته كان الأب أراندا يرى أن القائد التطوانى كان يفكر فى أن يتنصر ولذلك السبب كان يقرض تلك المبالغ المالية كونتريراس بهدف أن تكون له وسيلة معيشة عند انتقاله إلى الأرض المسيحية.

ويبدو لنا أن هذه مبالغة فى الشك والافتراض، حيث إن المشاكل التى كان سيتعرض لها الغرناطى لم يكن يجهلها كونتريراس.

ولم تكن هناك عقبات مانعة أمام خيال كونتريراس الرائع وكان يبدو له أن هدفه قد بلغ الغاية التى كان يتمناها.

وبما أن إقامته فى تطوان قد امتدت أكثر مما ينبغى فقد طلب خوان دى إيرارا منه فى نهايات نوفمبر أن يسرع بالذهاب إلى ذلك الموضع البرتغالى لكى يبحر ومعه الفدية.

وتقريباً غادر الكاهن الطبيب تطوان رغماً عنه معتقداً أن عملية تنصير المنظرى قد أصبحت ناضجة.

وفاة المنظرى

اعتقد كونتريراس أنه بكل تأكيد حينما يرجع سريعًا فسوف يتمم عمله الطيب بدخول القائد فى المسيحية.

ولم يتم الأمر هكذا، حيث إنه فى نهايات إبريل أو فى بدايات مايو من العام التالى ١٥٤١ رجع إلى تطوان وعلم مع بالغ الأسى أن المنظرى كان قد مات.

وقد حدثت وفاته طبقًا لهذه الشهادة الموثقة فى الفترة ما بين شهرى ديسمبر من عام ١٥٤٠ وإبريل من عام ١٥٤١(٦).

ومن المحتمل جدا أن المنظرى قد بلغ الثمانين عامًا أو جاوزها طبقًا للمعلومات التى نستطيع أن نعتمد عليها حتى الآن. وطول العمر هذا هو الذى حيَّر بعض المؤرخين سواء من اشتغلوا بالتاريخ المحلى أو العام، إلا أن توضيح هذه النقطة يحل لغز إحدى أكثر الفترات غموضا فى تاريخ تطوان.

إن القائد العظيم، مؤسس تطوان، المحارب البارز والمقاتل المتمرس الذى كان على رأس المهاجرين الغرناطيين إلى شمال المغرب والسياسى البارع والحاكم الشهير، أثبت حتى آخر يوم فى حياته عظم الروح السامية التى كونت شخصيته.

وقد مات مؤمنًا بالعقيدة التى كان يعيش من أجلها مظهراً فى الوقت نفسه أنه كان مرآة لبعض القيم الأخلاقية فى أى دين والتى توضح قبل كل شىء قيادته الممتدة التى لم يجرؤ أحد فى حياته على أن يتصدى لها.

إن وصف آخر أيامه الذى قام به الأب أراندا بكل إعجاب واحترام يقوى نظريتنا فى أنه لم يكن هناك أكثر من قائد وحيد وعظيم هو المنظرى أبو الحسن على المنظرى الغرناطى التطوانى.

وعلى مدى أكثر من نصف قرن تولى قيادة المدينة التى أسسها أو التى أعاد بناءها . وقد وقعت أحداث عظام فى ذلك النصف قرن، قام بها شخصيات كبيرة فى المنفى بالكاد وقد أهملها الزمن وغطت عليها الظروف وكانت لها أصداء خافتة فى الأرض التى دُفن فيها.

والوطن الذى ولد فيه وقضى فيه مراحل طفولته وطموحاته فى الشباب نسيه سريعًا، هذا إن كان قد تذكره فى مرة ما.

ونعتقد أن المنظرى- كرمز لشخصيات إسبانية هاجرت عبر تاريخنا- لا يستحق فقط احتراما كبيراً، بل يستحق ذكرى مثيرة للمشاعر تضعه للأبد فى الصفحات التى سطَّرها أسلافنا أو التى كتبت عنهم.

الخلفاء الذين أعقبوا المنظرى: ست الحرة

فى الوقت الذى مات فيه المنظرى كان قد خمد نشاطه فى ميادين الحروب منذ سنوات كثيرة، ومن المحتمل أنه كان كذلك فى إدارة شئون المدينة.

أما زوجته ست الحرة ابنة بن راشد فكانت تحمل على عاتقها إدارة الشئون الداخلية التى لم تكن تستلزم أسلوبًا خاصا أو معرفة مختلفة عما هو معتاد، وبالنسبة إلى هذه للأعمال التى تستلزم أسلوبًا خاصًا – مثل إعداد أفضل تحصين للمدينة – لذلك كان أخوها محمد إبراهيم يقرر ما هو مناسب ويرسل خبيراً فى هذا الموضوع .

وكما رأينا فى حالة المنظرى، نستطيع أن نؤكد أنه لم يقم أحد بالبحث فى موضوع زعامة محمد إبراهيم أثناء حياته . كان يحكم الدولة من مدينة فاس وكان يقوم بتجميع السلطات، على الرغم من أن موته المبكر حال دون أن نعرف ما إذا كان سيبلغ أكثر أو أقل مما كان يحلم به.

إن هذا الوضع للوزير المتمكن الذى كان يحكم إقطاعيته فى الشمال عن طريق أخته والشبح البطولى لصهره - وقد امتد حكمه عشرة أو خمسة عشر عاما أو أكثر- ربما كان هو السبب الرئيسى فى حيرة المؤرخين.

إن التسلسل الزمنى الدقيق لاختفاء المنظرى والذى لم يتوافق مع غروبه السياسى قد شكل ستاراً كثيفاً من الضباب حال دون إدراك الأحداث بشكل واضح.

ويبدو أن المنظرى كمحارب لم يذكره المؤرخون فى ميادين الحروب منذ عام ١٥١٨ ولم يذكروه بعد ذلك، ومنذ ذلك الحين أغفلت الكتابات التاريخية البرتغالية هذا القائد العجوز. إنها كتابات يمكن الاعتماد عليها بقدر قربها الزمنى والمكانى من الأحداث التى كانت ترويها.

ومع ذلك ولحسن الحظ فلدينا تلك الشهادات الخاصة بافتداء الأسرى فى عام ١٥٢٣ وحتى موته وكذلك كتاب الأب أراندا الذى كان يسرد فيه موته عام ١٥٤١ .

ورغم أن فترات كثيرة من حياة المنظرى اتسمت بالغموض، فإن الذين تابعوا وفاته أوضحوا لنا أسباب الارتباك عند المؤرخين.

وكذلك لم تقدم الوثائق القليلة التى تم نشرها فى .S.I.H.M شيئًا كثيراً حول ذريته وحول الدور الذى قاموا به فى حكم تطوان.

سنحاول ذلك قدر الإمكان مستعينين بالمصادر والمعلومات المتاحة لدينا، وإن كانت قليلة لسوء الحظ.

ومن المناسب قبل أن نواصل كلامنا أن نذكر أنه حين موت المنظرى لم يكن صهره محمد إبراهيم على قيد الحياة، وقد مات فى شهر سبتمبر عام ١٥٣٩(٧) .

ولذلك فإن أخته ست الحرة لم تكن تعتمد على التأييد الأخلاقى والمؤثر الذى كان يمثله أخوها.

ويقـول الأب أراندا أن كـونتـريراس قد بكى لفـقـدان القـائد بصـورتيـه هنا، وهى انتهاء الحياة وفقدان الخلاص الأبدى الذى كان يسـعى إليه، لكن مكانته عند المنظرى جعلت حفيدا له يدعى حسن يستمر فى مساعدته بقدر ما كان يفعله جده. وقد تصرفت أرملة للمنظرى بالطريقة نفسها، إذ قدمت له الهدايا واحترمته كما كان يفعل زوجها(٨) .

وبالتالى فإن حسن بالنسبة إلى الأب أراندا هو حفيد المؤسس. وما لا يوضـح لنا هو ما إذا كان حفيدا من جهة القرابة أو بالمصاهرة.

أمـا أن يطلق حسن على نفسـه أنه حفيد المنظرى فذلك شىء يمكن تفسيره، فهو بسبب النفوذ الكبير الذى بلغه الغرناطى فى حياته. ولقد حصل ليون الإفريقى على هذه المعلومة ثم نقلها إلينا. وبالتالى يبدو أننا قد حصلنا على خليفة المنظرى.

لكن الأحداث لم تمر على هذا النحو ويجب أن نوضح ما قد حدث. إن الشخصية التى وضعت على رأس الحكم فى المدينة كانت الحرة وليست حسن. وكان حسن زوجًا لابنة الحرة وكان أحد النبلاء الغرناطيين الذين أقاموا فى تطوان. وبصفته هذه فى كلتا الحالتين اضطلع بدور مهم فى أعمال المدينة، وكان يتقاسم السلطة مع أم زوجته قبل موت المنظرى.

ولدينا وثيقة نستطيع أن نستنتج منها هذه الأحداث، ففى رسالة كتبها سباستيان دى بارغاس وأرسلها من مدينة فاس إلى خوان الثالث فى السادس من ديسمبر ١٥٤٠ يتناول فيها حادثًا خطيراً تمثل فى اختفاء ثلاثة من التطوانيين أوصى سباستيان بعقد لقاء "مع محمد حسن صهر ست الحرة ومعه بعض من أشراف تطوان"(٩).

وفى رسالة أخرى إلى كونت فيميوسو فى ٢٠ من أكتوبر عام ١٥٤٢ أكد بارغاس على قرابة حسن كصهر للسيدة الحرة(١٠).

إذن يمكن اعتبار هذا الصهر ابنًا بالتبنى ولا يمكن اعتباره حفيداً. اللهم إلا إن كان متزوجًا ليس من ابنة المنظرى بل من حفيدته، وهذا هو ما جعلنا نرتاب من فقرة فى الرسالة التى وجهها السفير لورينثو بيريث دى تابورا إلى ملكه خوان الثالث

والمؤرخة فى تطوان فى ٢٦ من يوليو من عام ١٥٤١ . فى تطوان كان ملك فاس الذى ذهب ليتزوج من الحرة ينتظره.

" quero começar esta com dar conta a V.A. de como ja estou neste Tutuao, pera onde parti d Arzila a XI de julho, em companhia d um filho de Hacem, que estava por alcaide de Tetuao, ao qual el Rei mandou com des de cavalo pera me trazer,e ha entrada d este lugar mandou o alcaide seu pai e o filho d Almandarim,que agora he seu enteado,com gente de cavalo que me sahirao a receber"(١١).

وتلك كانت المرة الوحيدة التى ذكر فيها ابن للمنظرى. فهل كانت هى المرة الوحيدة كذلك بالنسبة إلى الحرة أو إلى المرأة الغرناطية؟

والآن ينبغى أن نكتفى بهذه الفرضية. فما يبدو أنه الأكثر صحة بالنسبة إلى الوقائع ويتفق مع المصادر المعروفة هو أن حكم المدينة قد امتد على يدى أرملة المنظرى، وقد ساعدها حسن، المعروف لدى البعض بصهر المنظرى أو حفيده عند البعض الآخر.

هناك شىء أكيد: وهو أن حسن لا ينتمى إلى عائلة المنظرى الغرناطية.

-وكان آل حسن ينتمون إلى باشا، وهو ما يقوى فرضية قرابة المصاهرة لا قرابة الدم بمؤسس تطوان(١٢).

وإذا كان لدى المنظرى ولد أو أولاد ذكور، كما تبين ذلك رسالة تابورا، فلا نعرف لماذا لم يخلفوا حكم أبيهم ولم يظهروا فى ميادين الحروب، وهو شىء كان سيسجله المؤرخون البرتغاليون.

وربما كان لشخصية ست الحرة المسيطرة والطموحة علاقة بجوهر المسألة.

لم تكن الإشارات إلى السمات الحيوية لابنة بن راشد قليلة فى رسائل بارغاس إلى خوان الثالث. يستنتج من تلك الإشارات ومن رسائل تابورا أو من رسائل ألفونسو

دى نورونيا قائد سبتة الشىء الحقيقى؛ وهو أن ست الحرة بالفعل قد حكمت تطوان بعد موت زوجها.

ومن الطبيعي أن ذلك قد عرقل خطط شخصيتين محيطتين بها وعرقلت الباقين بدرجة أكبر.

كان حسن أحد الشخصيتين و قد فشل جهده فى السيطرة الكاملة على المدينة وعلى إيراداتها المرتفعة. وكان الآخر أخاها من الأب محمد وهو أيضا بن راشد، وأمه من الأشراف. كان مهْملا أيام حكم محمد إبراهيم الذى عزله عن تولى أية مسؤولية، ونراه الآن يتحرك فى منطقة نفوذه فى الشاون وترغة، وبما أنه متمرد بشكل دائم، فما كاد أن يموت المنظرى حتى تمرد ضد ملك مدينة فاس (١٣) .

كان يريد أن يخلف القائد الغرناطى ويسترد سلطة أبيه. إن بن راشد الجديد هذا قد أفقد البلاط الملكى فى مدينة فاس صوابه، وبدأ سريعًا فى التآمر ضد أخته.

ولم يتكفل مولاى أحمد الوطاسى سلطان مدينة فاس بأرملة المنظرى فقط، بل تزوجها بعد ذلك فى غضون بضعة أشهر فى تطوان فى ٣٠ يونيو من عام ١٥٤١(١٤).

وهذا الزواج قد مكن للحرة بشكل أكبر فى السلطة التطوانية.

وكان هذا الزواج بالتأكيد مؤجلاً لسنين طويلة إلى حين موت القائد الغرناطى، فجاء ملبيًا لأهداف سياسية وعاطفية، حيث نذكِّر بأن محمد إبراهيم كان قد تزوج من إحدى أخوات السلطان ولا بد أن السلطان قد ملَّكه لمكانته تلك. ومن جانبها كانت ست الحرة تمثل عونًا معنويا وماديا كانت الأسرة الضعيفة تحتاج إليه.

ولقد ترك مولاى أحمد زوجته فى تطوان وعهد إليها حكم المدينة(١٥) .

إذا كان فى حاجة إلى مساندة، فها هو قد حصل عليها. كانت ست الحرة تحكم فى كنف الزوج والأخ، أما الآن فتستطيع ذلك من خلال ملك مدينة فاس ذاته.

ولا يوجد فى تاريخ تطوان حالة مثل حالة ست الحرة. إنه من الغريب ومن غير المألوف أن تُرى امرأة تحكم. علاوة على ذلك فكانت تمتلك قوة وصفات غير عادية فى ذلك العصر.

ولم يقلل الأعداء البرتغاليون من انتقاداتهم إلى الحاكمة الجديدة لتطوان.

وكان بارغاس المندوب البرتغالى يكيل لها السباب فى رسالة وجهها إلى قائد سبتة البرتغالى ألفونسو دى نورونيا فى ٣٠ من أغسطس من عام ١٥٤١ . نتخير منها بعض العبارات الحانقة.

Tudo o que sab?amos que Citalhorra he tao prevenida que nada le ficca no tynteiro

وفى الواقع فإن ذلك ثناء على السيدة الشهيرة.

..."nao ffez justiça,em Tutao nem em todo este caminho d estes campos".

إن ملك فاس:

" ssempre deu muito crredito a Alhora, polo muito que lhe peitavo, quanto mays agora que he sua molher".

"Na cobiça e avereza sao seus derradeiros cuydados". "... de Alhorra se nao queixase mays a el Rey que nehuum rremedio tynha", "ìe forte cousa hua pesoa como a vossa rreceber tamtas avexaçoes e enjurias de hua molher ìaffora de ser menoscabo que Cristaos a Ceita sejao suditos de hua molher...".

وقد اختتم رسالته ناصحًا إياه أن يغلق الحدود مع تطوان كي يلقن ست الحرة درسًا قاسيًا(١٦).

وقد مر بارغاس والبرتغاليون المهتمون بالأمر بأوقات عصيبة مع تلك المرأة التي كانت على رأس التطوانيين.

وكان المندوب البرتغالي يشكو مرات عديدة من أن الحاكمة كانت تفتح الرسائل التي كان يرسلها له الملك وكانت تمر عبر تطوان وكذلك الرسائل التي كان يرسلها هو.

"Per Ceita ja no ouso espriver, porque em Tutuao abrem minhas cartas, e ja m o ffizerao vezes, e mei queixey qua d iso nao ouve emmenda".

كتب ذلك في منتصف عام ١٥٤٢ في ٩ من يونيو من مدينة فاس إلى ملكه خوان الثالث[١٧].

وقد يئس نورونيا قائد سبتة العام في معاملاته مع حاكمة تطوان وقد أغلق الحدود مرات عديدة مانعا عبور التجارة بين المنطقتين، وهو ما قد أضر بكلا الجانبين. وكانت الحرة تتظاهر بأن ملاحي قواربها من الأتراك، وطالبت بالفدية المناسبة للأسرى المقبوض عليهم، بينما تذرع نورونيا بالهدنة المعقودة ورفض أن يدفع شيئًا. وذات مرة وبناء على طلب ملك فاس، أرسل بارغاس من أجل عقد المصالحة وفتح الحدود وقد نجح في ذلك، وقد أخبر ملكه بعد ذلك في رسالة وجهها له من سبته في ٨ سبتمبر من عام ١٥٤٢:

"Senhor vym a Tutuao e a Ceita, e Jaco Rute comigo.Ficao muy amigos D. Affonso e Cyte al Horra, mas ella depoys d amizade comsemtio,os navios dos Turcos entrarem em seu rio... He molher muy belicosa e mal asosegada em tudo"[١٨].

وكان نورونيا محقا في ذلك، حيث كان قد عقد اتفاق سلام بين لشبونة ومدينة فاس لمدة أحد عشر عامًا في مايو من عام ١٥٣٨[١٩].

ولسوء حظ السيدة المبجلة كان أقاربها – الذين يشكون من تصرفاتها، وربما الذين أزعجهم نفوذها – هم أول من تآمر للإطاحة بها.

وكان أول هؤلاء هو أخوها غير الشقيق محمد بن راشد الذى طمح إلى حكم تطوان لكنه لم يبلغ ذلك، وكان محرضًا أحيانًا خفية، وأحيانًا كان متمردًا بشكل ظاهر، وهو من كان يلقى القبض على أى مسيحى غير حذر، يبتعد عن القلاع الساحلية وكانت لديه سجون فى ترغة مكتظة بالمسيحيين الذين كان ينقلهم تدريجيا إلى مدينة الجزائر لكى يبيعهم فى ذلك السوق[٢٠].

وكانت الحرة تستنكر تلك الأحداث التى تعتبرها منافسة لها فى أعمال الافتداء تلك، إذ كانت مصادر نفع كبيرة بالنسبة إليها.

وفى ١٨ أغسطس من عام ١٥٤٢ أخبر نورونيا ملكه بأشياء كثيرة من بينها:

"que pelos cativos que d aquy aguora ha hum ano cativaram,leva Citiforra dous mil e seiscentos cruzados, imda a roguo de Comtreras,que nam queria menos de tres mil"[٢١].

وهو أيضا ما أدانه أخوها غير الشقيق.

إنه لمن المنطقى الافتراض أن الزعماء التطوانيين كانوا منزعجين بنفس الدرجة وكان على رأسهم حسن الذى كان يرى الثروات تذهب من أمام عينيه وأن تلك المرأة الطامعة استولت عليها وأنها كانت تحمل نصيب الأسد فى تكلفة الافتداء.

وكتب بارغاس: "إن ست الحرة وأخاها محمد بن راشد كانا أعداء"، وبالفعل كان كل من يحيط بها أعداء لها.

وهبت العاصفة فى ٢٢ من أكتوبر من عام ١٥٤٢ . حيث هرب والد حسن الذى كان مستاء من ملك مدينة فاس وكذلك هربت معه أسرته وبعض الفرسان. ووصل إلى تطوان حيث كان هناك ولده وآخرون معه فأطاحوا بست الحرة وطردوها من تطوان وصادروا كل ثرواتها[٢٢].

وإذا ما اعتبرنا أن المنظرى قد مات فى ديسمبر من عام ١٥٤٠ فقد استمرت ولاية أرملته اثنين وعشرين شهراً ولم تصل حتى سنتين.

وهى فترة طويلة إذا وضعنا فى الاعتبار عزلتها السياسية، ومن ناحية أخرى طبيعتها التى أثارت ضدها الكثير من القوى العدائية بما فى ذلك قوى عائلية.

وبالتأكيد أنها قد توجهت إلى الشاون بعد أن طُردت من تطوان حيث سقاها أخوها غير الشقيق من كأس المرارة.



مسجد – ضريح سيدى على بن راشد مؤسس مدينة الشاون.

ولم يعد أحد للحديث عنها مرة أخرى ولا نعتقد أن حياتها - التى تعرضت لهوان مستمر بسبب العزلة - قد طالت، وسيكون مصيرها مختلفاً تماماً عما كانت قد تمتعت به حتى ذلك الحين.

هناك ضريح فى الزاوية الريسونية فى الشاون، يقال إنه يحوى رفات ست الحرة السيدة المبجلة أميرة الشاون، وعلى فرض صحة هذه الرواية فإن الناس كانوا بالقلعة التى كان أبوها قد أمر بتشييدها وكانت الأساس للمدينة، مدينة الشاون العظيمة، مدينة أشراف جبل علم، والتى يحفظ ذكراها حتى الآن شارع فى المدينة العتيقة . إنها على وجه الخصوص مدينة سيدى على بن راشد "المجاهد" الكريم فى شمال المغرب الذى دُفن على أبوابها.

القائد أحمد حسن :

حسن الذى يظهر اسمه فى الروايات والأخبار التاريخية مكتوباً بأشكال مختلفة - كان الخليفة الثانى للمنظرى فى حكم تطوان ومحيطها، وذلك إثر ثورة صغيرة قام بها أفراد من حاشية البلاط الملكى مُنعت خلالها ست الحرة من القيام بمهامها فى ٢٢ أكتوبر من عام ١٥٤٢ .

وكان حسن العجوز هو المسئول الرئيسى لتلك الثورة، ذلك الانقلاب الذى تم بدون إراقة دماء، لكنه كان غاضباً من الوطاسى فهرب من مدينة فاس وقاد جماعة من الفرسان فى مدينة تطوان.

لا نعرف تفاصيل أخرى عن هذا الحدث فى حد ذاته، ولكن نعرف فقط أن فترة حكم حسن قد بدأت منذ ذلك الوقت. ولكن أىُّ حسن؟ أذلك الذى جاء من مدينة فاس أم ذاك الذى كان مع الحرة التى كانت أم زوجته فى تطوان؟ أهو العجوز أم الشاب؟

يبدو لنا من ناحية أن هناك إشارات كافية تدل على أن الشاب هو الذى تولى موقع القيادة. فمعرفة كونتريراس لحسن هذا قبل التمرد وبعده في عام ١٥٤٢ دون أن يخبرنا أن من كان يعاملهم كانوا مختلفين. وتتفق تسميته بحفيد المنظرى مع ليون الإفريقى.

ومن جانب آخر توجد هناك أدلة مقنعة إلى حد كبير تجعلنا نميل إلى حسن العجوز: إعلان أنه ينتمى إلى باتًا أى أنه ينفصل عن المنظريين الغرناطيين وفى نفس الوقت اعترافه بأنه يتقدم فى السن . وفى إحدى مذكراته ألمح كونتريراس أخيرًا إلى أن حسن هو الذى جاء من مدينة فاس وقام بطرد زوجة الملك من تطوان.

إن عدم ذكر ست الحرة ولا المنظرى مرة أخرى، لن يثير قضية صلة القرابة بين حسن الحاكم وهؤلاء، وسنبقى على باقى الاحتمالات حتى ظهور وثائق جديدة.

وسوف يأتى ذكر أولاد حسن فيما بعد ، بمن فيهم ابن متقدم فى السن يخرج ليقاتل مع محاربى المدينة. هذه الإشارة لا توضح لنا شيئًا.

ولم يكد حسن يتولى منصب الحكم فى تطوان حتى تحالف مع بن راشد الذى كان هو الآخر مستاء من السلطان وفى مواجهة معه.

وسيتخذ كلا القائدين هذا الموقف لعدة سنوات معترفين أحيانًا بالشريف، عدو الأسرة المالكة فى مدينة فاس، وأحيانًا بوقف النشاط وكانا طامحين دائمًا نحو استقلال أكبر من الذى كانا يتمتعان به بسبب الفوضى التى كانت تسيطر على البلاد.

إن سيرة الأب كونتريراس الذاتية تمدنا بمعلومات كثيرة عن الأيام الأخيرة للمنظرى، حيث يقص علينا نوعًا من القصص الخيالية لبعض السنوات، إذ تدلنا بعض مذكراته ورسائله على الصلة التى كانت تربطه بالقائد حسن.

والحقيقة أن بعض ما كتبه المبشر مذهل ولا نعرف هل ننسب أخباره إلى شيخوخته أو إلى مخيلته أو إلى حماسه.

وما يدهشنا أكثر هو أن القائد حسن يبدو أنه قد تابعه فى هذيانه، مما يجعلنا تفكر حول خلفية الحقيقة الكامنة وراء الخطط التى حاكها الاثنان.

ولنرى المصادر الوثائقية التى تتضح من خلالها أدلة وبراهين تجعلنا نميل أكثر إلى موضوعية العرض.

وتمتد الرسائل والمذكرات والعلاقات من الأخبار عن حسن منذ عام ١٥٤٥ وحتى عام ١٥٤٩ . لن نورد أخباراً خيالية أخرى يقدمها الكاهن، بل نقتصر فقط على ما يتعلق بالقائد حسن، أما مجموع ذلك فيستلزم دراسة أخرى منفصلة.

وكتب الأب كونتريراس فى شهر أبريل من عام ١٥٤٥ ثلاث رسائل ومذكرة. وجهت اثنتان منهما إلى الأمير فيليبى، ووريثُ كارلوس الخامس، أما الرسالة الثالثة والمذكرة فقد أرسلهما إلى كاردينال طليطلة.

وهكذا نجد مشروعًا قائمًا بالغ الأهمية بحيث لا يمكن عرضه دون مقدمات. ومع ذلك فإن هذه المقدمات لا تظهر على شكل وثائق، وينبغى علينا أن نكملها حيث لا يوجد شيء الآن.

وبالتالى نعتقد أن المبشر كانت له صلات مع حسن منذ أن تولى حكم المدينة ليس فقط لأمور تخص الافتداء، وهو الأمر الذى أورده الأب كونتريراس فى كتابه، بل لكى يخطط لتحركات مستقبلية يظهر فيها حب القائد الشديد لإسبانيا. وينبغى أن يكون هذا القائد وكونتريراس على علاقة فى المجال السياسى منذ عام ١٥٤٣ .

وفى رسالة وجهها الراهب إلى الأمير فيليبى حثه فيها أن يقترب شخصيا من جنوب إسبانيا ليكون على مقربة من المغرب.

" تعال، تعال، تعال يا صاحب السمو إلى إشبيلية أو إلى أندلوثيا فإن هؤلاء المسلمين جميعًا هم ملك لك".

الاقتراب الذى طلبه .ى الرسالة التالية كان أكبر: كان هو الوصول إلى مضيق جبل طارق. حينئذ سيستسلم المسلمون دون قتال.

وقد اقترح القائد أن يُرسل إليه السيد برناردينو كى يعمل ما يناسب عمله. وبرناردينو هذا من عائلة مندوثا ابن السيد إنييغو القائد العام الأول لمملكة غرناطة.

وقد قاد برناردينو الأسطول الذى كان يراقب مياه مضيق جبل طارق. وكان حسن مصرا على التعامل معه. وفى نفس التاريخ فى أبريل من عام ١٥٤٥ أرسل كونتريراس رسالة أخرى من تطوان إلى باردو دى تابيرا كاردينال طليطلة وكان رئيس مجلس قشتالة حينذاك قد حثه - بأمر من القائد - على أن يتخذ قراراً: إما أن يكف عن ذلك أو أن يكمل مشروعه، أو أن يأتى للمساعدة ويستحوذ على تلك الأرض جميعها "فهى متاحة، ومنها ينطلق إلى الأمام حتى جبال كارلوس وجبال نيغروس حيث يوجد الذهب..."

على الأقل كان الرجل تائهاً. وتستمر الرسالة فى سرد محادثاته مع حسن الذى كان يكرر: "فبعد ذلك ليأت مبعوث ويتم أفضل اتفاق معه".

وأحياناً كانت تذكر كلمات التطوانى بالنص: "إذا ما تم ذلك (الاقتراب من مضيق جبل طارق)، فسيمتلك كل شىء، وما عليه إلا أن يتكلم مع ذلك البرتغالى"، ويشرح كونتريراس أن القائد يتكلم هكذا وأنه يفهم القشتالية جيداً، "على الرغم من أنه سيكون أفضل إذا كان" الذى جاء ليعقد اتفاقية معه يعرف العربية (وقال مرة أخرى ليأتِ الذى سيعقد المعاهدة بعد ذلك أو ليكن السيد برناردينو لأن والده كان يعرف أباه) واستمر الحوار بين المبشر وبين الموريسكى فى محادثة جديرة بأن تدرج فى أفضل أعمال لوبى.(*) إن الحقيقة دائماً تفوق الخيال.

(*) كان الكاتب المسرحى الإسبانى لوبى دى بيغا يسخر من الأخطاء اللغوية التى يرتكبها بعض الموريسكيين حين يتحدثون الإسبانية. (المراجع)

ولنتابع مذكرات الأب كونتريراس ونحاول أن نوجزها لأنها تستلزم فصلا طويلا.

وقد عرض القائد ثلاثة خيارات عن طريق الكاهن:

أ) أن يعتبره الإمبراطور من رعاياه.

ب) أن يوفر له قوة يستطيع بها أن يستحوذ على مملكة فاس فى غضون شهرين، أو

ج) أن ينقله الإمبراطور إلى الشرق.

ولكى يتم الاتفاق بشكل أفضل فعلى الإمبراطور "أن يأمر السيد برناردينو أن يأتى ومعه اثنتان أو ثلاث من السفن الحربية".

ويشرح حسن استياءه: "يريد ملكه أن يدمره وأن يذبحه هو وأولاده، لأنه جاء إلى هنا بعد أن طردته زوجته، ولكنه فعل ذلك لأن الملك (الإسبانى) قد أعطاه ثلاث وثائق لتنصيبه هنا فى تطوان" ولم يف بذلك واعتقد أنه من الأفضل أن يكون قائدا وليس امرأة.

ويتساءل كونتريراس: "ماذا سنفعل مع بن راشد؟ فأجاب حسن إنه تحت تصرفى وأستطيع أن أفعل به ما أريد" وكرر أنهما سيسلمان المملكة فى غضون شهرين.

وقد اكتشف الكاهن مشروعًا آخر يتعلق بمنجم وببعض الكنوز وسيتحدث عن القائد، بل سيجعل القائد يتحدث، فنقل مجموعة الحوارات التى يتمنى قصاصو الموضوعات الموريسكية أن يكتبوها.

من قراءة هذه المذكرة، لا يُعرف ما إذا كان المبشر مذهولا أم متحمساً، وكذلك ما إذا كان هناك شيء من الصدق فى تأكيداته أم كانت كلها من نسج الخيال.

يقول :"استعدوا للخيرات الكثيرة فسوف يتم ذلك فى غضون شهرين ... حيث إن هناك الكثير من الملوك والأمراء يريدون أن يستحوذوا على مدينة فاس ولم يحققوا ذلك أبدًا وسنكون من عداد الذين رووه...".

حتى وصل إلى أن يقول للكاردينال الذى وجهت إليه المذكرة أن يقرضه جواهره على أن يردها إليه مع الزيادة.

واعترف بأنه يمتلك العصا التى اكتشف من خلالها الثروات المدفونة "لثلاثة قادة وملك". إنها العصا السحرية التى نحتاج إليها فى أحلامنا. "هيا! هيا! هيا! فلتسرعوا".

والكاهن الطيب الذى استحثه حسن، وذلك من خلال رسائله ومذكراته، لا يعرف كيف يضفى تلك السرعة على من يراسلهم فى شبه الجزيرة، والذين اتهمهم ضمنيا بالتقصير عندما كتب: "لا يوجد هناك من أجابنى على مدى عامين...".

وندرك من خلال هذه العبارة أننا كنا على حق فيما ذكرناه عن الموضوع الذى يعود إلى عام ١٥٤٣ وهى السنة الأولى التى تقلد فيها حسن حكم تطوان.

وكتب إيرناندو دى لا تورِّى كاهن كاتدرائية إشبيلية فى نهاية إبريل من عام ١٥٤٥ إلى كاردينال طليطلة ينصحه بخطة كونتريراس.

وبعد ذلك بأيام قليلة، فى ٨ مايو من نفس العام، توجه كاردينال طليطلة إلى قائد ليون مصطحبًا معه رسائل ومذكرات كونتريراس قائلا له: "رغم أن الأشياء التى قالها لا تستند إلى أدلة قوية"، فإنها يمكن أن تُدرس إذا ما بدا لكم ذلك فى مجلس الحرب، وكتب إلى المبشر فى آخر الأمر "حتى لا يتم البدء فى المحادثات التى لا تناسب وبدون ترتيب أو إعداد بحيث يمكن إتمامها فى الوقت الحاضر"(٢٣).

كان الرد الرسمى هو الذى يضيِّع أية فائدة من مبادرات الأب كونتريراس والقائد حسن أيضا.

وكان هو نفسه لا يعرف الآراء التى يساندها الإسبان أصحاب المقام الرفيع بخصوص اقتراحات الأب كونتريراس، ولم يتراجع عنها وكان هو أكبر مؤيد لتحقيقها وذلك من خلال ما يستنتج من كتاباته.

وبعد قليل من مراسلة الكاهن، وجه القائد رسالة قصيرة إلى الأمير فيليبى "أقول من خلال رسالتى هذه إنه كما كان آبائى يخدمون الملوك الكاثوليك، فهكذا أنا فى خدمة جلالتكم وسموكم".

وأرسل إلى إسبينوسا حامل الرسالة كى يخبر الأمير شفاهة بالمقترحات التى تهمه. تلك المقترحات التى سيعود كونتريراس ويكررها فى رسالة أخرى إلى الأمير فيليبى وهى الرسالة التى صاحبت رسالة القائد. وكانت نفس المقترحات التى تقدمت:

١) أن يصنعوا له معروفا، ٢) أن يعطوه الأمان، ٣) أن يرسلوه إلى الشرق.

وكلتا الرسالتين بتاريخ ١٧ أغسطس من عام ١٥٤٥ فى تطوان[٢٤].

الزيارة الأخيرة التى قام بها كونتريراس إلى تطوان كانت فى العام التالى. ومن المحتمل أن يكون المبشر قد فهم ذلك هكذا بسبب سنه لأن نفس الشىء الذى حاوله مع المنظرى أراد أن يكرره مع خليفته حسن ودعاه لأن يتنصر. ولكن الموريسكى وقف بشدة ضد تلك المطالب مما جعل الكاهن يكف عن ذلك[٢٥] .

ومع ذلك، وطبقًا لسيرة كونتريراس الذاتية، فقد ظل حسن يساعد كونتريراس وظلت صداقتهما وقد مال إلى ما هو إسبانى.

وبعد ذلك بثلاث سنوات كتب أحمد حسن إلى الأمير فيليبى معزيًا فى وفاة كونتريراس[٢٦].

وكان كونتريراس قد قام بتوديع القائد فى صيف عام ١٥٤٦ مفتديًا فى تلك المناسبة عددًا كبيرًا من الأسرى[٢٧] .

وإلى هنا ينتهى الجزء الخاص بالأب كونتريراس وليس من السهل أن نقيم حدا فاصلا بين ما هو خيالى وما هو واقعى.

لقد قرأنا "قلة الوثائق" فى خطط كونتريراس كاردينال طليطلة، ومع ذلك فهناك وثائق أخرى فى تلك الأعوام يبدو أنها تميل إلى آراء مماثلة.

هذا ما يبدو لنا من خلال رسالة دوق مدينة سيدونيًا إلى الأمير فيليبى المؤرخة فى سانلوكار دى بارِّميدا فى ٢٤ أبريل من عام ١٥٤٨ والتى يطلب منه "أن يأمر بالمشورة إذا ما كان من الأفضل تقديم العون إلى ملك فاس"، ضد الشريف لأنه يُخشى أن يستحوذ على فاس وتكون "أندلوثيا مجاورة له"[٢٨].

وقد طلب ملك فاس شخصيا المساندة من ماكسميليانو ملك النمسا، وقد طلب ذلك أيضا ملك بيليث المحاصر مع أحمد الوطاسى فى فاس[٢٩] وبعد ذلك بشهر فى ٣ فبراير من عام ١٥٤٩ كتب ملك بيليث إلى كارلوس الخامس منتظرًا معونته[٣٠] وقد كتب تاجر من تطوان إلى دوق مدينة سيدونيًا فى ١١ يناير من عام ١٥٤٩ يحذره من احتلال الشريف لمدينة فاس وأنه يتوقع أنه ستكون هناك كارثة ويقول فى إحدى الفقرات: (هاأنا ذا خادم جلالتكم وكان أبى كذلك عندما كانت باثا تحت سيطرة المسلمين، اسمه حسن، وهو قائد هذه المدينة، وإذا قُدمت له مساعدة فهذا سيسهم فى طرد (الشريف) من المملكة، ففى هذه المملكة ليس هناك من هو أكثر فروسية منه ولا أفضل رأيًا منه، وهو سيؤيد فاس. أريد أن أحضر إلى جلالتكم كى أقص عليكم الأشياء التى أعرفها عن هذا الرجل. أريد أن أبعد الشريف عن هذه المملكة كما يتمنى المسيحيون ذلك) ويكرر فى آخر الرسالة: "وليكن فى ذاكرتكم القائد حسن صاحب الدور المهم فى أن ينفى هذا الطاغية إذا ساعده المسيحيون"[٣١] .

كما نستطيع أن ندرك ما إذا كانت لدى كونتريراس بعض الأفكار المدهشة فإنها كانت نابعة من حواره مع التطوانى.

وقد حاول حسن بكل الطرق أن يسترعى انتباه البلاط الملكى الإسبانى حول شعوره الجيد نحو قشتاله.

ولا يختلف الأمر إذا كان من تولى السلطة فى المغرب وطاسيا أو سعديا، فقد قامت مظاهرات ضد الأول وكذلك ضد الثانى بالرغم من أن السعدى هذا بعد أن خرج منتصرًا أيده هو وبن راشد[٣٢].

ولكن حتى الآن ما زالت تكثر شكوكه حول أرباب السلطة الجدد. وقد أرسل نفس التاجر من سبتة تقريراً آخر في ٢ فبراير من عام ١٥٤٩ إلى كونت تنديا يخبره بالاستيلاء على مدينة فاس حيث اشترك بن راشد وكتب إلى صديقه حسن معلومات عن ذلك الحدث المهم(٣٣).

ولكن يلاحظ أنه لما كان بن راشد مندفعًا وكان واحداً من أوائل الذين قاموا مع قواتهم بمهاجمة إحدى بوابات مدينة فاس، فإن حسن الحذر ظل فى تطوان دون أن يشارك فى تلك الحرب الحاسمة.

ولا نشك فى أن كونتريراس بصفته الخيالية، صمم على تحقيق رغباته التى كانت - بالإضافة إلى ذلك - رغبات غالبية الشعب الإسبانى وذلك بأن يستولى على مملكة فاس بدلا من الاستيلاء على ممالك بعيدة.

ولكن ربما كان من المؤكد أن حسن- كباقى الكثير من الموريسكيين المتشوقين لوطن مختلف - شجع تلك الرغبات وساعد على تحقيقها.

وكذلك لا نعرف أى درجة من التعقُّل ممكن أن تقدمها باقى تقارير كونتريراس: عصاه التى أعطته دلالة على الكنوز، المنجم الذى اكتشفه أحد الأسرى، الحوارات الخاصة مع القائد حسن. بالإضافة لذلك، وأيضا مع صحتها، فإن بعض التفاصيل التى عرضها لم نقم بتحليلها كى نخرج من نطاق الدراسة الحالية لخليفة المنظرى.

ولم يكن أحمد حسن أول من بهرته عظمة ومكانة الملوك الإسبان فى تلك العصور، ولقد تصرف سيدى على بن راشد الشريف العظيم فى الشمال بطريقة شبيهة مع أنه لم يكن موريسكيا أو أندلسيا.

لقد تركنا بعض الوثائق والمعلومات ذات الأهمية الكبيرة.

وستمدنا سبتة بالمعلومات عن جارتها تطوان لأسباب واضحة.

أما نورونيا الذى كان دائمًا مستاءً من ست الحرة فلم يصرف نظره عن المشاكل المألوفة حينما تغير حاكم المدينة.

ولقد ورث حسن ثروة ضخمة من جراء عمليات القرصنة وخصص جزءًا كبيرًا من طاقاته للقرصنة، ومن هنا فكر أن يجهز سفنًا جديدة.

وقد أخبر نورونيا ملكه فى ١٥ يونيو من عام ١٥٤٣عن هذا الشأن. وقام "حسن" بشراء ستة أسرى من الأتراك، وكان هو نفس اليوم الذى قام فيه بتجهيز سفينتين شراعيتين وثلاثة قوارب وسفينتى استكشاف. وقد قام بغارة على جبل طارق والجزيرة بذلك الأسطول الصغير وأسر أربعة عشر رجلا. وحين العودة مروا عبر سبتة، نتج عن ذلك الحقد الذى كان يكنه نورونيا فلم يكن لديه سفن كى يتبعهم فى ذلك الوقت.

وذات مرة فى تطوان كتب حسن إلى حاكم سبتة يحكى له عن غارته طالبًا منه فتح الحدود كما كان من ذى قبل وبذلك يمكن سير عملية التجارة بالإضافة إلى تسهيل عمليات الافتداء. فأجاب نورونيا أنه يجب أولا الاعتذار عن الأعمال الحربية التى وقعت، إذ كانت هناك هدنة موقعة مع ملك مدينة فاس[٣٤] .

وقد تبادل الطرفان الانتصارات والهزائم.

وقد وجه نورونيا رسالة أخرى إلى خوان الثالث فى ٧ أكتوبر من عام ١٥٤٥ يخبره فيها عن بعض النجاحات.

وقد علم ألفونسو أن بن راشد وكذلك حسن لم يكونا فى مقرهما المعتاد بل هما بعيدان، فقرر "الإسراع إلى تطوان" مع قائد القصر الصغير. ووصلت القوات البرتغالية إلى أسوار تطوان حتى بلغت أراضى مقبرة الأندلسيين، حيث كان وما زال "مدفن المنظرى" وذلك على الرغم من قصف مدفعية القصبة.

وقد استفاد نورونيا من عدم الدفاع عن القلعة وكان فى المقدمة الابن الكبير لحسن مع "أربعين فرسًا وألف من المشاة..." وهاجموا بنى مَدَن حيث كان ملجأ

أسطول القراصنة على مقربة منهم فقاموا فى الحال بحرق ١٧ سفينة وجدوها هناك. وقد خرج ابن حسن مع قواته من تطوان ولكنهم هزموا بعد ذلك بعد قتال ضار[٣٥] .

إن غياب حسن بسبب وجوده بجانب قوات الشريف لم يكن شيئًا مألوفًا. نعرف أنه سواء كان حسن أم بن راشد لم يكونا على اتفاق مع الشريف[٣٦] وكان حسن يميل إلى الحزب الإسباني، وأحيانًا كان يميل إلى الحزب البرتغالى، كما أبلغ عن ذلك تاجر من تطوان فى رسالة وجهها إلى خوان الثالث فى ١٥ مايو من عام ١٥٤٨ .

"والقائد حسن بصفته خادمًا لجلالتكم، فتح لى الميناء السرى ضد إرادة هذا الشعب" وبالإضافة إلى ذلك فقد دبر دسيسة كى يبعد بن راشد عن حزب الشريف[٣٧].

ومن حين لآخر كان الشريف يدعو قادة المملكة إلى بلاطه الملكى وكان التطوانى يعتذر مرات عديدة لأنه كان يريد فشل الملك الجديد. وفى ١٩ مارس من عام ١٥٤٩ (وصل القائد حسن إلى مدينة فاس قادمًا من تطوان)[٣٨].

"chegou a Fez o alcaide Acem, que he o de Tutuao,ao qual o Xarife fuez muita honrraì 13".

وبعد ذلك بشهور قليلة، كتب تاجر آخر وهو بدرو دى إريرا إلى لويس دى دويرا مراجع جبل طارق تقريراً أقرب إلى الحقيقة: (أعطى الشريف حكم تطوان إلى القائد حسن، و(حسن) ليس راضيًا عن ذلك الشريف فهو متجهم وليس على وفاق مع الأندلوثيين)[٣٩]١٤ وعلاوة على ذلك فلم يكن حسن راضيًا عن الشريف الذى كان قد انتزع إيرادات مهمة[٤٠] .

ولدينا وثائق تدل على وجود حسن على رأس المناصب التطوانية على الأقل حتى عام ١٥٥٧ . وكتب حسن فى ٨ أغسطس من عام ١٥٥٣ إلى الأمير فيليبى رسالة مليئة بالاحترام والانتماء الكامل تتعلق بافتداء الأسرى(٤١).

"سيدى أحمد حسن، قائد تطوان" كما يوقّع ربما قد شك فى أن الأشراف بدءوا يتفاهمون مع البلاط الإسبانى ضد الأتراك. شعر بأنه مهدد وذلك عندما طلب الأمان فى الشهور الأولى من عام ١٥٥٤ كى يدخل سبتة هو وممتلكاته(٤٢).

ولم يحل ذلك دون وقوع مواجهة مسلحة فى ربيع ذلك العام مع القائد العام فى سبتة والذى لقى حتفه فى تلك الأثناء(٤٣).

ولقد امتدت المحادثات بين الشريف وبين الزعماء الإسبان وكانت تعتريها تقلبات. وقد أوصى أحد مترجمى الزعماء الإسبان من هؤلاء، وهو القائد غونثالو إيرنانديث بإرسال مفوض إلى "السيد المبجل" قائد تطوان فى ٦ أكتوبر من عام ١٥٥٦ . فأجابه حسن أنه أرسل الخادم مع "صحبة طيبة"(٤٤) .

وكذلك لدينا وثيقة رسمية تشهد بوجود حسن فى تطوان فى نهايات عام ١٥٥٧ . وهى عبارة عن رسالة من حاكم سبتة إلى الملك سباستيان يخبره فيها عن شئون شمال إفريقيا. ويقول بالنسبة إلى تطوان :

Como el rrei de Fez tem sua l?mala fora, e dizem que hee para vir sobre Tetuao, por Acem recolher nele navios de Turquos sem sua licema)(٤٥)

هل كان ذلك بداية النهاية لحسن؟ نحن لا نعرف ذلك وليست لدينا أية أخبار أخرى عنه. وفى ٦من مارس من عام ١٥٦٢ لم يكن قائداً لتطوان، حيث ظهر هناك شخص يدعى "سيدى أمون Cid Amun"(٤٦).

ولا نعرف مصيره النهائى، ولا نعرف مصير عائلته وذريته(٤٧) .

ولقد اختفت معه حتى من المجتمع الموريسكى، كل آثار عائلة المنظرى الذين ينتمون إلى العائلة بالمصاهرة أو بالتبنى.

إننا نعرف المكان الذى دفن به مؤسس تطوان، ولكن لا نعرف أى مقبرة لخلفائه أو لأحد من عائلته ولا حتى مكان دفن أحمد حسن الذى حاول لسنوات عدة أن يطيل مجد آبائه.

واليوم أقيم ضريح كبير فوق قبر المنظرى حيث توجد أيضا رفات السياسى التطوانى عبد الخالق توريس. وعلاوة على ذلك وفى نفس المقبرة توجد تلة مرتفعة يوجد بها رفات مئات الغرناطيين ويبدو أن من خلال قبورهم ينظرون إلى البحر الذى أتى بهم من وطنهم المفقود.

تم إلقاء الضوء على فترة طويلة فى حياة تطوان الوليدة وهى منذ عام ١٤٨٥ إلى عام ١٥٦٠ تقريباً.

ولقد امتدت الحياة الغرناطية على الجانب الآخر من مضيق جبل طارق مدة ثلاثة أرباع القرن فى المدينة الإفريقية الشمالية.

إن من قام بتأسيس مدينة تطوان هو أحد الغرناطيين وكان الشعب الغرناطى بكل طبقاته الاجتماعية هو من شكل السكان التطوانيين. يمكننا التحدث عن فترة ميلاد ونمو مدينة تطوان على أنها فى قرن المنظرى أو القرن الغرناطى.

وتطوان هى امتداد أليم لغرناطة فى أراضٍ إفريقية، بذكريات ثابتة مفعمة بالحنين لنفس الوطن الذى لم يغب أبداً عن عقول وشعور سكانه المشهورين.

الهوامش

MENESES: Correspondenciaì Tomo II. Año 1513. (١)
S.I.H.M.: España 1ª 1-79. (٢)
ARANDA, Gabriel: Vida del V. P. Fernando de Contreras. Sevilla 1692. Pág. 507. (٣)
ARANDA: Op. cit. Pág. 483. (٤)
TORRES, Diego de: Historia de los xarifes de Marruecosì Sevilla 1586. Cap. 54. Fol. 169. (٥)
ARANDA: Op. cit. Pág. 536. (٦)
RODRÍGUES. Anaisì II-488. (٧)
ARANDA: Op. cit., 536. (٨)
S.I.H.M. Port. 1.a III-293. (٩)
Id. Id. Id. 536. (١٠)
Id. Id. Id. 469. (١١)
S.I.H.M. Espa?a. 1.a I-138. (١٢)
S.I.H.M. Portugal 1.a III Carta 3-4-1451. (١٣)
Al Wata'iq. Rabat 1976. Págs. 367 y s. (١٤)
RODRIGUES: Anaisì II-332. (١٥)
S.I.H.M. Portugal 1.a III. Págs. 509 y s. (١٦)
S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Págs. 59 y s. (١٧)
S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Pág. 92. (١٨)
S.I.H.M. Espa?a 1.a I. Pág. 83. (١٩)
S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Págs. 52 y 79. (٢٠)
S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Pág. 85. (٢١)
S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Pág. 105. (٢٢)
S.I.H.M. España I. Págs. 95 y s. (٢٣)
ARANDA: Op. cit. Pág. 618. (٢٤)

ARANDA: Op. cit. Pág. 639. (٢٥)
S.I.H.M. España 1.a I. Págs. 96 a 119 y 126-127. (٢٦)
ARANDA: Op. cit. Págs. 637 y s. (٢٧)
S.I.H.M. España 1.a I. Págs. 128. (٢٨)
S.I.H.M. Esp. L.a I. Págs. 130 y 131. (٢٩)
S.I.H.M. Esp. I. Págs. 142. (٣٠)
S.I.H.M. España I. Págs. 135 y s. (٣١)
S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Pág. 227. (٣٢)
S.I.H.M. España 1.a I. Pág. 146. (٣٣)
S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Págs. 128 y s. (٣٤)
S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Págs. 170 y s. (٣٥)
S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Pág. 257. (٣٦)
S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Págs. 268 y s. (٣٧)
S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Pág. 323. (٣٨)
S.I.H.M. España 1.a I. Págs. 338 y s. (٣٩)
S.I.H.M. Portugal 1.a IV. Págs. 381 y s. (٤٠)
S.I.H.M. España II. Pág. 98. (٤١)
S.I.H.M. España II. Pág. 130. (٤٢)
MASCARENHAS, Jer?nimo: Historia de Ceutal Lisboa 1915. Pág. 299 y s. (٤٣)
S.I.H.M. España II. Pág. 365. (٤٤)
Portugal 1.a V. Pág. 65. (٤٥)
S.I.H.M. España 1.a III. Pág. 18. (٤٦)
(٤٧) نعتقد أن خليفته التالى فى باثًا كان القائد "حسن" الذى ذكره برنالدِث فى كتابه تاريخ الملوك الكاثوليك.

الفصل التاسع

آثار عائلة المنظرى فى غرناطة

المنظريون الغرناطيون بعد الاحتلال المسيحى

أوضحنا سابقا القرية التى أطلق ابن الخطيب عليها المندار، وهى اليوم بِدمارBedmar، ومن الممكن أن يكون لقب مندرى نسبًا عاما لكل من انحدر من تلك القرية أو هو نسب يقتصر على عائلة مسيطرة على تلك القرية استقرت بعد ذلك فى غرناطة.

إن قلة المنظريين الذين عثرنا عليهم، وكذا وجودهم فى موقع جغرافى صغير، يجعلنا نفكر فى وجود عائلة واحدة تفرقت بعد سقوط مملكة بنى نصر.

ويحكى ديموس Dimos فى الفصل الثانى عن الوثائق التى تشير إلى وجود منظريين سابقين على الغزو المسيحى. وبعد ذلك الغزو لدينا أيضا آثار وثائقية سنحاول أن نعرض لها ولكن دون التأكيد بوضوح على درجة القرابة التى كانت تربط أفراد عائلة المنظرى – الذين وجدناهم – بمؤسس تطوان. ففى بعض الأحيان تكون احتمالاتنا أقوى من احتمالات أخرى على الرغم من أننا نرى أن الجميع ينتمون إلى أصل مشترك.

وسندلى بكل المعلومات التى عثرنا عليها والتى تقتصر فى بعض الحالات على سطرين وفى حالات أخرى أفضل يمكن أن نسلك طريقًا أطول، موثقًا كما ينبغى.

ففى عام ١٥٠٥ منح الملكان الكاثوليكيان أملاكًا موقوفة لمساجد قديمة إلى أسقفية غرناطة، وكان من بينها أشجار زيتون فى أرض "المنظرى " التى كانت تتبع قرية كوخار القريبة من بوليانَس Pulianas(١).

فى بدايات الثورة الموريسكية العظمى فى البشرَّات، استعان ماركيز مونديخار باثنين من الموريسكيين من أغنياء الفرسان ممن كان يثق بهما للذهاب إلى البشرَّات كى يحاولا إخماد التمرد الذى كان قد بدأ. "كان أحدهما يسمى المنظرى". تلك المعلومة التى أوضحها خينييس بيريث دى إيتا يمكن الاعتماد عليها إلى حد ما، وذلك لأن المؤلف قد عايش جزءًا كبيرًا من الأحداث التى رواها فى الجزء الثانى من كتابه حيث ذكر تلك المعلومة(٢).

ويبدو لنا هذا المنظرى مندمجًا إلى حد ما فى المجتمع المسيحى، ويعيش عادة فى العاصمة ولكن كانت له مصالح واتصالات مع أهل البشرَّات. وعندما وصل الموريسكيان إلى ألبونوِيلس "وجدا جماعات كبيرة مسلحة وكان من بينهم موريسكيون كثيرون من غرناطة، كانوا أصدقاء لهما". وقد استطاع المنظرى ورفيقه إلى حد كبير إقناع المتمردين بالتهدئة.

ولم يذكر بيرِيث دى إيتا هذا الفارس الموريسكى مرة أخرى. وفى قنطار Quen-tar، عند إعادة تقسيم ممتلكات الموريسكيين "الذين ثاروا واعتقلوا"، تحرى قاضى اللجنة فريَّاس – يساعده دييغو دى خوان ألابيثىْ وهو موريسكىٌ يبلغ من العمر ٦٥ عامًا وكان من سكان المكان الأصليين، وكذلك بارتولومىٌ دى غوثمانْ من سكان غرناطة والذى كان خادمًا لكنيسة قنطار لأربع سنوات – عن الممتلكات والثروات التى وجدت فى البلدة فوجد "بيتًا كان يعيش فيه منظرى موريسكى، تؤول ملكيته إلى مسيحى قديم اسمه أرمِنغول من سكان غرناطة وكان يؤجرها لهذا الموريسكى".

ويلاحظ أنه كان يقطن فى قنطار ١٥٥ عائلة كلهم موريسكيون. ومع ذلك فإن العديد من المسيحيين القدامى كانت لهم ملكيات فى القرية، كانوا يؤجرونها إلى موريسكيين، مثلما الحال مع هذا المنظرى. وقد تمت عملية التحقيق فى قنطار فى ١٧ من مارس من عام ١٥٧٢ ولم يذكر المنظرى بعد ذلك(٣) .

هناك عقد إيجار آخر، فى قرية نيبار Nivar فى ١٦ يناير من عام ١٥٧٢، يرد فيه من بين أسماء الأعلام، اسم منطقة تابولا ديل منذارى، وهى متاخمة لكوغويُّوس(٤) .

وفى ٢٢ من فبراير من عام ١٥٦٨ أقيم مشهد الإيمان(*) فى غرناطة وقد خرج فيه فرانثيسكو المنظرى إلى جانب أناس آخرين متصالحًا وهو من سكان ألمرية(٥).

حتى الآن لدينا معلومات عن خمس حالات وجد فيها لقب لعائلة منظرى منذ سقوط المملكة، وفيما عدا حالة ألمرية فإنهم جميعًا من أنحاء العاصمة غرناطة، وهو ما لا يثير الدهشة إذا ما علمنا أن الطبقة العليا والحاكمة لمملكة بنى نصر كانت لها ممتلكات متفرقة ليس فقط فى غوطة غرناطة بل أيضا فى البلدان أو القرى البعيدة تقريبًا عن العاصمة.

إذن لا نشك كثيرًا فى انتمائهم إلى عائلة واحدة فقط. على الرغم من أننا يمكن أن نضيف حالة تفيدنا فى دراستنا قد تركناها عمدًا لكى نحللها بدقة أكثر، وخاصة أن لدينا وثائق كثيرة وغير منشورة عن هذه الحالة.

والمنظريون الذين سنتناولهم الآن يشكلون عائلة ذات مكانة طيبة، لديهم من الأموال ما يسمح لهم برغد الحياة. وكانت هناك دلائل خارجية على ذلك، لكن قد أنهكتهم ظروف زمانهم التى كانت تقوض ركائز المجتمع الموريسكى وتقيم أسس مجتمع السكان الجدد.

ولم يكن التعايش سهلا عندما لم يحترم هذا المجتمع المصالح المادية والأخلاقية للمهزومين. ولم يأت المستعمر إلى هناك لأجل ذلك، ولم يأت المنتصر لذلك أيضا.

إن عائلة المنظرى التى نرى ظروفها الأخيرة كانت تقطن فى قرية أثيكيا، بالقرب من ليكرين وموندبخار حيث أقيم مركز مؤقت لقصر مؤقت لعائلة بنى نصر.

(*) كانت محاكم التفتيش تقيم احتفالا يستمر يومًا كاملا يرتدى فيه "المذنبون" عباءات صفراء ويصطف الناس لرؤيتهم فى ميدان كبير. فى ذلك المكان كانت تلقى خطبة تحذر من عواقب الإلحاد ثم يبدأ تطبيق العقوبات الخفيفة وفى النهاية يطبق حكم الإعدام على من صدر بحقهم. (المراجع)

ونذكر أن غالبية طبقة النبلاء المسلمين قد تركت العاصمة حينما احتلها المسيحيون، واتجهوا نحو الجنوب باحثين عن طريق يمكنهم من الهروب.

وقد كتب ثافرا إلى فيرناندو الكاثوليكي فى نهايات عام ١٤٩٢ "أن بنى سراج نقلوا نساءهم إلى البشرات. وبعد أن قاموا ببيع كل ممتلكاتهم هناك، تهيأوا للخروج فى نهاية مارس"(٦) .

وفى الواقع فقد انتقل الكثيرون إلى البشرات، كخطوة ممهدة لذهابهم إلى "الناحية الأخرى من المضيق" ولم يستطيعوا تحمل التغيير المخيف الذى تعرضوا له والذى كانوا قد تحسبوا له(٧).

ولم يبق فى المدينة سوى من هم أكثر خوفًا والمستأمنين خلال السنوات الأولى التى تم فيها تنفيذ اتفاقية التسليم. ولكن الذين بقوا ابتعدوا عن العاصمة وبدأت سريعًا الضغوط من قبل الأشخاص والمؤسسات لاستيعاب المهزومين.

ولم يكن هناك الكثير من المسيحيين الذين يسكنون قرى السلاسل الجبلية، بل كانت الغالبية العظمى من السكان مسلمين، وعندما اضطروهم أن يُعمَّدوا أو أن يهاجروا كان الموريسكيون القاطنون فى مناطق متعزلة عن البشرات قادرين على تأدية شعائرهم القديمة خفية أكثر من الذين كانوا فى مناطق أخرى.

ذلك التسامح أو تلك الراحة كانت تقل تدريجيا مع مرور السنين ومع إقامة بعض المسيحيين القدامى بين المسيحيين الجدد.

إن تأسيس محكمة التفتيش فى غرناطة عام ١٥٢٦ يشير إلى حدث مهم بالنسبة إلى تنصير المهزومين واستغلالهم. وحتى ذلك الحين مرت فترة لا يمثل فيها الموريسكيون هدفًا رئيسيا لمحكمة التفتيش، ولكن بدءًا من منتصف القرن وتحديداً فى عام ١٥٥٠ كان هناك ٤٧ موريسكيا تم التصالح معهم وقد صودرت ممتلكاتهم فى "مشهد الإيمان"(*) فى غرناطة. وهذا ليس عدداً كبيراً، ولكن ما هو مهم فى تلك العلاقة

(*) لمزيد من المعلومات حول "مشهد الإيمان" راجع مقدمتنا لكتاب "الموريسكيون ومحاكم التفتيش" تأليف غارثيا أرينال ، ترجمة خالد عباس، مرتجعة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة. (المراجع)

القائمة لهذا المشهد هو معرفة أماكن إقامة المتهمين التى هى من غرناطة ذاتها وحتى أماكن بعيدة مثل أورثىْ Orce، وأماكن وعرة فى السلاسل الجبلية مثل كابلييرا، أو أماكن بعيدة ومعزولة إلى حد ما بحيث يجب الإشارة إلى مكان معروف قريب منها مثل غاتَكْسين فى منطقة رونْدا.

ذلك يوضح أن الموريسكى لم يعد يستطيع أن يشعر بالأمان فى أية أرض سواء كانت بعيدة أم منعزلة، فهناك جاء المستفيد(*) وهو من بنى وطنه وراقب حياته وطمع فى أراضيه ومساكنه أو حسد وضعه وكان مستعدا أن يأخذه على حين غرة منه.

هذا دون أن نتحدث عن الأماكن التى يوجد بها ثلاثة أو أربعة أو أكثر من المسيحيين القدامى الذين لديهم ملكيات قليلة وطموح كبير.

وفى تلك التواريخ لم يبق أى ناجٍ من حرب غرناطة. والمنظرى الذى توفى مسنا، كما رأينا فى الفصل السابق قد مات فى عام ١٥٤١ . وبالتالى عندما مر النصف الثانى من القرن السادس عشر كان قد مر جيلان على الأقل منذ الاستيلاء على العاصمة. فأفراد الجيل الأول هم الذين كانوا لا يزالون أطفالا صغاراً أو أنهم قد وُلدوا فى عهد غرناطة المسيحية، وأفراد الجيل الآخر هم أبناء ذلك الجيل وقد رأوا تدهور حياتهم اليومية باستمرار. ويتفق كلا الجيلين فى شىء واحد، ألا وهو الرغبة الهائلة فى الهرب من تلك البيئة التى تزداد سوءاً يومًا بعد يوم بالنسبة إليهم، وأن يذهبوا "لما وراء النهر" إلى الضفة الأخرى من مضيق جبل طارق.

وكان تنديا يعرف ذلك أكثر من أى شخص آخر فى زمانه، لذلك كتب إلى فيرناندو الكاثوليكى فى ٥ يوليو من عام ١٥١٠: "ولم يكن هناك شىء آخر أكثر من تلك الرغبة القديمة لهؤلاء الأناس الطيبين فى أن يذهبوا إلى الضفة الأخرى من مضيق جبل طارق إذا استطاعوا ذلك"(٨) .

(*) المستفيد هو شخص مرتبط بالكنيسة ويتلقى منها راتبًا دوريا. (المراجع)

وهذا تصريح إذا ما اعتبرناه صحيحًا فى بدايات القرن، فإنه أكثر صحة فى منتصف القرن ذاته.

وسوف تقوم محاكم التفتيش بمعاقبة من يحاول مجرد العبور إلى شمال إفريقيا كما سنرى ذلك الآن. بعد عودة كل المسيحيين بقرار بدءًا من عام ١٥٠٢ كان عبور مضيق جبل طارق يعنى رجوعهم إلى دينهم القديم. وهذا كان التبرير الشكلى، أما التبرير الحقيقى يكمن فى الضغط المتواصل لمجتمع مسيحى طمع فى الثروات التى كان يمتلكها الموريسكيون.

وأفراد عائلة المنظرى فى أثيكياسْ Acequias هم أناس يعيشون فى رغد من العيش. وقد كشفت لنا ذلك وثيقة فى أرشيف الحمراء توضح ما يُعتقد أنه السلب الأول الذى تعرضت له الثروة الصغيرة لتلك العائلة.

إن الملف الذى يتكون من إحدى عشرة ورقة ونصف من الوثائق مسجل بعنوان "توزيع ممتلكات لورنثو إرنانديث من سكان أثيكياسْ عام ١٥٥٩"(٩).

ففى الورقة الأولى يتم شرح المعلومات التى ستحرك الملف وتحوى الوضع المؤلم الذى بدأ يعانيه المنظريون. وكتب غارثيا المنظرى، أحد هؤلاء المنظريين وكان من سكان "أثيكيا دل بال دى لِكرينْ" إلى حاكم الحمراء يقص عليه حالته ويطلب منه الإنصاف.

"... ولأن لورنثو إرنانديث قد غاب عن بلدة أثيكيا، فقد ذهب مأمور تسلم قصر الحمراء إلى بيت أخت لىْ تُدعى بياتريث منظرى، وقد أخذ بعض الملابس والمجوهرات التى تخصها وتخصنى من البيت".

إذن فإما أن مأمور التسلم نسب ملكية ذلك إلى لورنثو إيرنانديث، أو أنه اتهم المنظريين بالاشتراك فى عملية العبور إلى الناحية الأخرى من المضيق.

وكانت الممتلكات قد أودعت فى بيت ميغيل دى أنتيكيرا وهو حاجب أثيكياس.

وطبقًا لما استمر في شرحه غارثيا المنظرى في كتابه، فإن تلك الممتلكات "كان قد أخذها مأمور محكمة التفتيش من أمي وأختي وقد اشتريناها من مأمور محكمة التفتيش خلال شهر سبتمبر الماضى من هذا العام".

وكانت سلطة محاكم التفتيش قد زارت تلك العائلة. وكما يوضح في كتابه فإن كلا من أخت وأم غارثيا كانتا "تائبتين" ولم تطلبا الإنصاف فقط، بل طلبتا "إحسانًا كبيرًا".

ولم يتحدد هنا أو في كل الملف الجرم الواقع من إيسابيل وبياتريث أم وأخت المنظرى. وقد قالتا إنهما أرملتان وذلك في التماس إلى كونت تنديا طلبتا فيه استرداد ملابسهما، وهو التماس أرفقتا به توكيلا - كُتب في الورقة التالية - وقد أعطت المرأتان التوكيل إلى دييغو مالدونالدو وهو من سكان أثيكياسْ وذلك لكي يتصرف باسمهما أمام السيد الكونت. وكما سنرى فإن غارثيا البائس لم يكن حسن الهيئة.

وقد أصدر السيد لويس أورتادو دى مندوثا أمرًا في ٣١ يونيو من عام ١٥٦٠ لكي يقوم حاجب أثيكياسْ - الذي ترك له إرناندو دي سييرا الممتلكات المصادرة - برد الممتلكات إلى بياتريث، ولأن المصادرة تمت دون دليل فقد أمر إيرناندو دي سييرا بأن يدفع إلى بياتريث مبلغ دوقية تعويضًا.

وقد صدر أمر آخر في الثاني من أغسطس وُجه مباشرة إلى ميغيل دي أنتيكيرا يقضي بأن يسلم إلى بياتريث منظرى كل الممتلكات التي احتجزها.

"إرناندو دي سييرا وهو شخص كلفتُه بأن يبيع ممتلكات الذين تنصروا حديثًا من هذه المملكة وقد عبروا إلى شمال إفريقيا"، والتي قد أخرجها من منزل بياتريث "قائلا إنها ممتلكات لورنثو إرنانديث وهو أحد الموريسكيين الذين عبروا إلى شمال إفريقيا".

وفي النهاية تظهر بياتريث بمفردها ولا نعلم مصير أمها إيسابيل التي من الممكن أن تكون قد توفيت. أما أخوها غارثيا فقد تعرض لمشكلة مشابهة في عام ١٥٦٠ .

وسوف نرى الملف الآخر الذى يتناول ذلك والذى سيزيد من الأزمة التى مرت بها عائلة المنظرى.

ولكن لا نريد أن نترك ملف الحمراء الغرناطية بدون أن نشير إلى قائمة الملابس والمجوهرات التى اشتملت عليها الورقة العاشرة من الملف والتى تمدنا بمعلومات بالغة الأهمية فى الموضوع الذى يهمنا هنا وهو ما يزيد اعتقادنا فى أنها عائلة ذات وضع فوق المتوسط، فقد كانت هناك دستة قمصان مطرزة، وما يقرب من دستة قطع أقمشة، وثمانية أمتار من النسيج، وأربعة ملاءات، وثمانية وسادات، وقبعتان إحداهما مطرزة بالذهب، وقطعة كبيرة من القماش الحرير الملون، إلخ. ولا نبالغ إذا ما قدرنا قيمة الملابس بما يزيد عن ٥٠٠ دوقية. ولا نعرف قيمة المجوهرات، إن وُجدت، حيث لم يتم ذكر أى شيء يتعلق بها[١٠] .

كان همُّ عائلة المنظرى فى ذلك التاريخ من أغسطس عام ١٥٦٠ منصبًّا حول مصير كل الممتلكات التى كانت لديها، أكثر من اهتمامها باستعادة بعض الملابس التى كانت قيِّمة لكن يمكن الاستغناء عنها.

والمسألة تأتى من الماضى تقريبًا فى عام ١٥٥٩ فعلينا أن نرجع بالذاكرة إلى هذا العام كى نتعرف على وضع تلك العائلة التى سُجلت فى بعض الوثائق الموجودة فى المحكمة الملكية فى غرناطة.

الوثائق موجودة فى رابطة ذات ثمانى ورقات، تتضمن أولا وثيقة خاصة بالمزايدة ووثيقة أخرى خاصة بالإيجار الذى تحول إلى بيع .

هذا هو التسلسل الزمنى ولكن ليس بترتيب الأوراق. فإن التأجير موجود فى الورقة الأولى والمزاد يبدأ فى الورقة الثالثة، وكانت الورقة الثانية فارغة ولا يوجد بها إلا اسم "غارثيا خِيِّرون وهو مسيحى جديد"[١١].

ويوجد فى الورقة الثامنة عددان بأرقام رومانية وعدد آخر بأرقام عربية.

وتقول بداية الورقة ١ :

تأجير ممتلكات المنظرى .

فى أثيكياسْ، فى ١١ سبتمبر من عام ١٥٥٩ وأمام كاتب العدل والشهود، استأجر غارثيا المنظرى وأخوه ميغيل المنظرى "من أراضى صاحب الجلالة ومن محكمة التفتيش فى غرناطة ومن خوان دى ثآرَاتِىْ مأمور التسلم، كل العقارات التى صودرت من أندريسْ المنظرى وزوجته إيسابيل وهما من سكان أثيكياس وهما والدا ميغيل وغارثيا المنظرى".

إذن فها هم الأب والأم والأخت مقحمون فى جرم غير معروف، حوكمت بسببه المرأتان من قبل محكمة التفتيش وكذلك أندريسْ دون ذكر العقوبة، وقد صودرت ممتلكاتهم نتيجة لذلك.

ومن الممكن أن يكون السبب قد بدأ فى عام ١٥٥٨ وقد صدر الحكم فى مشهد الإيمان الذى أقيم فى غرناطة فى ١٦ يناير من عام ١٥٥٩[١٢].

وقد رأينا أن غارثيا المنظرى قد قال إنه اشترى ملابس أمه وأخته اللتين سجنتا فى ذلك التاريخ من سبتمبر عام ١٥٥٩ من مأمور محكمة التفتيش. وهو نفس التاريخ الذى حدث فيه تأجير العقارات الخاصة بوالديه.

نفترض أن أندرِيسْ المنظرى قد مات خلال ذلك العام، فربما كان ذلك قبل سبتمبر. وقالت إيسابيل إنها قد ترملت وذلك فى قضية الملابس.

وبهذه الطريقة فإن الأبناء كانوا الشخصيات الرئيسية فى التأجير وفى دفتر المزايدة. ومن المحتمل أن إيسابيل كانت قد توفيت كذلك حيث إننا لا نجدها فى الوثائق الأخيرة الخاصة بإعادة ملابسها، فقد ورد فقط اسم بياتريث.

وقد حاول غارثيا وميغيل المنظرى أن ينقذا ما يستطيعانه من ميراث أسلافهما الذى كان – بالإضافة إلى مَنْحَل – "عبارة عن منازل وطواحين وبساتين وقطع أراضى

ودَالِيـات وكـرم زيتـون وأشـجـار تـوت. وأخـذو من ذلك كله عـائدًا قـدره ١٢ ألف عـملة مرابطية سنويا".

كان ذلك بمثـابة البريق الأخـيـر لعائلة غـرناطيـة. وسـوف يـتم التـفـصيل فـى دفتر المزايدة عندمـا لا يتم الحـديث عن تأجـيـر بل عن بيـع للممـتلكات. فـالأراضـى الصـالحة للرى تزيد عن ٢٧ مـارخـال(*)، أمـا الأراضـى البائرة فتـبلغ سبعة فانيـغات، أى ما يقرب من سـتة هكتـارات. وقد ارتفعت قيمـة الممتلكات المصـادرة إلى مـا يزيد عن مـائتى ألف عملة مـرابطيـة موزعـة على أثيكيـاسْ وبيدمـار ونيـغـويلاس وكـاثولاس وإسكوثار. وليس هناك شك فى أن أندريسْ المنظرى لم يكن مزارعًا ولم ينحـدر من فـلاحين. وحـتى الآن قد اسـتطـاع أن يعيش حتى أواخـر القـرن السـادس عشـر من إيرادات العـقـارات التى كانت تشكل بقـايا ثروة محـولة إلى ممتلكات ريفيـة كان والداه أو أقـاربه قد حـاولوا أن يحصلوا عليها عندما تركوا المدينة للمسيحى.

وكـان لدى غـارثيـا وميـغيل على الأقل نقـود كـافيـة كـى يدفـعـاها ويُبقيـا على باقى ممتلكات والديـهمـا، وذلك بعـد أن حكم عليـهمـا باحـتـجـاز أمـلاكـهـمـا فـى غـرنـاطة فـى ٢٥ فبراير من عام ١٥٦٠ فى مشهد الإيمان[١٣] .

وفـى ٣١ ينـاير من عام ١٥٦١ اسـتعد المُنادىْ سيـمون إرنـاندث -"بعدمـا أتم العديد من الإشـهارات لتلك الأمـلاك، - وأقام مزايدة على الممتلكات".

وكـان المسـعر دييغو مـالدونادو من سكـان القـرية، وقد تعـرفـنا عليـه من خلال مـا قام به من تقديم قرض للسيدتين بعد الحكم باحتجاز ملابسهما(**).

(*) وحدة قياس تساوى ٥٢٨.٤ مترًا مربعًا. (المراجع)

(**) قراءة وثائق القرن السادس عشر تثير الاهتمام فيما يتعلق بالملابس، ويبدو أن الملابس كانت عالية القيمة إلى حد اعتبارها ثروة هائلة . لاحظ أن اتفاقية تسليم غرناطة وملحقاتها تتضمن بنودًا عن الملابس. (المراجع)

وقد ظلت كل الممتلكات تقريبًا تحت تصرف المنظريين باستثناء بعض ما يمكن تفسيره على أنه هبات أو تنازل إذا ما عرفنا الظروف الشخصية والزمنية للشخصيات بشكل أفضل. وهكذا، فقد اشترى أحد المنتفعين وهو فرانثيسكو دى مولينا بيتين وبستانًا صغيرًا مقابل ثمانين دوقية. وقد حصل دييغو مالدونادو على شجرة زيتون وشجرة توت وشجرة جوز. أما فولخنثيو إرناندث فقد دفع ست دوقيات وريالين مقابل كرمة مساحتها مارخال ونصف. وهناك آخر وهو لورنثو مَهْلِيْ، دفع خمس عملات مقابل نصف منحل يحتوى على ٦٠ خلية نحل. وفيما عدا المنازل التى تمثل ١٦٪ من المجموع، فإن الباقى ليست له أهمية كبيرة إذا قورن بـ ٥٠٠ دوقية" التى عرضها مارتين بيريث مقابل كل تلك الممتلكات فيما عدا المنحل".

والـ ٥٠٠ دوقية تساوى ١٨٧,٥٠٠ مرابطى. أما الممتلكات التى تخص عائلة المنظرى فقد ارتفعت إلى ١٨٢,٢٩٥ مرابطى.

أما الذى دفعه الآخرون فيبلغ ٤١,٤٦٩ مرابطى. وتلك المبالغ الأخيرة التى بلغت ١٨٢,٢٩٥ ، وبذلك يكون المجموع ٢٢٣,٧٦٤ مرابطى، وهى قيمة الأملاك قبل بدء المزاد(١٤).

ولكى يبقى المنظريون على العقارات العائلية كان عليهم أن يدفعوا ١٨٢,٢٩٥ مرابطى، تعين عليهم أن يدفعوا مبلغًا مماثلاً لكى يحصلوا على ملابس أمهم وأختهم، فيصل المجموع إلى ما يقارب ٤٠٠,٠٠٠ مرابطى وهى ما كانت لديهم. ذلك إلى جانب المنازل والبساتين، إلخ. قبل أن تحدد محكمة التفتيش سعرها وهو ما قد ضاعف هذه القائمة للغاية.

قمنا ببعض الحسابات كى نظهر عمليا أن هؤلاء المنظريين كانوا أثرياء، وبالتالى لديهم إمكانيات هائلة، فإنهم ينتمون إلى إحدى أفضل عائلات غرناطة.

لا نريد أن نثبت شيئًا أو أن ننكر شيئًا آخر، نحن نشير فقط بكل بساطة إلى احتمالية. فلكى نثبت شيئًا يتعين أن تكون لدينا وثائق أكثر من مجرد تشابه الأسماء

أو الألقاب العائلية، ولكن استناداً إلى المعلومات المتاحة فقد اقتربنا من الحقيقة أكثر مما قرَّبنا إليها كل من ليون الإفريقى أو مارْمول.

وبقى لنا حتى الآن أن نتابع الطريق الأخير للمشكلة الموريسكية، كتمهيد حقيقى لاستئصالها الكامل.

إن ثورة البشرَّات العظمى فى عام ١٥٦٨ هى نتاج لعدم التسامح وللتجاوزات غير القانونية وعمليات الإذلال والتحقير، قد اندلعت بكل قسوة ووحشية حتى أن عدد ضحاياها قارب ما تسفر عنه حرب أهلية حقيقية. إن حكايات مارْمول كارباخال(*) سببت رعباً فظيعاً أكثر مما كان يمكن أن تسببه رواية مؤرخ موريسكى.

وبدون احتمالات للنجاح فقد حارب هذا الشعب المهمش بكل قواه من أجل الحصول على حريته فى بعض مظاهر الحياة.

عند انتهاء الاقتتال كان قد اختفى ٣٠٪ من السكان الموريسكيين. فقد عوقب بعضهم بالنفى إلى خارج منازلهم، وآخرون قد اختفوا، وآخرون مساوون لهم اختفوا بسبب الحرمان والمرض.

ولقد تلقى موريسكيُّو وادى لِكرين إلى جانب موريسكيى غرناطة وغوطتها ومالقة الشرقية وآخرين أوامر بالتجمع فى ٢٨ أكتوبر من عام ١٥٧٠ وذلك كى يتم ترحيلهم جميعاً إلى قرطبة فى الأول من نوفمبر.

ومن هنا سوف ينقسمون ما بين إكستريمادورا وغاليثيا. ولم يتأكد وصول أحد منهم إلى غاليثيا أما فى إكستريمادورا فربما وصل أحد من أثيكياس.

وقد رجع قليلون(**) آخرون إلى مملكة غرناطة وتم طردهم منها فى عام ١٥٨٤، ولم يرجع أحد من الموريسكيين القدامى إلى أثيكياس.

(*) نأمل أن يتم الانتهاء قريباً من ترجمة هذا الكتاب لكى ينشر ضمن إصدارات المركز القومى للترجمة. (المراجع)

(**) يرى خوليو كارو باروخا أن الموريسكيين الذين عادوا إلى غرناطة كان عددهم كبيراً. (المراجع)

وأصبحت القرى والضيعات والأماكن غير مسكونة، العائلات متفككة، وقد تدمرت الثروات والبساتين فى كامل المنطقة إلى جانب أضرار أخرى لحقت بالمبانى والمنشآت التى شكلت مشهداً من الأسى والدمار.

أما بالنسبة إلى أثيكياس فيخبرنا كتاب الممتلكات عن وضع عائلة المنظرى ومصيرها، وكانت هذه الوثيقة هى آخر شهادة لوجود عائلة منظرية فى المملكة الإسلامية القديمة فى غرناطة[١٥] .

وفى تالارا أو لكرين فى ١٥ من يونيو من عام ١٥٧٢ قام ماتشوكا قاضى اللجنة الملكية مع كاتب المحكمة أنطونيو سانشيث بالسؤال عن السكان الذين كانوا فيها وعن الممتلكات التى وجدت فى ذلك المكان. وقد سُئل أخوان مسيحيان مسنان وهما دييغو وخوان سولييث وكانا يقيمان فى وادى لكرين، ولكنهما كانا الوحيدين اللذين بقيا فى أثيكياس من السكان القدامى. وقد صادفنا دييغو فى حادثتين سابقتين، فهو الذى كان يقدر الرسوم فى مزايدة ممتلكات المنظريين.

"يقولون إنه فى زمن الموريسكيين كان هناك ستة وستون موريسكيا، أما الآن فلا يوجد أحد منهم، وكذلك هذا المكان غير مسكون، حيث إن ذلك المكان وتلك الديار قد دمرت وحرقت بسبب أنه كان هنالك حقل دوق سيسا وقد حوصرت تلك البيوت الموجودة لعدة أيام ولهذا فهى غير صالحة للسكنى".

وفضلا عن ذلك فكل "الأشجار المثمرة قد اضمحلت وتلفت".

ولم يستطع أحد من السكان أن يظل هناك[١٦].

وقد سجلت هناك ثلاثمائة مارخال تزرع بطريقة الرى ومائة فانيغات بدون رى، وخمسون كرمة "مهملة"، وطريق جميل على النهر، وأفران، وطواحين وساقية تقسم مياهها مع مُندوخار Mondujar وتتضح حدود البلدة بعد ذلك.

وفى ٢٥ يناير من عام ١٥٧٤ استولى كاتب المحكمة ألونسو سانشيث على ممتلكات "كانت للموريسكيين المتمردين والمطرودين" – باسم جلالة الملك –".

وفى نُفس ذلك الشهر من نفس العام شُكلت "لجنة لتوطين سكان فى منطقة ساقية الوادى Acequia del Valle" مع الأخذ فى الاعتبار أن مجلس إعادة التوطين كان قد جلب ١٦ ساكنًا جديداً كانوا كلهم من خارج مملكة غرناطة، وكان ينبغى أن يوزع بينهم (٢٠ قطعة أرض تتكون منها الأراضى[١٧]). كان أحدهم يدعى دييغو دى فوينتس ينحدر من بايْلِنْ كان من نصيبه قطعة ونصف فيهما بيتان كانا لدييغو المنظرى[١٨] .

وقد أُعطى ساكن جديد آخر وهو خوان بردوغو منزلا "بجانب الفرن الذى كان يحد بيتًا كان لغارثيا المنظرى"[١٩] وكانت تلك آخر المعلومات الموثقة التى تعرف عن المنظريين فى شبه الجزيرة.

إن أى سؤال حول مصير غارثيا وميغيل فى ظل تلك المواجهة العنيفة بين حضارتين إحداهما فى أوجها بينما كانت الأخرى فى عصر انحطاطها يظل بدون إجابة. وقد كان لكليهما أسباب كافية للانضمام إلى الثوار والقتال معهم حتى النهاية.

وما لا نعرفه هو ما إذا كانوا قد سقطوا فى تلك العملية أو أنهم استطاعوا الهروب إلى شمال إفريقيا، أو أنهم عاشوا فى حالة من السوء وتاهوا بعد ذلك فى المنفى فى إحدى القرى الموريسكية الكثيرة التى عاشوا فيها فى إكستريمادورا حتى تم طردهم النهائى.

إن الإشارة إلى المنظريين فى كتاب حصر الممتلكات فى أثيكيا هى مثل الشاهد على قبر مدفون فيه رفات أحد الأسماء التى ترمز إلى الجهد الإسبانى المبذول على جانبى المضيق، وفى هذه الحالة التى نحن بصددها ترمز إلى مآثر بعض الغرناطيين فى أراضٍ إفريقية.

الهوامش

(١) VILLANUEVA RICO, M.a del Carmen: H?bices de la ciudad de Granada. Madrid 1961. Pág. 324.

(٢) PÉREZ DE HITA, Ginés: "Guerras civiles de Granada". B.A.E. Madrid 1963. Pág. 596.

(٣) R(eal) CH(ancilleria) de G(ranada): Libro de Apeos de Quéntar.

(٤) GUERRERO LAFUENTE. M.a Dolores: Nívar. Granada 1986. Pág. 48.

(٥) GARCÍA FUENTES, José M.A: La Inquisición en Granada en el siglo XVI.

(٦) Granada 1981. Pág. 78.

(٧) C.O.D.O.I.N.: Xi. Pág. 503.

(٨) C.O.D.O.I.N.: Xi. Pág. 525.

(٩) MENESES: -Correspondencia- II. Pág. 41.

(١٠) Archivo de la Alhambra: L-34- 13.

(١١) MARTÍNEZ RUIZ, Juan: Inventarios de bienes moriscos del reino de Granada (siglo XVI). Madrid 1971. Págs. 250-251.

١ – لا تعرف فائدة هذه الورقة هنا مع هذا الاسم.

(١٢) La Inquisición en Granadaì Pág. 16.

(١٣) La Inquisici?n en Granadaì Pág. 24.

(١٤) R.CH.G.: Cabina 201. Legajo 5.191. Pieza 11.

(١٥) R.CH.G.: Libro (de) A(peos) (de) A(cequias).

(١٦) R.CH.G.: Libro A.A. Fols. 15 y 15, vt.o

(١٧) R.CH.G.: Libro A.A. Fols. 3 y 3 vt.o.

(١٨) R.CH.G.: Libro A.A. Fol. 21.

(١٩) R.CH.G.: Libro A.A. Fol. 59.

الفصل العاشر

آثار المنظرى فى تطوان

أهمية المنظرى فى تاريخ عصره

كانت حرب غرناطة ١٤٨٢-١٤٩٢ مزيجًا من حرب فى العصور الوسطى وحرب حديثة. لا يزال الجنود المسلحون والرماة يؤدون دوراً مهما، وكانت هناك أيضا بطولات من الفروسية، وقد قامت القلاع بدور كذلك وإن لم يكن حاسماً إلا أنه كان عائقًا أمام تقدم خاطف أو قرار متعجل. وكان الحرس الملكى يفوق جيشاً نظاميا.

وبالعكس فقد بدأ يظهر فى التنظيم العسكرى المسيحى محاكاة لجيش حديث وقيادة عسكرية وخاصة المدفعية بدرجة غير مسبوقة حتى ذلك الحين. هذا التقدم- فى معظم الحالات- حسم النزاع لصالح من يملك القوة وهو فيرناندو الكاثوليكى.

إن تطور الأسلحة النارية وإدراك أهميتها جعلت أنه كلما استسلمت حاميات عسكرية بشكل سلمى فإن الملك فيرناندو يأذن لهم فى أن يعبروا إلى ما وراء النهر مع كل أسلحتهم وجيادهم إذا ما كانوا فرسانًا، ولكن دائمًا كان يستثنى البارود والأسلحة النارية.

وكان الغرناطيون المنفيون وفى مقدمتهم المنظرى يشكلون فى الأصل مجموعة صغيرة من الفرسان المسلحين جيداً ولكن دون مدفعية. وكانت خططهم وتسليحهم يسمح لهم بالصمود أمام هجمات السكان الأصليين، الذين كانوا يحاولون منع استيطان الغرناطيين فى أراضيهم. وكل من الأسطورة والتاريخ قد رصدا هذا العداء المغربى للغرناطيين.

تقول الأسطورة: "إنه ذات يوم، عندما شُيدت الأسوار وفى وقت جلوس العمال لتناول الطعام عرض لهم سيدى المنظرى الغرض من بنائها وبدهشة بالغة لاحظوا أنه

كان بجانبه رجل كان كل جزء منه يُشع ضوءاً وبريقاً. المنظرى الذى كان متعجباً من ذلك الشخص غير المعروف، سأله: من أنت يا سيدى؟ فأجابه: أنا نبيك، رسول الله، حينذاك سجد كل المستمعين أمام محمد، وقاموا بإجلاله بطريقة واحدة وتضرعوا داعين من أجل المدينة الوليدة، مستشفعين بمكانته العظيمة القريبة من الإله القدير أن يعيش الشعب فى سعادة وسلام. فأجابهم النبى: أنا أجيبكم وأضمن لكم أنه عندما يعيش الناس سعداء وفى سكينة إلى مستوى الركبة سوف تُرى مدينتكم تلك فى سعادة غامرة حتى العنق، أما عندما تتجشم البشرية عناء المصائب والتعب حتى العنق فسوف يستبد بكم القلق حتى الركبة"(١) .

وفى مسرح العمليات الأكثر واقعية حيث يقيمون فى المنحدر المغربى الشمالى يوجد ممثلون آخرون وإحداثيات أخرى مختلفة عن التى كانوا يؤدونها فى غوطة غرناطة وفى جبال البشرات. وكان البعض مؤيدين وكان البعض الآخر معارضين.

وكان المؤيدون هم السلطة المركزية الوطاسية وكذلك السلطة المحلية التى كان يمثلها سيدى على بن راشد وهو قائد محارب من ذوى الشجاعة الجديرة بالذكر ومن أقارب الأشراف أو المسلمين النبلاء من شمال المغرب.

أما المعارضون، فبالإضافة إلى المعارضة الإقليمية والتى هُزمت بمساعدة بن راشد، كان هناك أفراد آخرون محليون، يعدون الأعداء الأكثر خطراً يماثلون فى خطرهم أولئك الذين تُركوا فى شبه الجزيرة. نحن نشير بكل وضوح إلى البرتغاليين الذين احتلوا الحدود منذ بدايات القرن الخامس عشر. وهى بُؤَرٌ حقيقية فى أرض غير آمنة، محاربون متمرسون ذوو مهارات فى الغارات وحريصون على التوسع والاكتفاء الذاتى.

فى مواجهة هؤلاء المحاربين البرتغاليين فإن المحاربين المنظريين كانوا تقريباً فى نفس الظروف ومع أنهم كانوا يفتقرون إلى المدفعية، فعندما خرج البرتغاليون من حمى دفاعاتهم المحصنة والمزودة بالمدافع، كان الطرفان يتساويان ويتعرضان لمصاعب فى

أرض مكشوفة لا تعوضها الانتصارات التى تمت ولا سلوى التشبث خلف أسوار وخنادق مواقعهم الحصينة.

ونؤكد أنه قبل الوجود الغرناطى فى الشمال المغربى، كانت هناك خفة وطلاقة وسهولة لدى الحاميات العسكرية المسيحية كى تتحرك وتجبر المسلمين على دفع الجزية وتحول عدداً كبيراً من السكان المقيمين فى مناطق واسعة من الأراضى التى يشملها منعطف شمال المغرب إلى "مسلمى المصالحة".

وقد هُوجمت تطوان ودُمرت فى عام ١٤٣٧، وشكلت نقطة انطلاق أو نقطة توقف للغارات التى تعمقت داخل البلاد عند أَخْمَاسْ Ajmas على مشارف الشاون.

ومن جانب آخر، فقد سار محاربو أصيلة وطنجة حتى بوابات القصر الكبير وربما فكروا للحظة فى أن يحتلوه وكذلك الأمر بالنسبة إلى العرائش.

إنه من الواضح أن البرتغال كانت تسعى إلى إقامة محمية فى مملكة فاس بادئة من الشمال حتى الجنوب. وهو نفس الشيء الذى حاولته بعد ذلك من الجنوب حتى الشمال.

وسريعاً فقد اعتمدت فى الشمال على كل مخارج البحر للدولة الشمال إفريقية. وقد مثل ذلك حصاراً اقتصاديا على مملكة فاس (بينما كان ميزة استراتيجية كبيرة بالنسبة إلى البرتغال). فمن مواقعهم الحصينة بدأ البرتغاليون فى التوسع دون أدنى مقاومة.

ولم يكن السكان الأصليون مسلحين، بل كانوا يحاربون فى أكثر الأحيان بالعِصِيِّ وبالحجارة إلى جانب افتقارهم إلى التنظيم وإلى القادة.

فكان الفلاحون المغاربة فريسة سهلة، ليس فقط بالنسبة إلى من يريد تحصين "الحدود"، بل بالنسبة إلى من يبحث عن سيطرة دائمة وعامة على البلاد.

كان ملك فاس على فترات متباعدة يدفع بجيشه نحو الشمال فى محاولة للهجوم على إحدى القلاع، أصيلة أو طنجة أو القصر الكبير. ولكن كان بلا جدوى، فلم تكن لديه موارد بشرية ولا مادية لتحقيق ذلك. على العكس كانت تلك الحملات تُغضِب السكان بشدة فقد كانت تمثل كارثة بالنسبة إليهم. من هنا كان الحماس القليل فى التعاون والرغبة فى أن ترجع تلك الحشود المسلحة كى تغزو قرى وضياع تدمرها كلها(*).

ولقد استمرت تلك الأحوال إلى فترة طويلة من الزمن. لم تتمكن البرتغال من حسم الموقف لصالحها بشكل كامل.

وهناك عامل خاص سيكون ضدها وهو قلة عدد قواتها إلى جانب كثرة الحملات.

فمنذ أن احتُلَّتْ سبتة عام ١٤١٥ وحتى احتلال أصيلة وطنجة عام ١٤٧١ مر أكثر من نصف قرن وقعت فى منتصفه الهزيمة الساحقة أمام طنجة فى عام ١٤٣٧، وهو ما غطّى على احتلال تطوان فى نفس العام.

إذن، فهكذا لم تحل تمامًا المسألة العسكرية حيث اشتدت مقاومة السكان بداية من عام ١٤٧١ وظهر اثنان من القادة أو من الزعماء المحاربين: بن راشد المغربى والمنظرى الغرناطى. وعلاوة على ذلك فقد بدأت هجرة غرناطية كبيرة جدا شكلت الفرق العسكرية الأكثر أهمية والتى سوف يعتمد عليها كلا الزعيمين.

ولم يكن الجانب العسكرى فقط هو الذى شهد انقلاباً مهما لدى وصول المنظرى، بل حدثت ظاهرة اجتماعية كاملة بسبب الحشود الضخمة من المنفيين. وهؤلاء لم يكونوا فلاحين بائسين من العصور الوسطى مغمورين فى بنية أقل من البنية الإقطاعية، بل كانوا فى غالبيتهم من الطبقة البرجوازية والميسورة واعتادوا مستوى

(*) عدم حماس السكان أدى إلى عدم تعاونهم مع الحملات، وعدم التعاون كان يؤدى إلى رغبة القوات فى معاودة الهجوم. (المراجع)

آخر من الحياة وقد ظلوا يقاومون الاندماج فى المجتمع المغربى لمدة طويلة من الوقت. وقد انعزلوا عن المحيط بهم عندما استطاعوا ذلك، وتجمعوا فيما بينهم واستفادوا من الظروف فى ذلك الحين ونجحوا فى أن يشكلوا نواة مواطنين، مثلما فى الشمال، وأن يقيموا خلال فترة طويلة من الزمن مدنًا بثت فيهم رياح الاستقلال أو على الأقل التمتع بحكم ذاتى.

كانت تلك هى حالة تطوان الغرناطية تمامًا أو حالة الشاون التى أسهم الغرناطيون فى تكوينها.

هذه الظاهرة الغرناطية من إنشاء المدن فى غاية الأهمية وستكون لها نتائج على المدى القصير أو المتوسط أو البعيد. وسريعًا، فقد تعطل تصحر الأراضى المغربية الشمالية التى كانت تعتمد على المدن التى كانت تحت أيدى السكان الأصليين.

وتوجد بؤرتان جديدتان لحضارتين متمدنتين سوف تقاومان كل الهجمات والشدائد وستظلان حتى اليوم.

وهو عامل إيجابى فى تاريخ البلاد يجب أن يُؤخذ بعين الاعتبار.

هناك عامل إيجابى آخر شكله الذين تجمعوا لرفض الغازى المسيحى وسوف يقاومون بحماس وبروح انتقام مرعبة. وسوف يقوم الغرناطيون بمنع الفلاحين المغاربة من أن يعقدوا سلامًا مع البرتغاليين وأن يتاجروا معهم. ولم يستمر السكان الريفيون فى وداعتهم وعدم مبالاتهم إزاء ما لا يمكن تجنبه ولا مقاومته من القوى المضادة. وقد تبدد الحلم البرتغالى فى إقامة محمية دائمة إذا تم احتلال مملكة فاس فى المستقبل.

منذ وصول المهاجرين لم يعد هناك سلام فى شمال المغرب.

وعلى المدى المتوسط سوف تكون هناك عواقب أخرى ليست أقل حسمًا. وسوف يشكل الغرناطيون خيرة قوات السلطان، وكذلك الزعماء الرئيسيين وحكام الأراضى، وفى لحظة حاسمة سيكون المحاربون الأندلسيون المنضمون إلى الجيش المغربى هم

العامل المحدد فى هزيمة الملك السيد سيباستيان فى معركة القصر الكبير، وهو نهاية حلم كان يداعبه لفترة طويلة.

وكان المؤرخون يتساءلون أحيانًا لماذا لم يستطع المنفيون الغرناطيون الكثيرون - الذين كان المنظرى يمثل فيهم رمزًا دلاليا - أن يوقفوا امتداد العصر الوسيط المغربى الذى أصاب البلاد بالشلل لعدة قرون.

وطبقًا للبعض، فإن احتلال الواجهات الساحلية للمغرب جعل المغرب يظل على هامش التيارات التجارية والفكرية الكبيرة التى أشاعت الحيوية فى العصر الحديث فى أوروبا.

أما البعض الآخر فيعتبرون على العكس، فهذه الهجرة قد عرقلت التطور الطبيعى للمجتمع المغربى وأثرت فيه سلبًا.

ولنضع حدا لتلك التبريرات التى يمكن أن تُعرض، ولا ينبغى أن يُنسى فى المقام الأول ثقل السكان المغاربة فى تلك الهجرة الأجنبية الضخمة، وفى المقام الثانى فإن أولئك المهاجرين (لم يكونوا يحملون فى طياتهم بذرة الحداثة التى كان يمكن أن تكون عامل جذب، فالحضارة الغرناطية كانت أيضا مصابة بالشلل).

آثار المنظرى فى تطوان:

ليس من الصعب أن نجد ذكريات للمنظرى فى المدينة التطوانية القديمة. إن نواة السكان التى تطورت المدينة من خلالها كى تستقبل مهاجرين كثيرين، نجدها حول ما يسمى برج أو قلعة المنظرى.



إحدى زوايا حصنى المنظرى

زاوية قصر- قلعة المنظرى.

وكانت تنقصنا المستندات والوثائق، فقد عثرنا على أحجار وطوب، والمذكرات المجموعة فى الرسائل والأخبار كلها بصفة عامة فى أرشيفات أجنبية(*).

وربما كانت هناك سيرة لتاريخ القديسين أو أسطورة ذات طابع دينى تتضمن أخبارًا مغربية وخاصة فى فترة العصور الوسطى، وينبغى أن نعرض ما كتبه مؤلفون أجانب من أمور ينكرها السكان المحليون غالبًا.

ولكى نتعرف على نطاق المدينة الأصلية التى أسسها المنظرى بشكل مثالى، فكما عرضنا فى أحد الفصول السابقة، سنعتمد على ثلاثة كتاب معاصرين للمنظرى: ليون الإفريقى، القائد غَايْتانْ Gaitan ، وبعد ذلك بقليل يوسف الفاسى ومارْمُول.

إن بوابات السور التى يتحدث عنها الفاسى وضعها المؤرخ داود فى المواضع التالية للمدينة:

"كانت إحدى تلك البوابات فى الجزء الشمالى الشرقى للمدينة، وهى ما تعرف باسم باب السِفلى Sefli، وذلك لأن مخرجها يؤدى إلى سهل منخفض للمدينة وينتهى عند شواطئ البحر. ونفهم أن مكان تلك البوابة هو القوس الموجود عند شارع سلوقية بجوار سيدى السعيدى، بينها وبين أحياء المسجد الكبير والمطمار Metamar . وكانت البوابة الثانية بجانب الزاوية النصارية وصولا إلى الفندق المعروف بفندق النجار. أما بالنسبة إلى البوابة الثالثة فكانت فى الجزء الغربى للمدينة. ويعتقد الغالبية أنها كانت بين شارع السياجين والخرّازين فى القوس المعروف بقوس السيفين"(٢) .

ولم تصل أىٌّ من تلك البوابات إلينا فى صورة بوابة. ومع ذلك فنعتقد أنه فى زمن المنظرى قد تغير بعض منها عند توسعة وزيادة المدينة. وبطبيعة الحال ليست كذلك كما

(*) لا نمل الحديث عن نقص الوثائق العربية فيما يتعلق بالقرون الماضية. نأمل أن تكون قضايانا المعاصرة أفضل حالا من هذه الناحية. (المراجع)

نعرفها الآن ولكن نعرفها تقريباً فى مكانها الحالى. وتشتمل البوابة الأولى على ضريح سيدى السعيدى وعلى أحد الأحياء الذى أصبح مستشفى الأشراف فيما بعد، وهو غير موجود اليوم.

وتفتح البوابة الثانية على طريق تطوان- سبتة القديم وعلى المقابر أو باب سبتة أو باب المقابر فى هذه الأيام.

وأخيراً نعتقد أن البوابة الثالثة من الممكن أن تكون باب الشريعة Xariaa أو بوابة المشوار Mexuar كما يسميها البعض وهى قريبة جدا من جامع القصبة أو من مسجد المنظرى ومن الأبراج والأسوار القديمة التى تم الاحتفاظ بها.



بوابة سبتة أو باب المقابر داخل المدينة القديمة.



قوس قديم فى المدينة الغرناطية القديمة.

ويفتح باب المقابر أو بوابة سبتة على طريق تطوان القديم المؤدى إلى سبتة وبالكاد يمكن الخروج منه، ويوجد إلى اليسار المقبرة الأكثر قدماً والتى ترتفع أراضيها حتى تبلغ القصبة فى المدينة وقد أنشأها المنظرى كذلك.

ويمكن الوصول اليوم إلى باب سبتة مباشرة وقد أعيد ترميمه. كان باباً طريقه منحن، ومن المحتمل أنه كان الباب الأكثر أهمية فى السور المحاط بالجدران. وكان على أسوأ أعداء الغرناطيين وهم المحاربون البرتغاليون من سبتة أن يصلوا إلى هنالك، ومن خلال هذا الباب يخرج المقاتلون التطوانيون كى يهاجموا حقول سبتة.

كان هذا الباب بالتالى يشكل أحد أطراف طريق سبتة - تطوان القديم، وهذا الطريق يوجد حتى الآن ويمر ببساتين فى الجزء من أعلى، وعلى يسار الطريق الحالى لا تزال هناك بعض الأجزاء المعبدة بالحجارة وهى تشبه بقايا طريق رومانى، وقد نسب بعض المؤلفين ذلك إلى العصر الرومانى(٣) .

وتحاط الناحية الشمالية لهذا الطريق بالمقابر، فى أوله مقابر المسلمين وبعد ذلك بمسافة كبيرة توجد مقابر اليهود أو مقبرة قشتالة على ربوة.

وتعود القباب أو المصليات الصغيرة إلى عصر المنظرى وهى خاصة بمدافن أفراد عائلة بنى نصر الملكية. القباب التطوانية متناثرة على طول الربوة القريبة من بوابة سبتة وهى شبيهة بمقابر بنى مرين فى مدينة فاس. وكل هذه المقابر تابعة من الفن الجنائزى الذى تطور فى شمال إفريقيا، وربما كان هذا هو شكل الضريح الأكثر قدماً فى الغرب ثم بُنى فيما بعد فى مملكة غرناطة الإسلامية.

يتكون المدفن من قبة نصف كروية مرفوعة فوق أرض مربعة من خلال قاعدة أسطوانية ذات ثمانية أضلاع.

ولا تتجاوز قاعدة المربع أربعة أو خمسة أمتار من الجانب المربع بصفة عامة مفتوح من ناحية واحدة مع قوس على شكل حدوة الفرس. وللقبة أحيانًا قوسان على هيئة حدوة الفرس من الجانبين[٤] .



أحد أضرحة النبلاء الغرناطيين العديدة فى مقابر تطوان القديمة ويوجد الضريح الخاص بالمنظرى فى الجزء الأسفل من هذه الربوة.

وهى مبنية من الطوب ومن الحجارة وتنتهى الحوائط بشرفات مزخرفة ذات درجتين.

والبوابة أحيانا تكون على شكل قوس طرفاه مستقيمان يكوٌنان مستطيلا فى الجزء الأسفل.

وبعض المقابر ليس لها الشكل المربع ولا القبة التقليدية، بل تشبه بوابة كبيرة مفتوحة على كوة لها قبة ذات أعمدة أسطوانية. ومن المحتمل أن بناء تلك الأضرحة كان بعد بناء الأضرحة الأخرى ذات القاعدة المربعة والقبة.



باب الرموز أو باب الهلال، وهو بوابة

على امتداد تحصينات المنظرى نحو وادى نهر المرتيل.

إن القباب التطوانية والتى تعد أحد النماذج الأكثر إمتاعًا وأهمية فى عصر المنظرى قد اختفت بعدما أصيبت كلها بالضرر الشديد تحت عامل الزمن والإهمال البشرى.

يقول داود "إن أول ما شُيِّد كان حى البلاد وخصوصًا الجزء الموجود بين مسجد القصبة، والمسجد الكبير وبين مسجد الرابطة"(٥) .

وطبقا لإسكيرى Esquirey فإن المطرودين قد بنوا منازلهم خلال السنوات الأولى وأقاموا بجانبها حدائق كما كان الناس يفعلون في ذاك العصر، ولكن نسى الناس بعد ذلك تلك العادة بسبب قلة الأراضى حيث زاد عدد السكان قبل بناء الأحياء الجديدة.

يقول داود إن جامع القصبة كان المسجد الرئيسى، وبالإضافة إليه كان جامع الرابطة ينتمى إلى زمن مؤسس تطوان، وطبقًا لإسكيرى Esquirey فقد أمرت امرأة غرناطية معاصرة للمنظرى ببنائه وكذلك أمرت ببناء جامع السوق الفوقى.



مئذنة مسجد الرابطة التى آمرت امرأة غرناطية فى عصر المنظرى ببنائها.

هذه المساجد الثلاثة إلى جانب جامع لالا فريجة في تيبين Tabbin في خارج المدينة كانت تشكل في بادئ الأمر الأماكن الدينية بالنسبة إلى المهاجرين. وكان مسجد سيدي مصباح حينذاك خارج المدينة و كان مجرد ضريح لأحد العُبَّاد المبجلين وهو عبارة عن صومعة أو مصلى صغير يعود أيضا إلى فترة التأسيس.

وهناك بعض المنشآت الأخرى من فترة التأسيس الباقية حتى الآن أو يُذكر أنها من عصر المنظري وهي: الحمَّام الذي كان يحمل اسمه ويعرف باسم حمَّام السْتيتو el stitu، والفرن الذي كان على مقربة من جامع القصبة، ومداخل كثير من منازل حي البلاد وبعض الأقواس المشيدة بأحجار ضخمة ومن بينها القوس الذي يفصل جامع القصبة عن باب المقصورة وقوس آخر في منتصف الشارع الممتد بين شارع مطمار Metamar وبين مسجد بن صالح الساجد as-Sajit وقوس آخر في الشارع الصغير الذي يسمى شارع زمعان Zamaan .

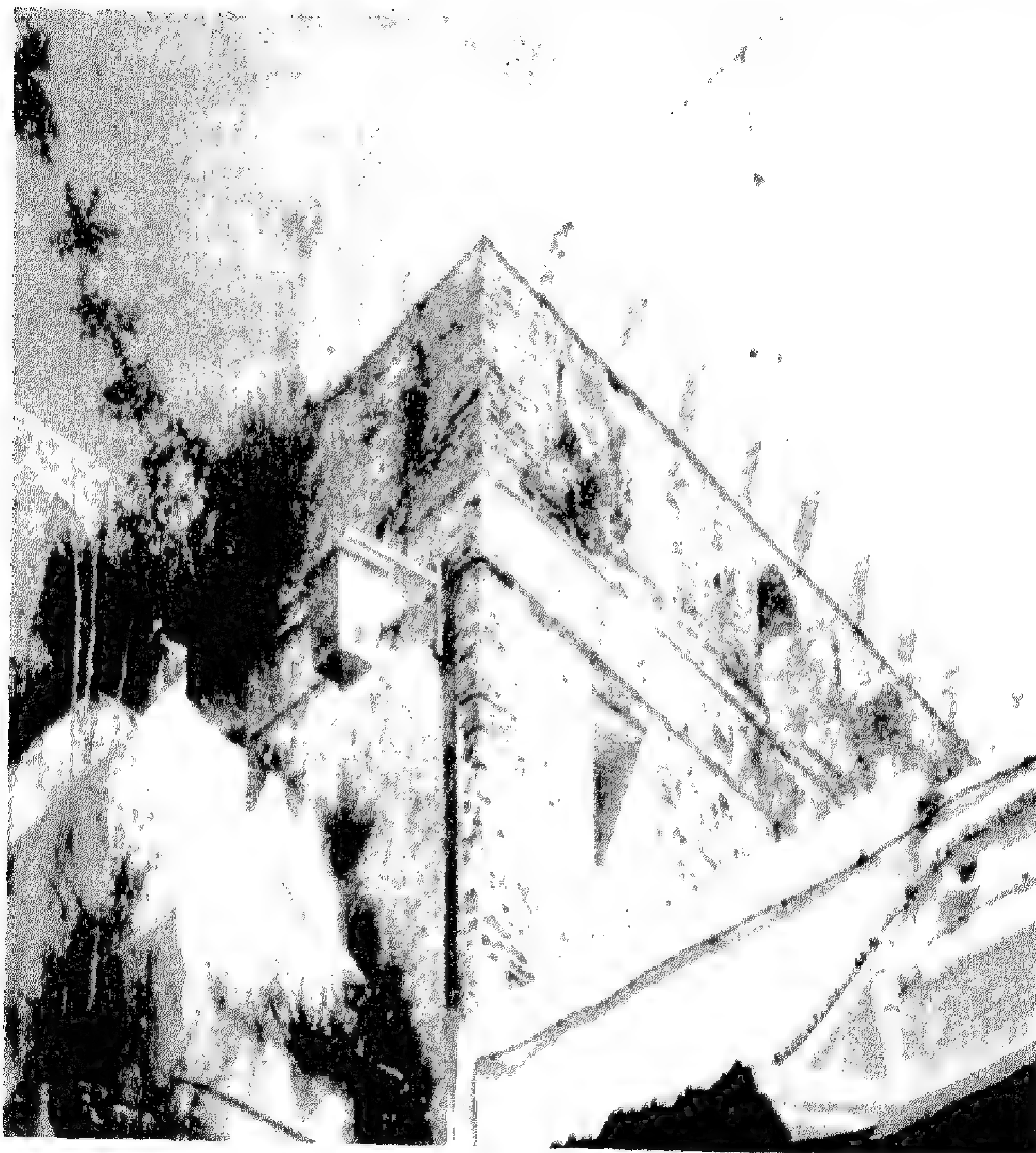
"وعمومًا فكما هو معروف، فالشوراع والأزقة التي كانت توجد في تلك المنطقة كلها لم يتغير مظهرها منذ أن أقامها الأندلسيون".

ويذكر إسكيرى، الذي توفي في منتصف القرن الماضي، أنه عُرف في زمانه البيت الذي بناه المنظري للسكنى العائلية وكان يسمى بيت السك أو بيت العملة وهو قريب من سوق السمك.

وقد نسب إلى المنظري إنشاء المحكمة الشرعية التي يقول داود إنها كانت في نفس المكان في عام ١٩٣٥(٦) .

وانطلاقًا من الوصف الموجز الذي قدمه الفاسي فقد أراد داود إعادة إنشاء سور المدينة القديمة الذي كان منذ التأسيس الغرناطي عندما أسسها الغرناطيون.

وقد أُريد إنشاؤه بحيث تحده القلعة في إحدى الزوايا، وهذه الزاوية هى الركن الجنوبى الغربى للأسوار "هى الحصن الذى وصل إلى أيامنا هذه فى الزاوية الجنوبية لسوق السمك القديم وهو الذى يظهر فى شارع الساقية الفوقية".



برج محصن على مقربة من قلعة المنظرى.

والقلعة أو البرج تشكل بكل أبراجها وأسوارها واحدة من أفضل ذكريات الفن الحربي للمدينة التي أُنشئت حديثًا. ومن مميزات هذا الفن الذي أتى من شبه الجزيرة تلك الزوايا المزينة بشرائط من الطوب الكبير التي تشكل إطارات لألواح من الحجارة غير المصقولة، ويستخدم الطوب كذلك لتزيين فراغات المدفعية بأقواس مغلقة ذات فصوص تشكل قوسًا على شكل حدوة الفرس، ومرام للسـهام متدرجة مشربة بطابع عام لقلعة لا تخلو من جمال وهو على طراز القوطيين الأواخر في شبه الجزيرة، والتي بالتأكيد عرفها الموريسكيون المؤسسون لتطوان الجديدة.

والمنحدر القوى للقاعدة في كثير من الأبراج وكذا شكلها المتعدد الزوايا، والمهمشة أحيانًا، تذكرنا بالقلاع البرتغالية التي أُنشئت في ذلك الوقت في كل الشمال المغربي. ويذكر لنا المؤرخون المغاربة أن المنظري قد استخدم كل العبيد المسيحيين الذين قُبض عليهم في إعادة بناء الأبراج والأسوار، وينبغي أن نشير إلى أنه كان من بينهم الكثيرون من البرتغاليين الذين وقعوا تحت يديه خلال المواجهات الحربية المتتالية في المنطقة.



صورة لإحدى زوايا السور المحصن،

وهى تنتمى بالتأكيد إلى السنوات الأخيرة من حكم المنظرى.

وكان السور متجهًا من برج المنظرى أو من الزاوية الجنوبية الغربية نحو الشمال حتى ميدان الغرسة الكبيرة Garsa el Quibira، وذلك كى يصل إلى قوس الصفارين Sefayin، الذى كان يفصل المدينة القديمة عن الغرسة الكبيرة التى كانت أرضًا زراعية بلا بناء كما يشير اسمها.

لا يزال السور يتجه نحو الشمال حتى جبل درسة إلى أن يصل إلى المقبرة، ومن هنا يلتف نحو الشرق حتى يصل إلى قرب باب الأموات الحالى (باب الجياف) Bab al Yiaf . وبعد ذلك يتحول نحو الجنوب حتى يصل إلى زاوية سيدى ابن الفقيه، وفى النهاية يتجه نحو شارع الساقية الفوقية وبرج المنظرى(٧) .

وقد حاولنا أن نتابع الطريق الذى رسمه داود فى خريطة صممها للمدينة فى عام ١٨٦٠ حيث أعاد إنشاء مستطيل يمثل جزءًا خامسًا أو سادسًا للأرض التى سيشغلها المهاجرون الجدد فيما بعد، فشكلوا تجمعات كبيرة فى الغرب والجنوب من هذا السور.



برج دفاعي كبير وسط الأسوار من عهد المنظري.



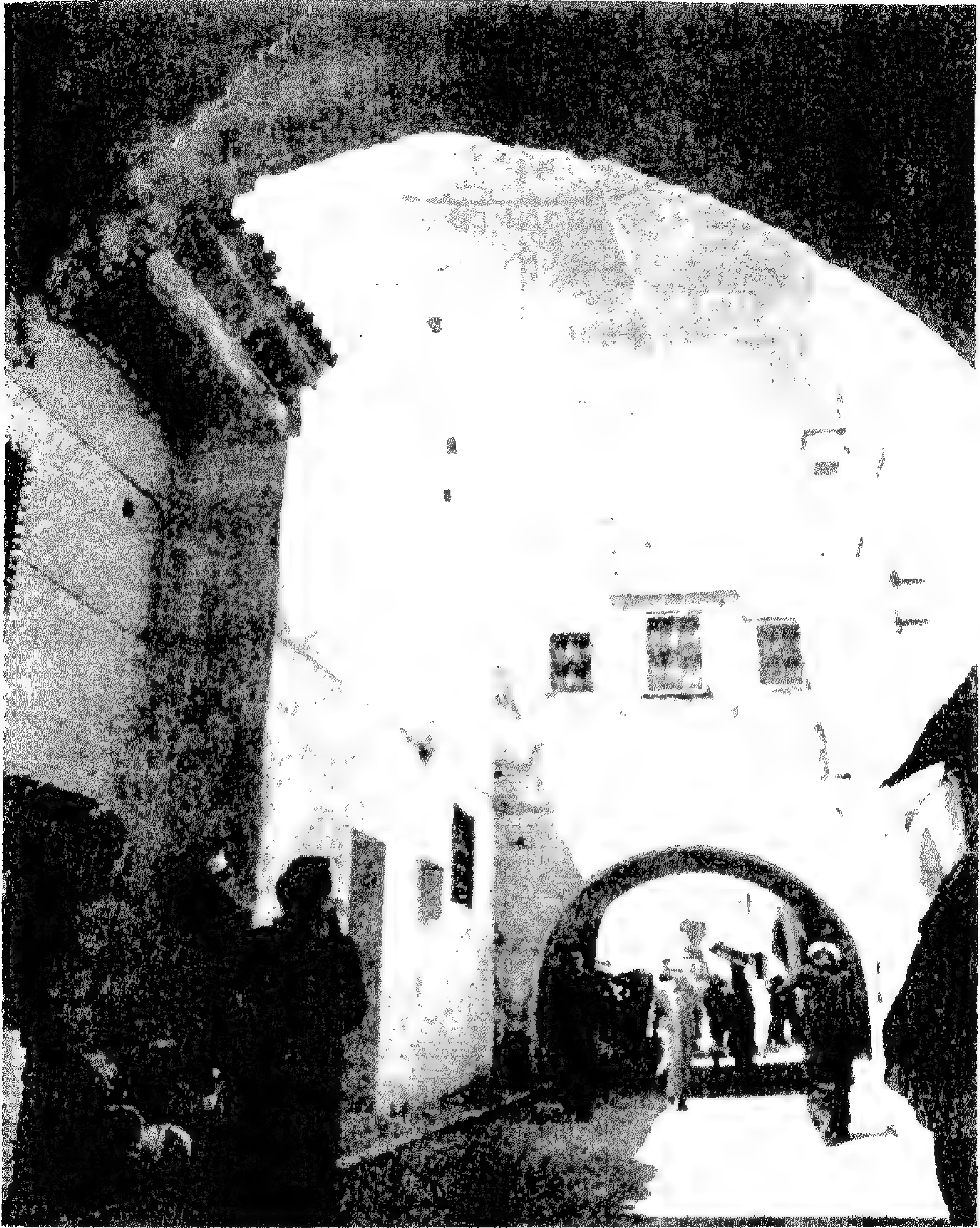
تحصينات المنظرى القريبة من القلعة.

وكان هناك خارج السور مسجدان، هما مسجد تيبين ومسجد مصباح أشرنا إليهما سابقا، وسيشكل كل واحد منهما حيًّا مستقلا وسيتم توسيع الأسوار نحو الجنوب.

والأسوار فوق المنحدر الصخرى لحى أنجرة Anyaris الذى أسسه تيبين، فيها أجزاء تبدو مدجنة أكثر من المحيط الأصلى(*) ومن المفترض أن تكون قد أُنشئت فى حياة المنظرى الذى أدرك موجات الهجرة الكبيرة التى أدت إلى توسيع السور الأصلى للمدينة.

لذلك يجب أن نعتبر أن إعادة بناء المدينة قد مرت بمرحلتين أو أكثر؛ ذلك النصف قرن من حكم المنظرى، استغرق الربع الأول من القرن فى تحصين منطقة صغيرة يعيش بها سكان قليلون يقيمون فى بيوت واسعة محاطة بالحدائق وبها ثلاثة أو أربعة مساجد كافية لعدد السكان. ويتميز الربع الثانى من القرن بإنشاء بنايات كثيرة للمعيشة، وبقلة الأراضى، وبالكثير من الأحياء القديمة مع إقامة العديد من الأسوار والمساجد الكبيرة التى أنشئت من أجل العبادة.

(*) يتحدث هنا عن الأثر الغرناطى فى الأسوار ، وكلمة "مدجن" صفة المسلم الذى يقيم فى الممالك المسيحية فى إسبانيا ، وتطلق كذلك على فنونهم المعمارية وغيرها. (المراجع)



فى حياة المنظرى كان لا بد من توسعة الأحياء القديمة بسبب هجرة الغرناطيين الكبيرة، وإقامة أحياء أخرى جديدة مثل حى العيون Ayun .

من المحتمل أن تكون القصبة قد أُنشئت فى الفترة الثانية فوق جبل درسة، إذ أن الفاسى ينسبها كما نعرف إلى المنظرى. وعلى مدى التاريخ كانت القصبة قد رممت وأعيد ترميمها وهدمت وأعيد إنشاؤها وكانت تربط الزاوية الشمالية الغربية للأسوار، وكانت تمثل فى نهايات القرن الماضى المظهر التالى:

"تسيطر القصبة على المدينة بارتفاع يبلغ أربعين متراً. وقد أُنشئت على طرف مصطبة فى جبل درسة على ارتفاع يبلغ ثلث ارتفاع الجبل تقريبًا على هيئة هضبة مائلة قليلا وطولها مائة متر. وفى الواجهة شكل ذو أربعة أضلاع غير متناسق تمامًا ويحميه برجان صغيران كان أحدهما فى الغرب ذو خمسة أضلاع يحتوى كل منها على فتحات للرماية، والآخر ناحية الشرق ذو أضلاع وفتحات. وفى الجنوب مقابل تلك الأبراج توجد سريتا مدفعية فى البرجين، كل منهما على شكل مربع . وكانت الأبراج والحصون قليلة الارتفاع حيث تمثل نصف طولها الكلى تقريبًا، وقاعدتها مسطحة ومتسعة وهو ما يجعلها قوية جدا ويثبتها على الأرض.



كان المنظرى قد بدأ إنشاء القصبة التطوانية أيضا

فى أواخر سنوات حكمه.

وفى الوقت نفسه تعطى الشكل مظهراً كثيفًا ومتينًا خاصا به ورائع المنظر. وكان السور ذا شرفات وبه فتحات للرماة، تمر من برج لآخر، ومن حصن لآخر وهكذا حتى ينتهى سور القلعة"(٨) .

ومما لا شك فيه أن القلعة كان قد أعيد بناؤها لأنه فى عصر مارمُول فى النصف الثانى من القرن السادس عشر كانت هذه القصبة – التى تمثل جزءًا كبيراً من السور المحصن – ذات منظر يُرثى له.

ويظهر وصف مارمُول بوضوح أنه لدى البدء فى توسعة المدينة لم تكن لدى الأسوار الجديدة المظهر والمتانة التى كانت تميز الأسوار القديمة.

ويتحدث مارمول كذلك عن الخنادق التى يؤكد وجودها شهود كثيرون لكنه وجدها قد رُدِمَتْ ولم تعد تؤدى وظيفتها الأساسية.

ومن هنا وطبقًا له: " فإن مدينة تطوان لم تكن قوية، لا من حيث الموقع ولا من حيث العمارة، وذلك لأن أسوار الحاجز كانت منخفضة جدا وكانت من الطوب اللبن وكان كل خندق مليئًا بالتراب، ويمكن الوصول إلى السور عبر أجزاء كثيرة وكذلك من خلال ناحية الباب الكبير وباب المقابر التى كانت عبارة عن مقبرة للمسلمين. وكانت موضوعة على هضبة وكانت هناك فى أقصى الارتفاع فى الجزء الشمالى قلعة صغيرة، تسمى قلعة الديب **castil de adibes**، تحيط بها الحواجز الطوبية. وفى الجزء الخارجى من باب القلعة حيث يمكن النزول إلى ضاحية المدينة كان هناك حصن ذو ثلاث طوابى عالية ردمها التراب..."(٩) .

ولا نعرف ما إذا كان النظام الدفاعى قد بدأ فى التدهور فى حياة المنظرى أو فى عهد خلفائه، ولكن ما هو واضح جلى أن هناك مجموعة أصلية أكثر صلابة وفاعلية من تلك التى رآها مارمُول حيث يتحدث عن خنادق قد رُدِمَتْ، وعن أسوار منخفضة من الأرض وعن حوائط من الطوب اللبن.

ويقول التراث، كما في الشاون إنه عندما كان يتم إنشاء أحد الأحياء الجديدة كان على سكان ذلك الحي أن يقيموا أسواره ويربطوها بأسوار الحي القديم المحيط به.

وهكذا، اعتماداً على الجهود الخاصة التي لم تكن خبيرة بهذه الأعمال، فلا يدهشنا أن الحوائط كانت تشبه قوالب طوب المزارع أكثر من كونها أسواراً دفاعية.

قلاع ومساجد، أسوار ومعابد، هي كل ما بقي لنا من هؤلاء الغرناطيين التطوانيين الأوائل. فالمطلب الحربي والمطلب الديني هما عمودان يشكلان حياة المطرودين. والدفاع عن النفس ضد المحيط العدائي الجديد حيث استقر بهم المقام، أما بالنسبة إلى المطلب الديني فليس ضروريا التشديد على القيمة الأخلاقية التي كانت تمثل للمهاجرين إقامة شعائر الدين الذي اضطرهم أن يفقدوا روابط أخرى عميقة، ولكنها أقل صلابة من عقائدهم ذات الأهمية الكبرى.

وظلت تلك الأجزاء الكاملة من الأسوار والأبراج الرئيسية والأعمال الأخرى الصغيرة في المدينة القديمة لبضعة قرون، بل استمرت حتى يومنا هذا. ويكفي أن نذكر أنه حتى الآن تحتفظ ذاكرة التطوانيين القدامى بصورة فدان Feddan القديمة أو الساحة خارج المدينة التي تحولت إلى نقطة الانطلاق لما سمي الحي الجديد، نواة مدينة تطوان الحالية.

حسنًا إذن، إن هذا "الفدان" أو ساحة الحسن الثاني الحالي، كان مكانًا واسعًا محاطًا مباشرة بأسوار المنظري وبقلعته، وهذا يمكن أن يظهر من خلال صورة لحرب عام ١٨٦٠[١٠] .



أبراج وأسوار فى الجزء الغربى من المدينة عام ١٨٦٠ .

(المكتبة العامة والوثائق فى تطوان).

كذلك يوجد فى "فدان" توسعة المدينة نحو الغرب ويحتفظ كل الجزء الغربى تقريباً بتحصيناته، ويتضح فى الصورة ثلاثة أبراج ومستطيلان ومضلع آخر فى المنتصف.

وتوجد نفس الأبراج والأسوار إلى اليوم ولكنها تختفى وراء بنايات أخرى، على الرغم من أنه يمكن رؤيتها من جهات مختلفة من المدينة.

أما بالنسبة إلى المبانى الدينية، فقد أعيد زخرفتها وبناؤها ولم يكن ذلك بشكل مناسب دائماً ومن الصعب التأكيد على بنيتها الأولى. ولنذكر أنه مع الاحتلال الإسبانى فى عام ١٨٦٠ تحول الكثير من تلك الأماكن إلى استخدامات مختلفة كإسطبلات للدواب أو مسارح على سبيل المثال.

ومن المحتمل أن تكون المآذن فقط هى التى ترشدنا لكى نعرف التسلسل الزمنى الدقيق لبعض المساجد مثل مسجد الرابطة أو مسجد لالا فريجة Lal-la Friya .

ومن خلال ما تم طرحه يتضح وجود آثار وبقايا كل أنواع البناء المتناثرة هنا وهناك فى بعض الأماكن مما يجعلنا نفكر فى وجود أثر غرناطى فى نفس فكرة إعادة بناء تطوان.

وبالإضافة إلى ذلك، فمعرفة الطبقات الاجتماعية والاقتصادية التى كانت موجودة فى المغرب فى تلك الحقبة التاريخية، يُظهر للعيان أنه إذا كان هناك عنصر بشرى قادر على إنشاء مدن فى تلك البلاد فى نهايات القرن الخامس عشر، فهذا العنصر البشرى لا يمكن أن يكون سوى المهاجرين الغرناطيين حيث كانت حشودهم الأولى مكونة من طبقات اجتماعية لأوساط حضرية غزاها المسيحيون فيما بعد.

ولقد جلب الغرناطيون هذه الطريقة الحياة المغربية فى تلك الفترة التى يمكن تحديدها فى نفس قرن غرناطة فى المغرب، إن لم يكن قبل ذلك بكثير منذ القرن الثالث عشر وبعد ذلك بفترة وحتى القرن السابع عشر، بحيث يمكن أن تعتبر المغرب امتداداً أخيراً للأندلس بشكل عام ولغرناطة بشكل خاص.

الهوامش

(١) أسطورة جمعها Clemente Cerdeira من Esquirey في مقال حول نفس الموضوع في مجلة Hispa-no-africana . يناير ١٩٢٣، العام الثاني، العدد الأول، ص: ١٨ .

(٢) DAWD: Pág. 92.

(٣) CASTELLANOS, Manuel: Historia de Marruecos. Tánger 1898. Nota 1. Pág. 40.

(٤) MARCIAS, GEORGE: L'Architecture musulmane d'Occident. París 1954. Págs. 299 a 301.

(٥) DAWD: Pág. 93.

(٦) DAWD: Pág. 94.

(٧) DAWD: Pág. 91.

(٨) JOLY, A.: "Tetouan". Archives Marocaines. V. 1905. Págs. 250 y s.

(٩) MÁRMOL CARVAJAL, Luis del: Libro 4. de la Descripción general de Affrical del reino de Fez" Granada 1573, Fol. 131 Vt.o.

(١٠) محفوظ في القسم الخاص به في المكتبة العامة والأرشيفات في تطوان.

ملحق وثائقى رقم : ١

الانهيار الحقيقى لمدينة تطوان

الأطلال التى أعاد إنشاءها الغرناطى أبو الحسن على المنظرى لم تكن هى الأطلال التى تركها القشتاليون من قوات إنريكى الثالث فى عام ١٤٠٠ .

وعلى افتراض أن تلك الحملة قد تمت فمن الممكن جدا أن تكون تطوان التى ظنوا أنهم هدموها لم تكن سوى منطقة آهلة بالسكان قريبة من البحر ومن نهر المرتيل حيث تأوى سفن القرصنة وربما فى منحنيات النهر بالقرب من بنى معدان.

ولم تلحق بمدينة أو قلعة تطوان فى أسفل جبل درسة أى ضرر من جراء حملة عام ١٤٠٠ . هذا إذا كانت الحملة قد تمت أصلاً.

يدل على ذلك الأخبار الكثيرة عن تطوان ومحاربيها الذين كانوا على الحدود فى صراع مع الحامية العسكرية البرتغالية لمدينة سبتة، حيث تروى كل التواريخ الإخبارية البرتغالية فى ذلك العصر المعارك الحربية منذ احتلال مدينة سبتة عام ١٤١٥ وعلى مدى القرن الخامس عشر حتى عام ١٤٣٧ .

وقد حدث الانهيار الحقيقى لمدينة تطوان فى ربيع عام ١٤٣٧ وذلك على أيدى البرتغاليين فى مدينة سبتة بأمر من السيد دوارتى دى مينيسيس ابن السيد بدرو القائد العام للموقع.

إن سيرة السيد دوراتى الذاتية والتى جمعها إنييس دى أثورارا Eanes de Azu-rara بأمر من ملك البرتغال ألفونسو الخامس الذى احتل القصر الصغير وأصيلة

وطنجة، تحتوى على العديد من المآثر الحربية منها الاستيلاء على مدينة تطوان وهى المدينة التى دمروا فيها منازل وبوابات وكل ما لم يستطيعوا حمله معهم.

وقد أمر السيد دوارتى بنفسه أن يهدموا ويحرقوا كل ما يستطيعون الحصول عليه.

ولم يعد التطوانيون إلى المكان بعدما تركه البرتغاليون ولم يحاولوا بناء المدينة من جديد.

وقد ظلت المدينة غير آهلة بالسكان حتى أعاد الغرناطيون بناءها فى عام ١٤٨٥ أو ١٤٨٤، وهذا معناه أن المدينة ظلت أطلالاً ما يقارب من نصف قرن. إذن فقد ولدت تطوان غرناطية فى مرحلتها النهائية كمدينة فى شمال المغرب.

وهناك مظهر آخر يجب أن يؤخذ فى الاعتبار: سواء أحدثت حملة الأسطول القشتالى فى عام ١٤٠٠ أم لا ، فقد اختفت القرصنة فى نهر المرتيل لأننا لا نجد أى نشاط بحرى فى الشواطئ التطوانية حتى أعاد التطوانيون إنشاء مدينة تطوان وأنعشوا ملاحة القرصنة.

وبالتالى فإن الغرناطيين المؤسسين للأساطيل الجديدة فى ناحية تطوان هم الذين تصدوا للملاحة المسيحية فى جنوب نهر ألبوران، وفى مضيق جبل طارق وعلى الساحل الأطلنطى حتى مصب نهر لوكوس **Lucus** فى العرائش.

وكانت هناك فى الأخبار البرتغالية فى ذلك العصر صدًى ليس فقط عن الأندلوثيين الذين قدموا مع المنظرى وخاصة الجنود الغرناطيون المهرة، بل أيضا عن القوارب الاستكشافية لأسطول المنظرى بشكل عام.

وقد عاد قراصنة تطوان للشهرة مرة أخرى، وسوف تواجه المملكة الإسبانية قرنًا بعد آخر المنحدرين من المهاجرين الغرناطيين الأوائل.

وحتى لا نخرج من نطاق هذه الدراسة فلن نذكر الدور المهم الذى قام به المهاجرون الغرناطيون ليس فقط فى تأسيس تطوان، بل فى التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى للمغرب فى ذلك الحين.

وسنورد نسخة مصورة من إحدى صفحات الجزء الخاص "بأخبار السيد دوارتى دى مينيسيس" لغومِسْ إيَّانِس دى أثورارا وقد أعيد طبعها فى لشبونة فى عام ١٧٩٢ وهى تتحدث عن الانهيار الحقيقى لمدينة تطوان.

نحسب أن المؤرخين الإسبان من الآن فصاعداً لن يعلقوا على أخبار تدمير مدينة تطوان على أيدى الأسطول القشتالى لإنريكى الثالث فى عام ١٤٠٠ .

Suponemos que, en adelante, los historiadores españoles, no comentarán ligeramente la noticia de la destrucción de Tetuán por la escuadra Castellana de Enrique III en 1400.

fronteiros, leixando porém dous pera se certeficarem melhor. E como Dom Duarte chegou, e elles sentiraõ a soma da gente, acabaraõ de crer que todo o feito era sobre aquella sua Villa, e alli se trigarom muito mais pera avisar os fronteiros; ca outra gente nom havia já hi, ca tanto que foraõ certos da passagem dos Infantes, se partirom do lugar tomando esse prove fato que tinhaõ, espalharomse pera essa serra. Mas se os moradores teverom temor d'estar no lugar, nem os fronteiros nom quiserom ser mais ardidos que elles, ca tanto que os dous de pee chegarom com a certidom da gente que era, assi tomarom isso de que se mais doyaõ, e ou o metiaõ per esses matos, ou o levavaõ ante si, e partiromse do lugar deixando dous homens dentro que fechassam as portas, e tambem pera lhe fazer sinal, se per ventura os Christãos nom fossem sobre aquelle lugar. Chegou Dom Duarte ácerca da Villa, e os dous Mouros lançaramse per cordas fora do muro, leixando as portas fechadas, e os nossos como chegarom huns a quebrar aquellas çarraduras, e outros apoer escadas de maõ sobre os muros, e como nom tinhaõ contrairo ligeiramente cobraraõ o que queriaõ, e tanto que se viraõ dentro começarom de destroir as casas, e portas, e essas outras cousas que nom eraõ pera elles levar, e que aos Mouros aodiante poderia aproveitar. E vendo Dom Duarte como nom tinha hi açalmo pera ter assi aquella fortalleza; houve acordo com esses Fidalgos de mandar derribar os portaes, e destroir todo o al que podessem, e que se tornassem pera a Cidade, como de feito fezerom. E alli mandou Dom Duarte a seu primo Dom Fernando de Menezes que alli era, que apartasse duzentos de cavallo, e que se fosse pello campo afundo, porque se alguem de Benamade acodisse, que os empachasse, e elle com a outra gente encaminhou pera o porto, e despois que o leixou guardado foisse ao mar, onde ficavom as fustas, e esteve ataa que embarcou a gente de pee, e desi esperou Dom Fernando. E como quer que se os Mouros juntassem pellas serras, taõ atimorizados estavaõ

já

ملحق وثائقى رقم : ٢

زوجة المنظرى الغرناطية

هناك موضوع ناقشه العديد من الكتاب المغاربة المهتمين به، وهو تاريخ وصول المنظرى إلى المغرب.

والكل يعتمد تقريبًا على تأكيد ليون الإفريقى الذى اعتبر أن وصول المنظرى كان متزامنًا مع وصول الملك أبى عبد الله إلى مدينة فاس.

وبما أن تأسيس أو إعادة بناء مدينة تطوان على أيدى الغرناطيين المطرودين ربما قد حدث قبل تلك التواريخ - طبقا لتلك المصادر المغربية - فإن هناك اختلافًا فيما بين الكتاب، حيث يؤكد البعض منهم أن الغرناطيين هم الذين أسسوا مدينة تطوان، لكن ليس بأمر من المنظرى ولكن بأمر من سيدى على بن راشد مؤسس الشاون.

والبعض الآخر لم يستطع أن يحل المشكلة المتعلقة بالتواريخ ووقع فى غموض تاريخ العصور الأولى لمدينة تطوان.

أما نحن فنؤكد على حدثين أساسيين:

أولاً: أن المنظرى كان قد هاجر إلى المغرب قبل الملك أبى عبد الله بكثير، وثانيًا: زعامته المؤكدة للمهاجرين وكذا إعادة بناء مدينة تطوان.

والمعلومة التالية متعلقة بكلا الحدثين وهى متعلقة بزواج فاطمة من قائد تطوان.

فعلى الرغم من أن بعض المؤرخين قد ذكرها، فلم ينسب أحد منهم ذلك للمنظرى وبالتالى لم يبرز أحد منهم أثر هذه الواقعة فى تأسيس تطوان ووجود مؤسسها.

ومن الممكن أن يؤرخ الحدث فى عام ١٤٩٠، عندما كان ماركيز مونديخار القائد العام للحدود الغرناطية – وكان مقره فى ألكالا لا ريال – وقد ذكر الحدث فى إحدى المخطوطات غير المنشورة الموجودة فى أكاديمية التاريخ Academia de la Historia وهذه المخطوطة تذكر القائد وكذلك الزوجة وتولى أهمية لمدينة تطوان وللمنظرى وخاصة من ناحية التسلسل الزمنى وسنعرض نسخة مصورة منها. وكذلك فهناك من يبالغ فى قيمة الناحية العاطفية: مدينة تطوان هى استمرار لغرناطة حتى فى الجذور النصرية لكلتا المدينتين.

والمخطوطة مذكورة فى الملاحظة الهامشية رقم (١) من الفصل الثالث من هذا الكتاب.

ardid en magnanimo exemplar que resulto en beneficio publico, y en no menor servicio de sus Principes, como en su lugar reconoceremos. Escribe pues hallandose el Conde: dandole aviso un soldado que dos dias antes se havia huido de Granada donde estava cautivo que saldria una Mora noble, sobrina del Alcaide de Abencomixa, y parienta del Rey chico havia de salir de la Ciudad que la llevavan a Bervera a celebrar sus bodas con el Alcaide de Tetuan, y con ella algunos Moros de guerra, que asi lo sabia este soldado entendido, que fue cautivo del Abencomixa, y entendia la lengua. Apercibio el Conde de Tendilla algunas escuadras de Cavallos que a la ligera y sin detenerse corriesen a vista de Granada acechandose por todas partes como lo sabian por si acaso dexan con ellos; y que si aventuravan solo un Ginete no se embarazasen en tomarlos que mas importava y havia menester

Padilla f.° 50.

ملحق وثائقى رقم : ٣

وفاة المنظرى

مما لا شك فيه أننا نتناول هنا أحد أكثر الموضوعات نقاشًا وغموضًا عن سيرة المنظرى الذاتية: وهو تاريخ وفاته.

إن غالبية الكتاب المغاربة يؤكدون عدم علمهم بذلك ويتأرجحون بين تواريخ متباينة بشكل كبير مثل ١٤٩٥ أو ١٥٠٥ .

وذلك الاختلاف ينعكس على تاريخ تأسيس مدينة تطوان وعلى السنوات المتتالية لإعادة بنائها ونموها وكذلك على حكم قادتها وحكامها الأُول.

إلى هذه الدرجة وصل غموض المؤرخين لدرجة أن المؤرخين الأكثر دقة فى أيامنا هذه اخترعوا شخصيات تاريخية جديدة وتحدثوا عن روابط أسرية لا وجود لها وتحدثوا عن منظرى ثان ومنظرى ثالث وحتى عن منظرى رابع.

والحقيقة أنه لم يكن هناك سوى منظرى واحد، و كان طول سنوات عمره- الذى كشف عنه ليون الإفريقى وأكد عليه الأب كونتريراس- هو السبب فى ذلك الغموض وفى الأخطاء التى سجلتها كتب الأخبار المغربية التى تناولت تاريخ المدينة، ومن الطبيعى أنه كان لذلك أثر على السياق العام لتاريخ المغرب.

ويبدو لنا أنه من المهم أن نوضح هذه المسألة والتى تفترض تكرار الاتصالات الأخيرة للأب كونتريراس مع المنظرى فى تطوان.

إن الشهادة التى يقدمها غابرييل دى أراندا لا تسبب أية شكوك، وذلك بالنسبة إلى هوية القائد الغرناطى والسنوات التى ذكرت.

إن المنظرى الذى كان يتعامل معه كونتريراس هو القائد العجوز الضرير الذى ذكره ليون الإفريقى. وطول عمره هو الذى يفسر حكم ست الحرة باسمه ولماذا لم تتزوج هذه السيدة المبجلة قبل ذلك من السلطان الوطاسى، على سبيل المثال فى الأوقات السعيدة زمن أخيها مولاى إبراهيم.

وبالقدر ذاته تشرح لنا تلك السنوات الطويلة من عمره صمت الكتب الإخبارية البرتغالية. ففى المقام الأول أنه لم يُذكر شىء حول موته لأنه لم يصل أى شىء يتعلق بذلك، وفى المقام الثانى أن هناك توقفًا لنشاطه الحربى، حيث إنه لم يظهر فى ميادين الحروب لشمال المغرب لفترة لا تقل عن عشرين عامًا قبل تاريخ وفاته.

وتلك التواريخ تدعونا إلى دراسة الشهور الأخيرة من حياة القائد الغرناطى.

فى أواخر سبتمبر من عام ١٥٤٠ وصل التاجر خوانْ دى إيريرا إلى تطوان وهو صديق للأب كونتريراس الذى كلفه بجمع الصدقات والنذور المخصصة للأسرى. وكان إيريرا يحمل الأموال اللازمة لتنفيذ عملية الافتداء التى اتفق عليها الراهب. وقد حاول أن يُخرج الأب كونتريراس من تطوان وأن يصطحبه إلى مدينة سبتة حيث كان الأسرى ينتظرونه كى يبحر معهم، وهو الشىء الذى تم فى نوفمبر وقد وصلوا إلى إشبيلية فى ديسمبر.

بالتالى كانت المحادثات الأخيرة لكونتريراس مع المنظرى فى شهر نوفمبر من عام ١٥٤٠، وكان الراهب يبلغ ٧٠ عامًا وكان الغرناطى يبلغ ٨٥ عامًا. وهذا الاختلاف فى الأعمار تجذب إليه الانتباه إحدى فقرات محادثات الراهب مع القائد الغرناطى. وفى أواخر أبريل أو فى مستهل شهر مايو من عام ١٥٤١ رجع الأب كونتريراس ليدخل إلى تطوان وعلم بوفاة المنظرى هناك.

إذن فقد كانت وفاته فى ديسمبر من عام ١٥٤٠ أو فى الثلاثة أشهر ونصف الأولى من عام ١٥٤١ .

إنها فترة غير محددة لكنها أيضا موجزة جدا ولا تغير من الأحداث الشخصية والزمنية الجديدة التى تعرض للتاريخ التطوانى، وهو ترتيب حاولنا توضيحه بشكل عام فى صلب هذا الكتاب.

بهذا نكشف الستار ونلقى الضوء على تاريخ القرن الذى عاش فيه المنظرى وهو القرن الغرناطى من تأسيس المدينة. وتطوان هى مدينة تحتفظ بجذورها الإسلامية الإسبانية حتى يومنا هذا.

وسنعرض نُسخًا مصورة لصفحات كتاب الأب غابرييل أراندا التى تذكر تعاملات الأب كونتريراس مع القائد التطوانى أو التى تشير إليه(*) . وترقيم الصفحات غير متتابع بسبب حذف ما ليس مهم.

ويستنتج من النص التاريخ الحقيقى لوفاة المنظرى.

وهذه النسخ المصورة(**) مأخوذة من النسخة الأصلية الموجودة فى المكتبة الوطنية.

إنه لشىء غريب العثور على كتاب الأب أراندا. بل إن هناك بالمكتبة طبعات مختلفة لهذا الكتاب إحداها منتقصة.

ونحن نستخدم نسخة غابرييل أراندا التى تبدو أنها النسخة الأصلية الكاملة، ومقدمتها الرئيسية تقول: "حياة/ عبدُ الله/ أحد الرهبان/ الأب المبجل/ فيرناندو/ دى

(*) نحن بدورنا ندعو إلى ترجمة هذا الكتاب الذى يلقى مزيداً من الضوء على جانب مهم من التاريخ المغربى. (المراجع)

(**) كنا نتمنى أن نترجم الصفحات المصورة لكن الصورة باهتة فى كثير من الفقرات مما يجعل الترجمة غير ذات جدوى. (المراجع)

كونتريراس/ من مدينة إشبيلية/ من رهبانية القديس/ بدرو/ مكتوب/ بأمر من الراهب راعي/ هذه الكنيسة المقدسة / التى تقدم الكتاب وتَعرِضه/ تحت حمى الملك العظيم/ لإسبانيا/ كارلوس الثانى الذى لا يقهر/ كتبه الأب غابرييل دى أراندا/ المنتمى إلى جمعية يسوع/ طبعت على نفقة وتحت رعاية / الكنيسة المقدسة/ عام ١٦٩٢/".

وقد تابع الأب كونتريراس زياراته إلى مدينة تطوان بعد وفاة المنظرى بعدة سنوات، وقد شارك فى بعض الأحداث المهمة وكتب أخباراً ومذكرات للبلاط الملكى الإسبانى بجانب عمله التبشيرى وبجانب عمليات الافتداء.

وكان علينا أن نشير إليه فى هذا الكتاب عند دراسة الخلفاء الذين أعقبوا المنظرى وكان من بينهم القائد حسن.

وتوجد وثائق فى الأرشيفات الإسبانية تخص كلاً من الأب كونتريراس والقائد حسن وقد تناولنا بعضها.

con sus exhortaciones fervorosas, que hasta oy en dia se conservan memorias debidas à su piedad.

El detenerse tanto tiempo à vista del Reyno de Fez, y no intentar en otra parte el rescate, creo aver sido porque la limosna que llevaba, iba consignada para redimir cautivos que estuviessen en el Reyno de Fez: pues tres quẽtos de maravedis que D. Fadrique Enriquez de Ribera Marquès de Tarifa diò en Sevilla al V. P. para este viage en nombre de vn Cavallero de Castilla, eran con estas calidades: *Que se avian de emplear en redimir cautivos que viviessen en la ciudad de Fez, y no en otra tierra de Africa: que los cautivos fuessen de los que no tuviessen alguna otra ayuda para su rescate: y que no se diesse por cada uno de ellos mas que la limosna acostumbrada:* y bien se conoce, atendiendo à la primera condicion, que tanto caudal no podia emplear el V. P. sino haziendo la Redencion en Fez: y como huviesse publicado en Sevilla en el tiempo que estuvo detenido y que su primera salida avia de ser à Fez, muchos que tenian algunos cautivos proprios en Tetuan, le dieron limosnas

Papeles de Anton de Aguirre Contador del Marques, co[illegible] en [illegible] por Ar[illegible] de [illegible] 1590.

al

competentes para que los rescatasse.

Razones todas que le hizieron esperar en Ceuta modo como entrar en Fez, y passar por la detencion à que le obligaba la inquietud de aquel Reyno; que ya mas sossegado, diò passo al V. P. para poder entrar en èl ya por los fines de 39. y aunque con la incomodidad del invierno, ponerse en Tetuan à pie con no poco trabajo. Sintieron los de Ceuta la partida lo que se dexa [illegible] de quien tanto por sus virtudes amaban; pero consolaronse con que avia de bolvèr por alli, y que siempre que huviesse de passar à Fez, avia de hazer escala en Ceuta, y tendrian la dicha de gozar de su amable compañia y trato Angelical.

Entrò en Tetuan el V. P. ya la segunda vez; donde fue recebido de los cautivos con aquel consuelo que engendra vna segura esperança de salir de vn cautiverio: y de los Moros; con grande estimacion, adquirida por su buen obrar, y por las maravillas y prodigios que contaban de èl; en especial el *Alcayde Almandari*, que aunque Moro, avia nacido en España, y tenia à los Españo-

ños

ñoles buena voluntad, le hizo todo buen passage: y sabiendo, que avia de hazer Redencion en Tetuan, y que por esto le convenia reconocer los cautivos que en las mazmorras se hallaban, diò orden à los Guardianes de ellas, para que todas las vezes que el Papaz Contreras quisiesse visitar los cautivos, le franqueassen la entrada.

Y porque se conozca lo que los cautivos padecen, y quan grande era la mortificacion del V. P. de entrar en sitios tan horrorosos à la vista, como pestilentes al olfato: me es fuerça contar como ellas son, valiendome para esto de lo que en varios libros se refiere y de lo que yo mismo he oido á muchos Padres Redentores, y de lo que en especial en la Coronica de la Religion de la Santissima Trinidad Descalça escrive su Autor, que à menos autoridad se hiziera increible que con hombres se pudiesse usar tal rigor.

To. 1. de P. a. lib. 5. 7.

Tres estados debaxo de tierra (dize) *tienen las mazmorras, que son à manera de silos con seguiles al rededor, y en lo alto una lumbrera, con una rexa. Destos silos ò calaboços ay algunos q se comunican por unos transitos angostos: no entra en ellos ayre ni Sol, ni se puede ver el Cielo, y apenas la luz. La ultima destas mazmorras sirve tābien de carcel para los Moros facinorosos (buena compañia para alivio de sus trabajos) la immundicia es notable por la continua assistencia de tantos hombres: el tufo y mal olor intolerable. Certificòme uno de los Padres Redentores, que de aver estado un rato con los cautivos, saliò casi sin sentido.*

Esta es la habitacion de aquellos pobres Christianos, los seguiles los aposentos: la cama una esterilla: desnudos, aherrojados con cadenas, y grillos, argollas, y otras crueles prisiones: entre las quales ay unas barras de hierro gruessas y largas, q̄ llaman Alcandaras, *asidas las estremidades à dos cadenas: en estas les obligan à poner los pies apartado el uno de el otro una vara: el verano, por ser la tierra muy calida, y aver mucha gente en tan estrecha morada, se abrasan de calor. En este lugar ageno de consuelo, mas inhumano de lo que se ha significado, estàn los cautivos de dia y de noche, si no es que salgan à trabajar: entonces los sacan tarde y los buelven temprano, y el tiempo que andan fuera, traen una cadena al pie: aun enfermos no mejoran de vi-*

vivienda, ni tienen diferente comodidad; en tan rigurosa carcel passan sus enfermedades, y mueren sin Sacramentos como unas bestias, con tanto desconsuelo, que no se puede explicar, ni entender, cediendo en aquellos barbaros la codicia, con ser muy grande, á su crueldad.

Todas estas estancias tan horrorosas á la vista, tan molestas á los sentidos, penetraba la caridad del V. P. sin que dexasse cautivo á quien no viesse, ni esclavo que no tratasse: y creo, que con padecer tanta fatiga en el cuerpo, era aun mayor la que padecia en su animo: pues los trabajos q̃ los miserables le referian, eran tan sin consuelo, que le traspassaba el corazon el oirlos, y le obligaba las mas vezes á acompañarlos con sus lagrimas. Eran los cautivos tantos, que de ordinario passaban de 3U. los que en aquellos obscuros calaboços se encerraban: y aviendolos el V. P. de oir á cada vno de por si, bien se dexa entender seria esto obra de muchos dias, y para tomarla muy despacio; y donde aũ de passo era intolerable el estar, q̃ mortificacion seria el assistir dias enteros, y muchas vezes las noches entre aquella horrura, è indezible asco?

O mazmorras de Tetuan, testigos de la caridad mas fervorosa que puede imaginarse: si como tuvisteis la suerte de ver tantas virtudes, como en Varon tan Apostolico notasteis, nos pudierades informar de ellas! Y como hablarais mas deste siervo de Dios, que pudieran dezir de sus monges las cuevas de la Tebayda! Pero lo que entre aquellas mudas paredes se oculta, lo publica el discurso, lo infiere la razon, y ensalça hasta el Cielo la fama, acreditando de manera la memoria del siervo de Dios, que no ay Moro el mas barbaro, que en llegando á hablar del Padre Contreras, no diga que era vn grande amigo de Dios y Hombre Santo.

Visitadas las mazmorras, reconoció, que por la falta de Ministros Sacerdotes, y por el continuo y mal exemplo de los Moros, estavan los pobres cautivos tan mal parados en lo que tocaba á sus almas, como maltratados en sus cuerpos: y assi trató con el *Alcayde Almandari* le diesse permisso para celebrar Missa en la casa en que vivia, y que viniessen à ella los cautivos à recebir los Sacramentos, confessandolos poco à poco el V. P. y administrandoles

Ppp

CAPITVLO XIII.

ENTRA EL VENERABLE PADRE EN TETVAN, donde es recebido con univerſal gozo aſſi de los cautivos como de los Moros: correſpondeſe con el Rey de Fez por eſcrito, y con el Rey de Portugal.

POr fines de el mes de Abril ò por entrada de Mayo (à lo que ſe cree) entrò el V. P. año de 41. en Tetuan, ſiendo eſta ſu tercera ida al Reyno de Fez, y ſexta Miſſiō à la Africa: y ſi haſta alli avia ſido Tetuan teatro de ſu fervor, deſde eſte tiempo podemos dezir fue lugar de ſus mayores prodigios, y donde campearon ſus obras mas admirables. Alli le vieron, no Redētor caritativo, mas cautivo empeñado por conſeguir à ſus hermanos libertad, ſiendo mas de tres años los que viviò en rehenes, ſugeto al trato que le quiſieſſen hazer porque ſus proximos no fueſſen maltratados: los ſuceſſos declaran en adelante quien fue el V. P. entre Moros, pues cinco años de vivienda entre infieles, no baſtaron para que ſu caridad en redimir cautivos ſe entibiaſſe.

Apenas pues llegò à Tetuan, quando ſaliendo todos los cautivos (que ocupados en ſus labores, andaban ſueltos) à echarſe à ſus pies y recebir ſu bendicion, començaron à dar gracias à Dios por tan gran bien como les embiaba, diziendo à vozes en ſu llegada lo que los Infantes de Jeruſalen cantaban al Redentor del mundo en ſu entrada en aquella Santa Ciudad: *Bendito ſea el que viene en el nombre de el Señor: bien venido el que nos trae la libertad: bien llegado el que nos ha de redimir y reſcatar de tan miſerable ſervidumbre: gracias al Señor que oyò nueſtros gemidos, y que atendiò à nueſtro llanto, y embiò quien pudieſſe romper nueſtras cadenas, y librarnos de tantos males.*

Con eſtas aclamaciones era recebido en los Puertos Africanos, ſegun las Informaciones q̄ en Sevilla, Ceuta y otras partes ſe hiziron. O Emperadores Romanos, ſi eſto vierades, como os corrierais de las vanas pompas de vueſtros triunfos, cuya grandeza poniais en llevar ca-

Ins[illegible] ciones de el V. P.

cargados de cadenas atados à vuestros carros à los que cō violencia aviais rendido! Pero la grandeza del triunfo de el siervo de Dios consistia en libertar y quitar las prisiones à los que avia oprimido la tirania. Allà la purpura servia de magestuoso adorno al que triunfaba: pero aqui vn pobre Sacerdote vestido de vn tosco buriel, triunfa sin adorno, porque le adorna la caridad, tela tan preciosa que de las del corazon se forma. *Allà sojuzgaban* las personas *sin rendir* los animos: pero el siervo de Dios aprisionaba los animos con amor, y libertaba las personas con caridad: tanto excede la virtud Christiana al valor Gentilico, y tan otros son los fueros de Dios que los del mundo.

Presto passo la alegre nueva de su venida a las horrorosas mazmorras de Tetuan: y aquellas paredes hechas à ver tristes y lamentables semblantes de los miserables cautivos, vieron en ellos vna extraordinaria alegria, porque juzgando cada vno, que en el V. P le venia todo su remedio, saltaban de gozo sin que les estorvasse el peso de las cadenas, ya mas ligeras con la esperança firme que avian concebido de su nueva libertad. Los Moros se alegraban tambien, como el mercader que dessea vender, con ver llena su tienda de los muchos que vienen à comprar: pues como sabian por la experiencia, que en rescatar el siervo de Dios cautivos, no tenia limite su caridad, ninguno avia que no pensasse vender sus esclavos en aquella ocasion; con que su llegada en todos causaba vn incomparable gozo.

No le tuvo el V. P. tan cumplido como pensaba, cō sus cautivos, por la nueva que le dieron de aver muerto el Alcayde: pues con el desseo que tenia de su bien, apenas llegò à Tetuan, quando luego preguntò por èl, y sabiendo avia fallecido, llorò su perdicion, y el mal logro de sus fatigas, y cuidado que avia puesto por su reduccion. Pero sirviòle el favor que le avia hecho, de que vn nieto suyo llamado *Hazen*, que se avia apoderado de la Alcaydia, cōtinuasse en favorecerle, qual pudiera su abuelo si estuviera vivo: de la misma suerte se portò la muger viuda de *Almandari*, regalandole y haziendo de èl no menor estimacion que su marido, q la virtud del V.P. era tal, que le hazia estimar de todos. Marmol 2. p. de la Histori. de Afric. cap. 41. fol. 151.

Y

ملحق وثائقى رقم : ٤

أملاك المنظريين الغرناطيين

يمكننا أن نتأمل وجهتى نظر تاريخيتين متعلقتين بعائلة المنظرى الغرناطية. إنها وثائق سابقة على حرب غرناطة ١٤٨٢-٩٢، و نعدُّها سالفة بالنسبة إلى دراسة تلك العائلة، ولدينا فى هذا الصدد، على وجه الخصوص، الوثائق العربية الغرناطية التى نشرها سيكو دى لوثينا Seco de Lucena . إنها وثائق لاحقة على نهاية الإسلام الإسبانى، تبرز من بينها الوثائق التى وجدناها فى المحكمة الملكية العُليا وفى قصر الحمراء الغرناطييّن، والتى تتحدث عن عائلة محددة، قبل وبعد ثورة البشرات الكبرى، مع اختفائها المادى النهائى.

مع ذلك، ينبغى أن نسجِّل أنه لم يمكن العثور فى أى وثيقة على الرباط الجوهرى الذى يربط أيًّا من المنظريين المذكورين بمؤسس تطوان.

فى ظل وجهة النظر هذه نتأمل افتراضين: أحدهما يذهب إلى وجود فرع عائلى ممتد ذى جذع مشترك للمنظريين. والثانى يرى أن اللقب كان نسبًا لقرية المنظر القديمة، وهى بِدمار حاليًا.

لا نستطيع حاليًا سوى أن نضع تكهنات، مع أن ظنوننا تتجه نحو الافتراض الأول.

توجد فى المحكمة العُليا الوثائق الأساسية عن المصير الأخير لعائلة المنظرى فى أثيكياس. إيجار أملاك المنظرى ودفتر المزايدات الخاص بالممتلكات الأصلية لأندريس

المنظرى وزوجته. وتنتهى المغامرة فى كتاب حصر أراضى أثيكياس، حيث يُذكر اللقب، لآخر مرة، كذكرى.

من المحتمل أن أندريس المنظرى توفى فى نفس هذا العام، ١٥٥٩، المؤرَّخ فيه الإيجار، لأنه فى شهر ديسمبر من هذا العام تظهر زوجته إيسابيل فى وثائق قصر الحمراء كأرملة. من الممكن أن يكون أندريس المنظرى قد عرف غرناطة بنى نصر، وهو ما يجعله مستودعاً للضغائن والإحباطات الناشئة عن عدم تنفيذ اتفاقيات الاستسلام وخاصة لو كان ينتمى لطبقة النبلاء.

هل سيكون لديه أخبار عن نجاح عملية استقرار قريبه على الضفة الأخرى للمضيق؟. ليس هناك أى شك فى ذلك، لأن علاقات الموريسكيين على هذا الجانب وعلى الجانب الآخر كانت مستمرة بشكلٍ كافٍ، لا يدعو إلى الاستغراب، بالتالى، أنه هو وأبناؤه حاولوا العبور إلى شمال إفريقيا.

إن المحاولة وحدها لم تكن فقط مثيرة للمشاكل بل خطيرة ومشئومة فى عواقبها. عند تدخل محاكم التفتيش كان يحدث، على أقل تقدير، مصادرة الممتلكات.

لا نعلم بأية آليَّة يتم الانتقال هنا من التأجير إلى بيع هذه الممتلكات بعد مرور سنتين، وهو البيع الذى يحضره المنظريان، والذى تتحول من خلاله المصادرة، فى الحقيقة، إلى غرامة كبيرة أو اغتصاب، إلى جانب التحويلات الكبيرة التى تصبح فى أيادى هؤلاء وأولئك.

إن السعر النهائى بمبلغ خمسمائة دوقية يعطينا مقياسًا تقريبيًا لرأسمال المنظريين.

نستطيع أن نتناول، على سبيل الإشارة بعض أسعار التقييم: بيتان مع حديقة صغيرة بمبلغ ثمانين دوقية؛ قطعة أرض تبلغ مساحتها ثلاثة وتصف مارخال بها تسع أشجار زيتون وثلاث أشجار توت بمبلغ أربع وثلاثين دوقية.

تُعَد الوثيقة كلها ذات أهمية كبيرة، ليس فقط بالنسبة إلى هدفنا الحالى المتمثل فى أن نجد فى غرناطة بقايا من عائلة المنظرى يمكن أن يكونوا على علاقة بمن أعاد إنشاء تطوان، بل أيضا من أجل دراسة وملاحظة بيانات غاية فى الأهمية بالنسبة إلى التاريخ المفصل، الذى يُعَد دعامة للتاريخ الكبير.

من الخمسين اسمًا تقريبًا الذين يظهرون فى الوثيقة، يوجد بالكاد أربعة أو خمسة يمكن اعتبارهم مسيحيين قدامى.

باستثناء مسئول محكمة التفتيش، خوان دى ثاراتى؛ والمفتش العام، بيريث دى آروستيغى؛ والكاتب، دييغو نابارُّو؛ ومارتين بيريث، الذى ربما كان مراقبًا للمحكمة، فإنه، لا يكاد يوجد مسيحيون قدماء سوى ماركوس دياث وفرانثيسكو دى مولينا، ودييغو وبدرو مالدونادو ولا نجرؤ على زيادة القائمة؛ الباقون موريسكيون.

لم يكن المستفيد يقيم فى أثيكياس؛ ونظن أن حامل البكالوريا أيضًا لم يكن يقيم فيها، ويتبقى لنا - كمسيحيين وحيدين قديمين كانا يعيشان مع موريسكيين - الأخوان مالدونادو. إن احتمال الخطأ قليل جدا.

دييغو مالدونادو هو الوحيد الذى يظهر فى التوزيع، بعد الحرب وطرد «المسيحيين الجدد». إنه رمز حزين لمأساة زعزعت حتى جذور سكان المملكة الغرناطية القديمة.

يشتمل دفتر الإيجار ودفتر المزايدات على خصائص تُذكِّر أيضًا بالقوانين الإسلامية والمسيحية. إن وجود شُجيرة الزيتون (ورقة ٣ ظهر) وشُجيرة التوت (ورقة٥) أو الجوز (ورقة٧) كثلاثة أمثلة مختلفة، فى أراضى ملاك مختلفين، تذكرنا بحالات مدونة سحنون، وهو كتاب أساسى من أجل تطبيق المذهب المالكى فى الإسلام الإسبانى.

فى الورقة ١ يأتى ذكر قوانين قشتالية تحاول أن تحل محل القوانين الغرناطية الأصلية.

هناك قوانين أخرى تبدو لنا مشتركة مع النظامين القضائيين. يتعهد الأخوان منظرى بأن يفلحا ويعتنيا جيداً بالعقار الذى يستأجرانه وإن لم يقوما بذلك على هذا النحو فإن بيت المال سوف يقوم بتنفيذ ذلك على حسابهما. بالإضافة إلى ذلك هما لا يستطيعان التخلى عن العقار وإلا عوقبا بدفع الريع عن العقار الخالى. إن ذلك من فكرة اعتبار الأرض مالاً عاما .

مع ذلك تتحول المنافسة إلى منافسة رمزية فى معظم الحالات، إذ يقوم الأخوان منظرى بدفع قيمة المواد المسعَّرة بمقدار دوقية واحدة وحتى ريال واحد فى حالةٍ معينة (ورقة رقم٥ و٥ظهر).

فى حالات أخرى يخسر الأخوان منظرى، المنافسة أو يتنازلان ، كما يحدث فى شأن البيوت التى تصبح فى حَوزة المستفيد فرانثيسكو دى مولينا، أو الأشجار التى تصبح فى أيدى دييغو مالدوناو أو مناحل العسل التى تصير فى أيدى الماحلى. لكن من الناحية الكلية فإن ما يذهب إلى أيادى الغير يصل إلى ٤١ر٤٦٩ ريال مرابطى، فى مقابل مبلغ ١٨٢ر٢٩٥ تبقى فى حوزة المنظريين. ويبدو لنا أنه حتى مبلغ الـ ٣٠ر٠٠٠ ريال مرابطى قيمة بيوت المستفيد قد تم بيعها فى المزاد بشىء من الضغط، على الأقل نفسياً، حيث إن الأخوين استمرا يعيشان فيها حتى الحرب، وحولوا ملكيتها هكذا إلى ربح دائم لصالح المستفيد.

من عام ١٥٦١ إلى ١٥٦٨ لا نعلم ما هو المكان ولا النشاط الحالى لغارثيا وميغيل منظرى، لو كان لديهما نشاط، كذلك لا نعلم شيئًا عن أمهما إيسابيل وأختهما بياتريث، اللتين تظهران فى وثائق قصر الحمراء. إن الصمت يخيم على هذه العائلة، مثل لوحة مقبرة سوف يكتب نقوشها كتاب حصر أراضى أثيكياس، عندما يتذكر «البيت الذى كان».

مع ذلك فالدراسة اللغوية لهذا النوع من الوثائق التى قام بها بإحكام صديقى العزيز الأستاذ خوان مارتينيس رويث، لا يمكن منافستها. إننى أستند إلى دراسته بعنوان "جرد أملاك الموريسكيين فى مملكة غرناطة (القرن السادس عشر)"، وأشكره من كل قلبى على المساعدة التى قدمها لى.

نسخ وثيقة المحكمة العُليا بشأن تأجير أملاك أندريس المنظري، ودفتر المزايدات .

تأجير أملاك المنظرى:

فى منطقة أثيكيا دِل بايِّى دى لِكلين، بتاريخ الحادى عشر من شهر سبتمبر من عام ألفٍ وخمسمائة وتسعة وخمسين، فى حضورى أنا الكاتب والشهود الذين أذكرهم كتابةً، غارثيا المنظرى وأخوه ميغيل المنظرى كمَدينين أساسيًّين، وميغيل دى أنتيكيرا المأمور القضائى ودييغو دى إسكوبار، من سكان المكان المذكور، كضامنين لهما وأساسيِّين فى السداد بدون إجراء تحقيق ولا عمل أى إجراء آخر ضد الأشخاص الأساسيين، والأربعة جميعهم وبالإجماع وبصوت شخص واحد وكل واحدٍ منهم، بالأصالة عن نفسه وعنهم يتنازلون عن قانون... والاستفادة من التقسيم وكل القوانين الأخرى، والامتيازات(*) والحقوق التى يتوجب أن يتنازل عنها الذين يلتزمون بالإجماع، كما قرَّرنا فى الوثيقة أننا نأخذ الربح الذى يودع فى خزانة الدولة الخاص بصاحب الجلالة من محكمة التفتيش بقضاء غرناطة ومن خوان ثاراتى، الذى يتلقى منها باسمه كل الثروة الخاصة بالممتلكات الأصلية المفروض عليها الحراسة والتابعة لأندريس المنظرى وإيسابيل زوجته، من سكان منطقة أثيكيا المذكورة، والدا المذكورين ميغيل وغارثيا المنظرى، فيما عدا المنحل الذى يشتمل على بيوت وطواحين وبساتين وهى أراضى وأشجار عنب وأشجار زيتون وأشجار توت لمدة عامين أولين تاليين يبدآن من الأول من سبتمبر المقبل من هذا العام الحالى من تاريخ هذه الوثيقة، بسعر اثنتى عشرة

(*) النص الإسبانى فى الوثيقة الأصلية غير واضح، وربما كانت الفقرات غير الواضحة ناتجة عن سوء حالة الوثيقة وعدم استطاعة قراءتها بشكل جيد. عموما فإن ما يهم المؤلف – ويهمنا أيضا – هو تتبع آثار عائلة المنظرى فى إسبانيا بعد سقوط غرناطة ورحيل أحد أفرادها وهو مؤسس تطوان . (المراجع)

عملة مرابطية لكل واحدة منها والتى نلتزم بتقديمها ودفعها مودعة فى غرناطة لحسابه، فى نهاية شهر أكتوبر من كل عام من العامين المذكورين وإلا عوقبوا بدفع الضعف بشرط أنه خلال فترة الإيجار هذه تُباع الممتلكات الخاصة بالحراسة المذكورة والتى لا يزال يتعيَّن على المذكورين أن يفيا بهذا الإيجار بشرط أن يتوجب عليهم أن يلتزموا بفلاحة وعلاج أشجار الزيتون المذكورة والأراضى وأشجار التوت وأشجار العنب من كل ما ينبغى، وإن لم يفعلوا ذلك هكذا فإن ممثل خزانة الدولة يمكن أن يأمر بالفلاحة على نفقته وبما ينفقه يستطيع أن يحاكمهم وأن يلتزموا بعدم ترك الأملاك المذكورة وإلا عوقبوا بدفع الربح عن العقار الخالى ومن أجل ذلك أجبروا أشخاصهم على التنازل عن ممتلكاتهم للعدالة، وتخلوا عن القوانين ومن أجل ذلك أوقع هذه الوثيقة حيث الشهود هم بالتاسار غارثيا الذى كان مترجماً لهذه الوثيقة وحامل البكالوريا ماركوس دياث، فى حضور بيريث دى أورستيغى، المفتش العام وكشاهد من المكان بالتاسار غارثيا.

تأجير الممتلكات فيما عدا المنحل بسعر اثنى عشر ألف بيعت الممتلكات الأصلية فى يناير من عام ١٥٦١ .

بالأسلوب الذى يتفق مع هذا الإيجار يتعيَّن تحصيل سنة.

أمامى أنا

دييغو ناباروُ

٢٠٠٠

٥١٥٠

٣٥٦٢

٠٥٦٢

١١٢٧٥

٣٠٠٠

٥١٥٠

٣٢٧٥

٠٥٦٠

٠٠٨٥

(جزء ممسوح)

٢٠٧٤

٢٩٩٣

٢٥٥١

١٢٠٧

٢٣٠٣

١٦٦٧

١٥٥٠

١٤١٦٢

٤٧٣٤

١٩٩٣٠

١٠٩٢٥

١١٧٠٢

٤٦٤٢

٨٠٤٤١

٥٨٩٧

٧٤٥٤٤

٢٩٢٦٤

٤٥٢٨٠

٢٤٥٥٢

٣٩٠

٣٥٦٢

٦٤٨

٢٩٢٦٣

المنحل بالثمانية مضارب

بيان الحراس

قدرة الحراس

أثيكيا دل بايّى

دفتر المزادات

أندريس المنظرى وزوجته

فى منطقة أثيكيا دِل بايِّى، فى الثامن من شهر سبتمبر من عام ١٥٥٩ بصوت مارتين دى كوِيَّار، المنادى، تم عمل المزاد على الممتلكات الآتية (بين هذا السطر والسطر الذى يليه يوجد النص الذى تم إدخاله): وبعد ذلك فى منطقة أثيكيا فى الحادى والثلاثين من شهر يناير من عام ١٥٦١ بصوت سيمون إيرنانديث، المنادى، بعد قيامه بالمناداة كثيراً على هذه الأملاك، كتنبيه، وبعد ذلك بدأ المزاد، وتمت المزايدة على الممتلكات الأصلية التالية والمعلنة تباعًا على الأشخاص وبالأسعار التالية، فى ظل الشروط العامة. (ينتهى هنا النص الذى تم إدخاله)

بيوت واقعة فى منطقة أثيكيا مع بيت آخر مجاور له(كذا) ويحد كلا البيتين بيت لورينثو بالومينو وبيت أندريس دى نابوليس، فى هذا اليوم حضر دييغو مالدونادو، من سكان أثيكيا وعرض هذه البيوت بمبلغ ٧٢ دوقية. الشاهدان غارثيا المنظرى وأخوه نافسا بدوقية واحدة، وعرض فرانثيسكو دى مولينا فى مقابل تلك البيوت، مع الحديقة الصغيرة الواقعة خلفها مبلغ ٨٠ دوقية، ولعدم وجود منافس أكبر رسا عليه المزاد بمبلغ الثمانين دوقية المذكورة، الشهود المذكورون.

أنهى المزاد

Pasado ٣٠٠٠٠

فرانثيسكو دى مولينا

طاحونة للخبز بجوار الطريق والبيوت، فى هذا اليوم حضر دييغو مالدونادو وعرضها بمبلغ ٣٨ دوقية. الشاهدان المذكوران، غارثيا وأخوه، رفعا المبلغ بمقدار دوقية واحدة. هاتان الطاحونتان تباعان معًا. هناك طاحونة أخرى للخبز فوق الطاحونة

المذكورة. في هذا اليوم حضر دييغو مالدونادو وعرض الطاحونة المذكورة بمبلغ ٣٨ دوقية. الشاهدان المذكوران، غارثيا وأخوه رفعا المبلغ بمقدار دوقية واحدة، عرضا ٧٨ دوقية مقابل هاتين الطاحونتين، غارثيا وأخوه ميغيل منظرى، وتم التنبيه بإنهاء المزاد ولأنه لم يوجد شخص ينافس بأكثر من ذلك فقد رسا المزاد على المذكورين غارثيا وميغيل منظرى، الشهود المذكورون.

أنهى المزاد

pasado ٢٩٢٥٠

غارثيا منظرى

ميغيل منظرى

شجيرة زيتون فى أرض وكيل الدولة فى ضيعة الطاحونة.

فى هذا اليوم حضر دييغو مالدونادو وعرض الشجرة المذكورة بمبلغ دوقية واحدة، الشاهدان المالدونادو، بسبب عدم وجود منافس رسا المزاد على دييغو مالدونادو، الشهود المذكورون

أنهى المزاد

Pasado ٣٧٥

دييغو مالدونادو

قطعة أرض تبلغ مساحتها ٢ مارخال فى ضيعة المارايام يحدها الطريق وأرض غارثيا خيمينيث وواقعة أمام شجرة زيتون، المذكور دييغو مالدونادو عرض مبلغ ٣٢ دوقية فى مقابلها، الشاهدان المذكوران غارثيا منظرى وأخوه ميغيل المنظرى رفعا المبلغ بمقدار دوقية واحدة ثم قالا إن مبلغ الـ ٣٤ دوقية، أقول ٣٤ دوقية، ٣٥ دوقية عرضها خوان دى سولير، الشهود المذكورون، ٣٦ دوقية عرضها ميغيل منظرى، الشهود المذكورون.

ونظراً لعدم وجود منافس رسا المزاد على ميغيل المنظرى، الشهود المذكورون.

أنهى المزاد

Pasado ١٢٥٠٠

ميغيل المنظرى

قطعة أرض أخرى مساحتها مارخال واحد وبها ثلاث أشجار زيتون فى قرية الدار مجاورة للطريق وأوقاف الكنيسة. فى هذا اليوم حضر دييغو مالدونادو وعرضها بمبلغ ١٦ دوقية، الشهود المذكورون . المذكوران غارثيا وميغيل عرضا ١٧ دوقية ولأنه لم يوجد منافس رسا المزاد على المذكورين غارثيا المنظرى وشقيقه، الشهود المذكورون.

أنهى المزاد

Pasado ٦٣٧٥

غارثيا منظرى

قطعة أرض أخرى مساحتها ٣ر٥ (ثلاثة ونصف) مارخال بها شجرة زيتون فى قرية هانداك القصر، تحدها أرض خوان أرَّايث دى دوركال، ويوجد فى هذه الأرض ثلاث أشجار توت. هذا اليوم حضر دييغو دى مالدونادو ووضعها بمبلغ ٥٦ دوقية، وعرض المذكوران غارثيا وميغيل ٥٧ دوقية فى مقابلها ورسا المزاد عليهما بمبلغ ٥٧، الشهود المذكورون.

أنهى المزاد

Pasado ٢١٣٧٥

غارثيا المنظرى

وميغيل أخوه

قطعة أرض أخرى مساحتها ٣ مارخال بها أشجار زيتون وأشجار توت عند نهر هذا المكان، يحدها الطريق وأرض عبدون، يوجد فى هذه الأرض ست أشجار زيتون وخمس أشجار توت واثنتا عشرة شجرة تين. فى هذا اليوم حضر دييغو مالدونادو وقدرها بمبلغ ٢٨ دوقية، الشهود المذكورون، وعرض المذكوران غارثيا وميغيل مبلغ ٣٠ دوقية، وتم التنبيه بقفل المزاد ولأنه لم يوجد منافس رسا المزاد على المذكورين.

أنهى المزاد

Pasado ١١٢٥٠

ميغيل منظرى

و أخوه غارثى

حديقة مساحتها مارخال واحد أكثر قليلاً أو أقل قليلاً، بجوار البيوت، عند قرية ديغار فى بيثمار، مجاورة لبيوت خوان عبدون وبيوت زكريا دى مولينا ودييغو دى ألاما، يوجد فى هذه الحديقة أربع أشجار زيتون، وثلاث أشجار توت وأشجار فواكه أخرى صغيرة.

فى هذا اليوم حضر دييغو مالدونادو وقدر ثمن تلك الحديقة بمبلغ ١٧ دوقية، الشهود المذكورون، وعرض المذكوران غارثيا وميغيل المنظرى١٨ دوقية، رسا المزاد على المذكورين، الشهود المذكورون.

أنهى المزاد

Pasado ٦٧٥٠

ميغيل المنظرى

وأخوه غارثيا

قطعة أرض للزراعة الجافة مساحتها فانيغا واحدة للزراعة فى السلسلة الجبلية، فى قرية الحالكى، مجاورة لأرض خوان أرّاى وللطريق.

في هذا اليوم حضر المذكور دييغو مالدونادو وعرضها بمبلغ دوقية واحدة، الشهود المذكورون، وعرض المذكوران غارثيا وميغيل ١٣ ريالا ونظراً لعدم وجود منافس رسا المزاد عليهما بمبلغ الثلاثة عشر ريالا، الشهود المذكورون.

أنهى المزاد

Pasado ٤٤٢

المذكوران

قطعة أرض أخرى للزراعة الجافة في السلسلة الجبلية، مساحتها نصف فانيغا، تحدها أرض خوان الهنداك وخوان الماريني، تقع عند مجرى المارخاكسات. في هذا اليوم حضر المذكور دييغو مالدونادو وعرضها بمبلغ دوقية واحدة، الشهود المذكورون، وعرض غارثيا وميغيل مبلغ اثني عشر ريالا في مقابلها، ورسا المزاد عليهما.

Pasado ٤٠٨

رسا المزاد على

المذكورين

قطعة أرض للزراعة الجافة تبلغ مساحتها ٢ فانيغا صالحة للزراعة في إيسكوثار، تحدها أرض الـ أبلي والطريق، واقعة في قرية ألخيبي.

في هذا اليوم حضر المذكور دييغو مالدونادو وقدّرها بخمس دوقيات، الشاهدان المذكوران: غارثيا المنظري وميغيل المنظري. عرضا في مقابلها ست دوقيات ولعدم وجود منافس رسا عليهما المزاد، الشهود المذكورون.

رسا المزاد على

Pasado ٢٢٥٠

المذكورين

قطعة أرض أخرى في مزرعة إيسكوثار المذكورة مساحتها ٢ فانيغا أخريين يحدها الطريق. في هذا اليوم حضر المذكور دييغو مالدونادو وقدرها بست دوقيات، الشهود المذكورون. وقد عرض الأخوان المذكوران ست دوقيات ورياﻻً واحداً مقابلها ورسا عليهما المزاد، الشهود المذكورون.

رسا المزاد على

Pasado ٢٢٨٤

المذكورين

قطعة أرض تبلغ مساحتها ٢٫٥ مارخال في قرية لاس إيراس، يحدها بيت المصدف ومسطح أرضي لدراسة المحاصيل، يوجد في هذه الأرض شجرة توت وشجرتا كريز صغيرتان. في ذلك اليوم حضر المذكور دييغو مالدونادو وعرض الأرض المذكورة بمبلغ ٣٨ دوقية، الشهود المذكورون. وقد رسا المزاد على المذكورين، بالمبالغ المذكورة، بعد ذلك وبموافقة الأطراف نافس المذكوران غارثيا وميغيل بمبلغ ٣٨ دوقية وريالين، الشهود المذكورون.

رسا المزاد على

المذكورين Pasado ١٤٣١٨

قطعة أرض أخرى مساحتها ٣ مارخال بها ثمانية أو تسعة شجيرات زيتون، في قرية الرميل، تحدها أرض إيثبولا وخوان دي بابيثا. في هذا اليوم حضر المذكور دييغو مالدونادو وعرض الأرض المذكورة بمبلغ ٣٣ دوقية، الشهود المذكورون. عرض غارثيا المنظري وأخوه ميغيل مقابل هذه الأرض مبلغ ٣٤ دوقية ورسا المزاد عليهما، الشهود المذكورون.

رسا المزاد على

المذكورين Pasado ١٢٧٥٠

قطعة أرض أخرى مساحتها ٢ مارخال فى مزرعة البينا المتاخمة لمزرعة لورينثو الـ لونتشى والطريق، يوجد فى هذه الأرض سبع أشجار زيتون صغيرة. فى هذا اليوم حضر دييغو مالدونادو وعرضها بمبلغ ١٦ دوقية، الشهود المذكورون. عرض غارثيا المنظرى، وميغيل المنظرى مبلغ ١٨ دوقية ثمنًا لها. وقد رسا المزاد عليهما، الشهود المذكورون.

رسا المزاد على

المذكورين Pasado ٦٧٥٠

أرض مزروعة بأشجار العنب مساحتها مارخال ونصف المارخال فى قرية البينا المذكورة، تحدها أرض خوان أرّايث والمشى.

فى هذا اليوم حضر دييغو مالدونادو وعرضها بمبلغ ست دوقيات وريال واحد، الشهود المذكورون،

وقد عرض ميغيل وأخوه غارثيا المنظرى مبلغ ست دوقيات وريالاً واحداً فى مقابلها ورسا المزاد عليهما، الشهود المذكورون.

رسا المزاد على

المذكورين Pasado ٢٢٨٤

شجيرة زيتون فى المارخى فى أرض ميغيل سيمان. فى هذا اليوم حضر دييغو مالدونادو وعرضها بمبلغ ٥ر٣ دوقية، الشهود المذكورون. رسا المزاد على المذكور

دييغو مالدونادو، الشهود المذكورون. أقول إنه أرسى المزاد بمبلغ ٥ر٣ دوقية وريال على غارثيا وميغيل المنظرى.

رسا المزاد

على المذكورين Pasado ١٣٤٦

شجيرة توت فى ضيعة كانتودا، فى أرض أندريس كاستيًانو.

حضر فى هذا اليوم دييغو مالدونادو وعرضها بمبلغ ١٢ دوقية، الشهود المذكورون. وقد عرض غارثيا المنظرى وأخوه ميغيل ١٣ دوقية. رسا المزاد عليهما، الشهود المذكورون.

رسا المزاد على

المذكورين Pasado ٤٨٧٥

قطعة أرض مساحتها أكبر أو أقل بقليل من مارخال واحد عند مجرى النهر متاخمة لأرض خوان عبدون وأرض دومينغو نضير. محاطة بأشجار الحَوَر. فى هذا اليوم حضر دييغو مالدونادو وعرض تلك الأرض بمبلغ ست دوقيات. عرض غارثيا المنظرى وأخوه ميغيل سبع دوقيات. رسا المزاد عليهما، الشهود المذكورون.

رسا المزاد على

المذكورين Pasado ٢٦٢٥

قطعة أرض أخرى تبلغ مساحتها مارخال آخر بها أشجار توت وأشجار زيتون وتقع ناحية النهر، متاخمة لأرض خوان عبد الرازق، وأرض غارثيا عبدون، وهما يشتملان على ست أشجار زيتون وثلاث أشجار توت.

في هذا اليوم حضر دييغو مالدونادو وعرض الأرض المذكورة والشجيرات بمبلغ اثنتى عشرة دوقية، والشهود المذكورون غارثيا المنظرى وشقيقه ميغيل عرضا ثلاث عشرة دوقية وقد رسا المزاد عليهما، الشهود المذكورون.

رسا المزاد على ________________

المذكورين ٤٨٧٥

أرض للرى مساحتها نصف فانيغا للزراعة فى السلسلة الجبلية متاخمة لأرض إسكوبار وأرض رامون إيرنانديث. تقع فى قرية فادينا خيركا.

فى هذا اليوم حضر دييغو مالدونادو وعرض الأرض المذكورة بمبلغ دوقيتين، الشهود المذكورون؛ عرض المذكوران غارثيا المنظرى وأخوه ميغيل دوقيتين وريالاً واحد ونظراً لعدم وجود منافس أكبر رسا المزاد عليه، الشهود المذكورون.

رسا المزاد على ________________

المذكورين ٧٨٤

قطعة أرض أخرى للزراعة الجافة مساحتها فانيغا فى منطقة سيلا المتاخمة.

فى هذا اليوم حضر دييغو مالدونادو وعرض الأرض المذكورة بمبلغ دوقيتين، الشهود المذكورون، وقد عرض غارثيا المنظرى وشقيقه مبلغ ٢٣ ريالاً ولأنه لم يكن هناك منافس أكبر رسا المزاد عليهما، الشهود المذكورون.

رسا المزاد على ________________

المذكورين ٧٨٢

قطعة من بستان مساحتها مارخال واحد بها أشجار زيتون وأشجار توت وأشجار تفاح، يحدها الطريق وأرض السيد الغينى وأرض دييغو كاستيّانو وبستان

أندريس المنظرى، يوجد فى هذا البستان شجرتا زيتون وشجرتا توت صغيرتان وأشجار مثمرة أخرى. فى هذا اليوم حضر دييغو مالدونادو وعرض البستان المذكور بعشر دوقيات، الشهود المذكورون.

فى هذا اليوم حضر المذكور غارثيا المنظرى (وردت هكذا) وعرض مبلغ عشر دوقيات وريالاً واحداً فى مقابل البستان المذكور وقد رسا المزاد على المذكورين لعدم وجود منافس أكبر، الشهود المذكورون.

رسا المزاد على	______________
المذكورين	٣٧٨٤

نصف منحل فى منطقة كاثولاس، مناصفةً مع الماخيلى من قرية لاس البونيويلاس والتى تشتمل كلها على ستين خلية.

فى الثامن من سبتمبر من عام ١٥٥٩، عرض لورينثو ماهلى مقابل نصف المنحل هذا مبلغ ١٣ دوقية، وعرض حامل البكالوريا ماركوس دياث مبلغ ١٤ دوقية، وعرض لورينثو ماهلى ١٥ دوقية ونظراً لعدم وجود منافس أكبر أغلق المزاد على المذكور لورينثو ماهلى بمبلغ الخمس عشرة دوقية المذكورة، الشهود: حامل البكالوريا ماركوس/ أغلق المزاد على دياث بيريث دى أورثتيغى

أغلق المزاد على		______________
دياث بيريث دى أورثتيغى	Pasad	٥٦٢٥

منحل عند نهر خيكسات به مائتا خلية، تشتمل على مائة وست خلايا قديمة ونصف الخلايا الجديدة متزايدة هذا العام.

أرض للرى فى ضيعة الموهاتشار مساحتها ٢ مارخال، متاخمة لأوقاف الكنيسة وأرض لويس دى مويا والطريق.

في هذا اليوم حضر المذكور دييغو مالدونادو وعرض قطعة الأرض المذكورة بمبلغ ٣٦ دوقية، الشهود المذكورون. وقد عرض غارثيا المنظرى وأخوه ميغيل مبلغ ٣٧ دوقية. ونظراً لعدم وجود منافس أكبر أُغلق المزاد عليهما، بمبلغ سبع وثلاثين دوقية المذكورة، الشهود المذكورون.

أُغلق المزاد على ——————————

المذكورين ١٣٨٧٥

قطعة أرض مساحتها ٢ مارخال في قرية أنداك الثيمي، يحدها أرض زكريا دى مولينا ودييغو نضير.

في هذا اليوم حضر دييغو مالدونادو وعرض العقار المذكور بمبلغ أربعين دوقية، الشهود المذكورون.

في هذا اليوم عرض غارثيا المنظرى وشقيقه مبلغ أربعين دوقية ونظراً لعدم وجود منافس أكبر أُغلق المزاد عليهما، الشهود المذكورون.

أُغلق المزاد على المذكورين ——————————

١٥٠٠٠

قطعة أرض أخرى بها أشجار عنب مساحتها أكبر من مارخال بها شُجيرة أو شجيرتان توت عند ضفة النهر يحدها أرض لورينثو بالومينو وآخرون (كلمة آخرون مشطوبة) دييغو إيرنانديث.

فى هذا اليوم حضر دييغو مالدونادو وعرض تلك الكرمة بمبلغ ثلاث دوقيات، الشهود المذكورون. وقد عرض غارثيا المنظرى وشقيقه ميغيل مبلغ أربع دوقيات ونظراً لعدم وجود منافس أكبر أُغلق المزاد عليهما، الشهود المذكورون.

أُغلق المزاد على المذكورين

١٥٠٠٠

كرمة فى قرية التشيتى فى دائرة البونيول تحدها أرض خوان البُشراتى والطريق وأرض أحد أفراد عائلة دوركال وتبلغ مساحتها ٤ بيونادا.

فى هذا اليوم حضر المذكور دييغو مالدونادو وعرض تلك الكرمة بمبلغ ٧ دوقيات، الشهود المذكورون.

المذكوران غارثيا المنظرى (وردت هكذا) وأخوه ميغيل، عرضا فى مقابلها سبع دوقيات وريالاً واحداً وأُغلق المزاد عليهما، الشهود المذكورون.

أُغلق المزاد على

المذكورين ٢٦٥٩

كرمة أخرى تصل مساحتها إلى نحو مارخال ونصف فى دائرة نيغيلاس، تحدها أرض خوان دى مونتى فريو وأرض لويس دِل كاستيُّو.

فى هذا اليوم حضر المذكور دييغو مالدونادو وعرض الكرمة المذكورة بمبلغ ست دوقيات، الشهود المذكورون.

فى هذا اليوم عرض فولخِنثيو إرنانديث مبلغ ست دوقيات وريالين ونظراً لعدم وجود منافس أكبر أُغلق المزاد عليه، الشهود المذكورون.

فولخِنثيو إرنانديث

إرساء المزاد

على المبلغ المذكور

enajenada ٢٣١٨

كرمة أخرى مساحتها مارخال واحد فى قرية أثيكيا، بجوار النهر تحدها أرض لورينثو إرنانديث ويحوزها غارثيا باستور.

شجرة توت عند النهر فى كرمة البشراتى، جار نيغلاس.

فى هذا اليوم حضر دييغو مالدونادو وعرض تلك الأرض بمبلغ دوقيتين، الشهود المذكورون. عرض غارثيا المنظرى وميغيل المنظرى ثلاث دوقيات. فى هذا اليوم عرض خوان دى سولير ثلاث دوقيات وريالاً واحداً فى مقابلها، الشهود المذكورون، ثم عرض ميغيل المنظرى وأخوه غارثيا ثلاث دوقيات وريالين، ثم عرض بدرو مالدونادو ثلاث دوقيات ونصف (هذا الاسم يظهر فوق اسم غارثيا المنظرى، المشطوب) وأُغلق المزاد، الشهود المذكورون.

شجيرة توت أخرى فى أرض المرينى،

تحدها أرض غارثيا خيمينيث الكانا.

رسا المزاد على

بدرو مالدونادو

١٣١٢

فى هذا اليوم حضر دييغو مالدونادو وعرض شُجيرة التوت المذكورة بمبلغ ثلاث دوقيات، الشهود المذكورون.

ونظراً لعدم وجود منافس رسا عليه المزاد، الشهود المذكورون.

١١٢٥

(الخمسة سطور التالية مشطوبة)

رسا المزاد على

غارثيا المنظـرى

(مشطوب)

وأخيه (مشطوب)

دييغو مالدونادو .

قطعة من بستان تقع خلف المنازل المصادرة متاخمة لأرض أندرِس دى نابوليس ولورنيثو بالومينو. هذا البستان يُعَد مثل فناء للبيوت المسجلة ضمن هذه المصادرة وهكذا تدخل ضمن بيع تلك البيوت، ولهذا السبب تم طرح هذه الحصة (كل ما سبق مشطوب).

قطعة صغيرة أخرى من بستان أسفل أرض مسطحة سفلية مساحتها نصف مارخال، متاخمة لأرض غارثيا كاستيَّانوس.

فى هذا اليوم المذكور حضر دييغو مالدونادو وعرضها بمبلغ نصف دوقية، الشهود المذكورون، وعرض غارثيا المنظرى ستة ريالات ورسا عليه المزاد.

أُغلق المزاد على

المبلغ المذكور

٢٠٤

شجرة لوز بالقرب من الطاحونة الأولى للمذكور أندرس المنظرى، فى ناحية الطاحونة ومتاخمة لها.

فى هذا اليوم حضر المذكور دييغو مالدونادو وعرض شجرة اللوز المذكورة بمبلغ دوقية واحدة، الشهود المذكورون، فرانثيسكو دى مولينا، المستفيد، عرض مبلغ دوقية ونصف الدوقية مقابلها.

فورخِنثيو إرناندث عرض ثمانية عشر ريالا؛ عرض دييغو مالدونادو تسعة عشر ريالاً؛ عرض غارثيا وأندرس المنظرى مبلغ عشرين ريالاً ... دييغو ممالدونادو عرض واحداً وعشرين ريالاً ورسا عليه المزاد، الشهود المذكورون.

رسا المزاد

٧١٤ على دييغو مالدونادو

(التالى مشطوب)

شجيرة توت فى أرض غارثيا خيمينيث خلف منزل لورنثو دى كونتشى. شجرة التوت هذه هى المُعلن عنها آنفًا، حيث يُقال شجرة توت صغيرة فى أرض المارينى، متاخمة لأرض غارثيا خيمينيث ألكانا.

شجرتا توت صغيرتان فى ناحية أنداك القصر مستقرتان فى أرض ناحية الأنداك.

(كل ما سبق مشطوب)

فى أثيكيا، فى ذلك اليوم عرض مارتين بيريث كل هذه الأملاك فيما عدا المنحل بمبلغ خمسمائة دوقية.

يتعيَّن رؤية الثمار.

١٨٠

١٥٣

٥٩

١٠٢

٦٠

٣٧

٤٥

٧٤

٧

٧١٨

٥٥٠

١٦٨

(على ما يبدو هناك خطأ فى الجمع)

ملحق وثائقى رقم ٥

نهاية عائلة

نقدم هنا الأجزاء الخاصة بكتاب وثائق وحصر أملاك فى منطقة أثيكياس Acequias التى نعتبرها مهمة من أجل إتمام دراستنا.

إن شروط التوطين هى شروط عامة لكل المملكة وشروط خاصة بالنسبة إلى منطقة أثيكياس.

الأسر التى تم توطينها حديثًا والأنصبة التى تخص كلاًّ منها. ومن هنا نقفز للورقه١٥، الخاصة باستقصاء الأملاك الموجودة، وفيها فقرات رهيبة تتضمن: منازل منهارة ومحروقة وغير قابلة للسكن؛ وتوجد فقرات أخرى ليست أقل دلالة فى الورقة التالية: جذوع أشجار توت مقطوعة، وأشجار فواكه فاسدة وطواحين بن لا تطحن، ومعاصر زيت منهارة وفاسدة.

إن الحرب تركت آثارها هنا، ربما بشكل أكثر كثافة منه فى أماكن أخرى. لا يوجد أى أثر لموريسكيين.

يُقال فقط عند التوزيع إن هذه الدار أو هذه الأملاك كانت تنتمى إلى...... واسم مالكها القديم، الموريسكى بالطبع.

فى الورقه٢١ يأتى ذكر دييغو المنظرى؛ وفى الورقة ٥٩ يُذكر غارثيا المنظرى. هذا هو كل شىء.

Bujarras

Comision para la poblacion del lugar de acequia del valle.

Al censo perpetuo que este lugar paga es diez y seis ducados cada año, corre desde primero de enero en adelante.

balle

acequia

Don Felipe por la gracia de dios
Rey de castilla de leon de aragon de las dos
sicilias de Jherusalem de navarra de granada
de toledo de valencia de cordova de corcega
de murcia de Jaen conde de flandes e de tirol
e ct. A vos alonso sanchez nuestro thesorero y que
por nuestro mandado entendeis en lo que toca a la
poblacion de los lugares de la Alpujarra
e su partido. sabed que teniendo consi
deracion a que conviene a nuestro servicio
que se pueblen los lugares del reino de
granada que an quedado yermos e despo
blados de causa de aver sacado dellos los
moriscos que en ellos vivian e los que se
rebelaron y levantaron en el dicho reino los que en
el Alpujarra sierras e marina y
en otras partes bien como nuestros sub
ditos e naturales y avemos tenido por bien
e mandado que todas las casas que dexaron
los dichos que se fueron fuera del dicho reino de granada se
fuesen a poblar e poblaren los dichos lugares
de la Alpujarras sierras e marinas
que se den en propiedad las casas e tierras
viñas huertas e otros heredamientos que en ellos
e en sus terminos tenian los dichos moriscos
que son nuestras e nos pertenecen por el delito
que cometieron con que los que en ellos poblaren por
cada una de las dichas casas de los dichos lugares
una renta de censo perpetuo en cada un año e por
las tierras huertas y heredades la decima parte
de los frutos que en ellas ovieren pagado en

Diego de fuentes

Resulucion dela hazienda que cupo y perteneçe a diego
de fuentes vezino y nuevo poblador deste lugar de açequia
que es de cauez una suerte senalla y mas media ventaja
que se señalo para Juan de medina que repartio la otra
media para diego maldonado //

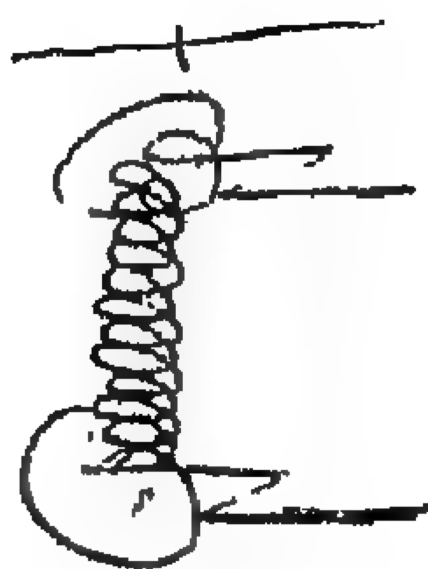
Una cassa que hera de Juan gonzalez bola
ñero del horno que tiene una cueva
de agua alinda con dos cassas jun
to [illegible] a la susodicha que esta en me
dio una calle [illegible] de diego hernandez
[illegible] palomino y mas
otra cassa junto a la susodicha que hera
de luis de jaen //

[illegible] les cupo la suer
te [illegible] la suerte que
cupo a sebastian [illegible] una [illegible] que
tiene junta [illegible]
[illegible] tiene una [illegible]
[illegible] la cassa [illegible]
y mas un pedaço de huerto que tie
ne [illegible] y medio con dos moreras [illegible]
[illegible] susodicho y mas otro pedaço de
huerto [illegible] horno [illegible] cassa
[illegible]
[illegible] que tiene dentro //

El [illegible] de [illegible]
que [illegible]
[illegible] camino [illegible]

6

Juan Verdugo





Resulucion de la hazienda que cupo y pertenesce por
Repartimiento a Juan Verdugo vecino y nuevo poblador deste
lugar de Acequia de el Valle que entro en lugar de Juan
de Medina en la suerte sencilla//

Una cassa en este dicho lugar de A
cequia que es la cassa que hera de
[illegible] junto al rio
linde de cassa que hera de [illegible]
[illegible] con todo lo que le
pertenesce a la dicha cassa//

Un bancal que se hizo de los
guertos junto a las cassas le cupo
la suerte catorze deste bancal que se
hizo en unos guertos entre la acequia
que tienen dos marjales y medio
y an juntos linde con el acequia
principal y con suerte de Francisco
de Medina y de Juan Montero tie
nen dentro seis morales que se le
han tasado [illegible] de marja
y mas un noguer que se le daba
[illegible] porque le a [illegible]
[illegible] de Juan de Medi
na [illegible] maldonado

Un bancal primero que se
hizo en el [illegible] que
[illegible] linde con el camino
que sube al lugar y en este bancal
le cupo la suerte quarta que se hizo
en [illegible] que hera de [illegible]
[illegible] linde con el camino que sube

نسخ للأوراق الخاصة بكتاب وثائق وحصر ممتلكات منطقة أثيكياس، والمصير النهائى للأملاك الموريسكية والتى من بينها أملاك الإخوة منظرى.

أثيكياس

لجنة تسكين منطقة

أثيكياس دل بايى.

الضرائب الدائمة التى تدفعها

هذه القرية هى ستة عشر ريالا

كل سنة اعتباراً من أول يناير

من عام٧٤ فصاعداً

بايى

أثيكيا

الملك فيليبى، بفضل الرب ملك قشتالة وليون وأراغون وجزيرتى صقلية وأورشاليم ونابارا وغرناطة وطليطلة وفالنسيا وقرطبة وكورسيغا دى مورثيا وخايين وكونت فلانديس وتيرول.

إليكم يا ألونسو سانشيث، كاتبنا والذى أمرنا أن تتولوا أمر ضرائب قرى البشرات ودائرتها، نعلم أنكم تأخذون فى الاعتبار ما يناسب مصلحتنا بأن تُعمر قرى مملكة غرناطة التى أصبحت خالية وغير مأهولة لأننا أخرجنا منها الموريسكيين الذين كانوا يعيشون فى تلك المملكة، بسبب ثورتهم وانتفاضتهم، وخاصة الذين كانوا يعيشون فى البشرات، الجبلية والبحرية، وذلك من أجل مصلحة رعايانا وأبناء بلدنا، رأينا من المناسب أن نطلب أن يذهب أى أشخاص من خارج مملكة غرناطة تلك إلى

ذلك المكان ويسكنون أماكن البشرات، الجبلية والبحرية يتم منحهم ملكية البيوت والأراضى والكروم والحدائق والمزارع الموجودة فيها والتى كان الموريسكيون يمتلكونها ويحوزون دوائرها والتى أصبحت ملكًا لنا وتنتمى إلينا بسبب الجُرم الذى ارتكبوه، بشرط أن يعطوا ويسددوا لنا عن كل بيت من البيوت المذكورة فى الأماكن المذكورة ريالاً واحدًا بشكل دائم، فى كل عام، وبالنسبة إلى الأراضى والحدائق والمزارع، عُشر قيمة الفواكه، التى كانوا سيدفعونها عن نفس الفواكه وقت أن أخذوها باستثناء أشجار التوت والزيتون، لأنه بالنسبة إليها فإن العشر سنوات الأولى التى تبدأ فى يناير سنه٧٢ فصاعدا يتعين أن يكون مقدار الضرائب عنها الخمس، واعتبارًا من نهاية الفترة فصاعدًا تكون الضريبة الثلث فقط للأبد، بحيث إنه فيما يخص أشجار التوت، يتعين أن يكون الدفع بقيمة عملتهم نفسها. وعن طريق أعضاء مجلسنا الكائن فى مدينة غرناطة أمرنا بأن تعمر قرية أثيكيا التابعة لمدينة غرناطة، بست عشرة أسرة، وهم المدرجون فى المذكرة وقائمة التوزيع المرفقة بها ومن أجل أن يمنح ويسلم إلى السكان وفقًا لما أمرنا به، بيوت ذلك المكان والأملاك التى كان يملكها الموريسكيون الذين كانوا يعيشون فى منطقة أثيكيا تلك، على أن يلتزم السكان ممن تم توطينهم حديثًا بالحفاظ على كل ما هو مذكور والالتزام بالشروط التى وضعها أعضاء المجلس من أجل الإعمار المذكور، وأن يُوزع كل ذلك حسب الأوامر وبالأسلوب المنصوص عليه فى قائمة التوزيع والتعليمات والشروط المرفقة معها، الموقعة من قِبل خوان رودريغيث دى بيافويرتى مالدونادو، عضو المجلس ومن قِبل فيرناندو دى كاسترو، كاتب الأعمال الخاصة بخزانتنا. ولأن الحصر والتحديد الخاصين بالمكان المذكور وبالأملاك الخاصة به قام بهما وبأمر منا السيد ماتشوكا، وهو الذى يسلمكم بصفة أصلية هذه الورقة. لذا ينبغى أن تبينوا عن طريقه للسكان المذكورين الحدود، وأن تُحدد المياه الموجودة فى المكان وكذلك الإرشاد عنها وعن الأملاك التى كان يمتلكها ويحوزها المسيحيون القدامى والكنائس فى ذلك المكان، والتى لا يتعين تقسيمها، حتى لا تُباع هذه

الأمــلاك. وبعد أن نظر أعضاء المجلس الملكى هذا الأمر تقرر أن نرسل إليكم فى هذا الموضوع المذكور ما رأيناه مناسبًا. إننا نأمركم بعد أن تسلم إليكم هذه الرسالة أن تذهبوا إلى تلك القرية بأثيكيا وتقوموا بالعمل على تنفيذ ما ورد فيها، وبعد ذلك أن تعطوا إلى السكان ملكية ذلك المكان والأملاك التى كان يمتلكها ويحوزها فيه أولئك الموريسكيون الذين كانوا يقطنون ذلك المكان لكى يوزعها السكان فيما بينهم طبقًا لقائمة التوزيع المذكورة، نأمر بأن تكونوا موجودين طوال الوقت المناسب حتى توزيع الأنصبة وتقسيم الأملاك وأن تقوموا بتقسيمها وتوزيعها بالشكل والأسلوب والكمية المنصوص عليها فى قائمة التوزيع المذكورة، وتسلموا ملكيتها إلى سكان ذلك المكان، بكل البيوت والأملاك، بالأمر والشكل الوارد فى قائمة التوزيع وبالشروط الخاصة بالتوطين المذكور بحيث تتوافر فى التوزيع المذكور كل المساواة والقبول، وبحيث لا يستطيع أحد أن يتذمر أو يشكو إذ يجب أن يحصل كل شخص على حصته من كل نوع وصنف من الأملاك المشار إليها فى قائمة التوزيع المذكورة وأن تحصلوا من كل السكان على وثيقة يلتزمون فيها بأن يدفعوا لنا بشكل دائم فى كل عام، ستة عشر ريالا عن الستة عشر بيتا التى يتعين أن تقتصر عليها بيوت القرية المذكورة، ويقررون بكل ما يخص كل واحد منهم وما يتوجب على كل واحد منهم دفعه عن الفواكه التى يأخذونها، الجزء الذى يتعين أن يدفعوه لنا بالأمر والشكل المنصوص عليهما، وأن يعطونا ويدفعوا إلينا كل مرة يتعين عليهم فيها التنازل إلى الغير عن أى من البيوت المذكورة، جزءًا من خمسين من المبلغ فى مقابل التنازل. كل ذلك من أجل أن يعترف كل منهم بسيادة كل شخص على الأملاك المذكورة وإلزامهم كذلك بالحفظ والوفاء بالشروط الخاصة بالتوطين والتى يتعين أن تكون معلنة. وسوف تعملون كذلك على أن يقوم السكان المذكورون بإعداد سجل تُكتب فيه الأشياء التى حصل عليها كل واحد منهم والتى هم ملزمون بدفع الضرائب عنها وحصص الكروم وأشجار الزيتون ومزارع أخرى وهكذا يكون قد تم إعلامهم أن نقل الملكية الذى يتم بشكل آخر سيكون لاغيًا

وبعد أن يتم الحصر المذكور والتحديد، يتم وضع العلامات والأنصبة والتوزيع والملكية، مختوما بخاتمنا وموقعًا باسمكم ترسلونه إلى مجلسنا من أجل أن ينظر فيه ويقرر ما يناسب مصلحتنا. وإذا كان السيد ماتشوكا لم يقم بقياس وتحديد فى منطقة أثيكيا تلك – بعض من ممتلكات الموريسكيين التى كان يتوجب عليه أن يتخذ وضعًا حيالها، فاطلبوا أنتم منه ذلك، فأنتم تعرفون وتتفهمون الأشياء التى يتملكونها وهكذا بالقياس والتحديد، تقيسونها وتحددونها وتعدون تقريراً عنها لكى يُعرف ويُفهم ما هو معطى. كُتِبَت هذه الرسالة فى غرناطة فى السادس عشر من شهر يناير من عام ١٥٧٤ . أنا فيرناندو دى كاسترو، كاتب مجلس صاحب الجلالة، وقعتها وختمتها، بأمره، وفقًا لأعضاء مجلس خزانته / أمين الدولة دييغو دى توريس ريخيسترادا، دييغو دى توريس، السيد بدرو دى ديثا أريبالو دى ثواثو، خوان رودريغيث دى بيافويرتى.

الأمر والشكل اللذان يتعين اتخاذهما فى تعمير قرية أثيكيا دل بايى دى ليكرين والسكان الذين يتعين وجودهم فيها والأنصبة التى يجب عملها من البيوت والمزارع بالمنطقة المذكورة ودائرتها، وكيفية المنح والتوزيع الآتى: يجب أن يوجد فى ذلك المكان ست عشرة أسرة، دون كاهن ولا سادن، لأن هناك تقريراً بأن المستفيد له نصيب فى منطقة مونديخار، حيث يعمل كاهنًا لها أيضًا، وبما أن له نصيبًا فى قرية، فليس من الممكن أن يكون له نصيب فى قرية أخرى. ولأنه لا يوجد كاهن، لا يتعين وجود سادن، وأن يكونوا جميعًا من خارج مملكة غرناطة، الذين كانوا يعيشون بشكل معتاد فى ذلك المكان، مع بيوتهم، المأهولة بالزوجات والأبناء. يجب عمل حصر لكل البيوت وأماكنها بالقرية المذكورة، ستة عشر مسكنًا وهو العدد الذى تقتصر عليه كل البيوت التى كانت موجودة فى زمن الموريسكيين، والتى يتوجب توزيعها بالأمر المنصوص عليه فى فصل الشروط الذى يتعلق بهذا الشأن. ينبغى عمل عشرين نصيبًا من كل نوع وصنف من الأملاك التى كان يمتلكها ويحوزها فى ذلك المكان أولئك الموريسكيون، وأن تكون تلك

الأنصبة كبيرة وينبغى توزيعها وتقسيمها بين السكان المتعين وجودهم فى المكان المذكور وينبغى أن يأخذ كل واحد منهم الأنصبة التى وزعت عليه بالشكل والطريقة الآتية:

فرانثيسكو دى ميدينا، من سكان كانبيو دى أريناس، ثلاثة أنصبة من كل نوع وصنف من الأملاك.

خوان دى ميدينا، من سكان كانبيو المذكورة، نصيبان.

خوان خيمينيس، من سكان لوكى، نصيبان.

دييغو كاليرو، من سكان كانبيو دى أريناس، نصيب واحد.

بارتولومى لوبيث، من سكان كانبيو المذكورة، نصيب واحد.

دييغو دى فوينتيس، من سكان بايلين، نصيب واحد.

دييغو دى باديال، من سكان الكالا لا ريال، نصيب واحد.

مور. غارثيا، من سكان طليطلة، نصيب واحد.

خوان مونتيرو، من سكان لا غوارديا، نصيب واحد.

فرانثيسكو مارتينيث، من سكان كانبيل إى البار، نصيب واحد.

فرانثيسكو مارتينيث، من سكان بايثا، نصيب واحد.

بدرو مارتينيث، من سكان دى أوبيدا، نصيب واحد.

خوان غوميث، من سكان وهران Oran نصيب واحد.

مارتين دى أراندا، من سكان لوكى، نصيب واحد.

اثنان من السكان يكونان من خارج المملكة ومفيدين للسكان واللذين يعينهما ألونسو سانشيث، لكل منهما نصيب واحد.

ينبغى عمل التوزيع والتمليك والتسليم إلى السكان حسب ما هو منصوص عليه بالأمر والشكل الموضح به، دون حذف أو تغيير أى شىء فيه.

صدر فى غرناطة فى السادس عشر من يناير من عام ١٥٧٤ . خوان رودريغى دى بيافويرتى مالدونادو. بأمر مسئول الخزانة. تمت كتابة واستخراج وتصحيح هذا النقل المذكور وتمت الموافقة عليه بقرار ملكى وتوصية، فى غرناطة، فى الثالث عشر من شهر مارس من عام ١٥٧٦ .. الشهود الذين حضروا، ميغيل مرنس ودييغو فلوريس وفيرناندو بورادو، وهم سكان ومقيمون فى غرناطة. أنا المذكور ألونسو سانشيث، كاتب صاحب الجلالة، وقعت وختمت هذا الخاتم

أختام وتوقيعات يقرأ منها أ. سانشيث، الكاتب.

دراسة استقصائية عن نوع وعدد السكان والممتلكات الموجودة فى منطقة أثيكيا هذه، فى زمن الموريسكيين، قام بها حامل الليسانس ماتشوكا.

أثيكيا

فى تالارا، فى الخامس عشر من شهر يونيو من عام ١٥٧٢، سيادة حامل الليسانس خوسيبى ماتشوكا، قاضى لجنة صاحب الجلالة، استدعى أمامه شخصيا دييغو سوليير مالدونادو وخوان دى سوليير مالدونادو، من مواطنى منطقة أثيكيا وسكانها الموجودين فى الوقت الحاضر فى وادى ليكرين المذكور وحلفوا اليمين أمامه، وقد طرح عليهم بمقتضاه السيد القاضى المذكور بعض الأسئلة للتحقق مما هو منصوص عليه فى لجنته وتوصيتها. ما قاله المذكورون هو الآتى:

المذكور خوسيبى ماتشوكا، أمامى أنا، أنطونيو بيريث، الكاتب. تقع هذه القرية المذكورة على بعد خمسة فراسخ من مدينة غرناطة، وهى من أماكن الوادى المذكور الذى كان به ست وسبعون أسرة موريسكية وفى الوقت الحاضر لا يوجد أى منهم، ولا القرية مسكونة لأن المكان المذكور بيوته منهارة ومحروقة بسبب أنه كان موجوداً هناك معسكر دوق ثيسار ولأنه كان هناك أيام كثيرة من حظر التجول. كل البيوت المذكورة غير قابلة للسكن وهناك حاجة لإعادة تشييدها وطلائها من جديد. الكنيسة الموجودة فى ذلك المكان كلها سليمة وبحالة جيدة، ينقصها فقط الأبواب. يوجد فى ذلك المكان- الذى ينتمى إلى صاحب الجلالة، لأنه كان لموريسكيين ثائرين وتم القضاء عليهم- ثلاثمائة مارخال من أرض للرى والتى يوجد فيها خمسون شجرة توت، دون حساب براعم أخرى لأشجار توت مقطوعة والتى هى آخذة فى التجدد وحوالى مائة برعم من أشجار الزيتون. وكل أشجار الفواكه الأخرى فاسدة ومقطوعة للسبب السابق ذكره. أرض الرى المذكورة بحالة جيدة وكل مارخال سوف يدر ربحًا كل عام - بعد خصم التكاليف - قدره ريالان ونصف الريال لكل مارخال. يوجد فى ذلك المكان عند ضفة النهر طريق جميل محفوف بالأشجار، مع أنه يمكن إصلاح بعض هذه البيوت. من أشجار الزيتون الموجودة فى تلك الأماكن سوف يجمع كل عام - بعد دفع العشر ونصيب صاحب المعصرة وتكاليف أخرى - ثلاثون أروبا من الزيت تنتمى لصاحب الجلالة. من أشجار التوت المذكورة الموجودة فى تلك الأماكن سوف يوجد حوالى اثنتى عشرة أوقية من تربية القز أكثر أو أقل بقليل. يوجد فى الدائرة المذكورة خمسون مارخالاً من الكرم معقولة يوجد معظمها عند النهر وحالتها سيئة. يوجد فى السلسلة الجبلية ودائرة أثيكيا مائة فانيغادا من أرض زراعية بدون رى، أرض جيدة، مع أنها تحتاج لجهد كبير فى فلاحتها لكونها انحدارات ولا توجد أرض أخرى لكسر هذا الانحدار. يوجد فرنان، وهما ملك الكنيسة ويستأجرهما بشكل دائم مسيحيون قدامى. توجد أربع طواحين للخبز صغيرة ومحطمة، معطلة ولا تطحن، تحتاج إلى إصلاح

كبير، وهى تعد ممتلكات محطمة، تنتمى لصاحب الجلالة. يوجد فى المكان المذكور معصرتان للزيت إحداهما تعمل بالماء والأخرى لها رافدة خشبية تجر عن طريق الدواب. هما أيضًا منهارتان ومعطلتان. كانتا لموريسكيين ثائرين وتنتميان إلى صاحب الجلالة. المكان المذكور به ساقية مائية يروون بها كل المزارع وكان يشرب منها سكان القرية. يأخذون بها الماء من النهر وكانوا يروون فقط بها نهاراً وليس فى الليل لأن بتلك المياه الليلية بمنطقة موندوخار، فى زمن الموريسكيين كانوا يروون بهذه الطريقة. كان كل مارخال من الأرض يعطى له ربع ساعة من الماء، مرة واحدة كل أسبوع، وفى الوقت الحاضر لا يوجد نظام لأنها كما هو مذكور ليست عامرة ولا يوجد سكان. يوجد فى الدائرة المذكورة شبكة كبيرة لاصطياد سمك التن. إنها تابعة للكنيسة. فى الوقت الحاضر لا تزرع. لا توجد فى هذه الدائرة حدود أخرى، ولا جبال، ولا استفادات أخرى، أكثر مما هو معلن. إن الاستقصاء المذكور، قام به السيد القاضى المذكور بالطريقة المذكورة، بالأقوال وبالتصريحات التى أدلى بها المذكورون دييغو سولييث مالدونادو وخوان دى سولييث مالدونادو، وهما مسيحيان قديمان، من مواطنى منطقة أثيكيا المذكورة، اللذان يعرفان ولديهما دراية بالمكان المذكور ومزارعه وقد حلفوا أولاً، أن ما قالاه هو الحقيقة، وما يعرفانه عن هذا الأمر أدليا به بعد اليمين التى حلفا بها ووقعا عليها، فإن حامل الليسانس خوسيبى ماتشوكا ودييغو سولييز مالدونادو وخوان دى سولّيير وقّعا أمامى أنا، أنطونيو بيريث، الكاتب.

إن منطقة أثيكيا المذكورة هذه تحدها من أعلى الجبال، مياه تنحدر نحو الأسفل، ويحدها النهر من جهة، وهو السيل الذى يخرج منه نهاية نيغيليس، ومن الجانب الآخر يحدها مخر الماء الذى ينزل من الجبال، الذى يقسم دائرة موندوخار. النهر المذكور والمخر المذكور، يهبطان من أعلى سلسلة الجبال المذكورة يتجمعان حيث تنغلق هذه المنطقة المذكورة.

إلى يمين الصفحة دونت هذه الملاحظات(*)

٦٦ أسرة
كنيسة
طريق محفوف بأشجار
سوف تُدِر أشجار
الزيتون المذكورة ٣٠
أرُّوبا من الزيت
أشجار التوت المذكورة
١٢ أوقية
٥٠ مارخال من الكرْم
١٠٠ فانيغادا من أراض
تزرع بدون رى
فُرْنان
٤ مطاحن للخبز
مَعْصَرتان للزيت
ساقية
شبكة كبيرة لصيد
السمك
وضع علامات الحدود
الملكية

فى مكان ودائرة إثيكيا دل بايبى، فى الخامس والعشرين من شهر يناير من عام ١٥٧٤، انا ألونسو سانشيث كاتب صاحب الجلالة من أجل عمليات حصر وتحديد وتناول ملكية، باسم صاحب الجلالة، الأملاك التى كانت للموريسكيين الثائرين والذين قضى عليهم، عندما دخلت فى كل البيوت وذلك المكان المذكور وفى كل الأملاك التى تحيط به والتى كانت لموريسكيين ثائرين وتم القضاء عليهم. قلت إننى كنت أحصر وحُصرت حيازة الملكية الحالية لأغلب البيوت المذكورة ولكل المناطق الزراعية، أراضٍ تزرع بالرى وأراض تزرع بدون رى وأشجار ونباتات مثمرة وكروم ولكل الأملاك الأخرى التى كانت للموريسكيين المذكورين والواقعة ومدرجة داخل زمام منطقة أثيكيا المذكورة هذه، التى حددها أنطونيو بيريث دى باداخوث، الكاتب الذى كان قبلى، والذى شكَّل لجنة فى هذا الصدد. قلت إننى كنت أحصر وحصرت الملكية المذكورة باسم صاحب الجلالة كممتلكات تنتمى له بسبب ثورة الموريسكيين المذكورين ومررت بتلك البيوت المذكورة والمناطق الزراعية فى إشارة إلى حيازتها، والتى استلمتها فى هدوء وبشكل سلمى، دون اعتراض من أى شخص، وكان حاضراً كشهود كل من فرانثيسكو دى

(*) دُونت هذه الملاحظات فى يمين الصفحة وقد آثرنا أن نترجمها بأمانة، وإن كانت علاقتها بالجزء المدوَّن فى اليسار ليست واضحة تماماً. (المراجع)

ميدينا ودييغو دى فرينتيس وميلتشور غارثيا وسكان آخرون من القرية المذكورة.

أ. سانشيث.

الكاتب

توزيع العقارات على كل نصيب من الأنصبة العشرين التى تم عملها فى منطقة أثيكيا هذه.

أثيكيا

تم توطين ست عشرة أسرة فى منطقة أثيكيا وتم عمل عشرين نصيبًا، أربعة منها تم إعطاؤها كمكافأة إضافية حسبما رأت اللجنة ونظامها الذى حدد العقار الذى يناسب كل نصيب وهو مايلى:

بيت للسكن مع بعض المستلزمات الأخرى المحطمة .

واحد وعشرون مارخالاً من أرض زراعية بالرى .

ثلاث فانيغادا من أرض زراعية بدون رى .

١٦ أسرة

٢٠ نصيبًا

بيت

٢١ مارخال من أراضٍ تُزرع

٠٣ بالرى

٠٢ فانيغادا من أراضٍ تُزرع

٠٤ بدون رى

٠٣ أوقية من حرير دودة القز

خمس عشرة شجرة توت مميزة سوف تدر أوقيتين من حرير دودة القز.

أربع مارخال من الكروم.

عشر أشجار زيتون سوف تدر ثلاثة أرُّوبا من الزيت كل عام.

مارخال من الكَرْم

أرُّوبا من الزيت

كل مـــا تم تقـيــيــمــه بأكـثــر أو أقل قليــلاً والعــقــار الذى يناسب كل ســـاكن هـو المدرج فى الرســـائل التى ترد لاحقًا فى هذا الكتاب .

أ. سانشيث

الكاتب

دييغو دى نوينتيس

القرار الخاص بحصة دى موينتيس- وهو مواطن جديد فى قرية أثيكيا هذه- يجب أن تخصص له حصة بالإضافة إلى نصف الامتيازات التى تم تخصيصها لخوان دى ميدينا الذى أعطى النصف الآخر لدييغو مالدونادو.

منزل كان ينتمى إلى خوان أثبولا بالقرب من الفرن الذى يحتوى على كهف به ماء. يُمنح منزلان آخران بالقرب من المنزل المذكور، يفصل بينهما الشارع، وكانا ينتميان إلى دييغو المنظرى ولورينثو بالومينو. يُمنح منزل آخر إلى جانب المنزل المذكور، الذى كان يخص لويس دى خايين.//

فى اللحظة التى تم فيها توزيع أنصبة الحدائق كان من نصيبه العاشر، الذى يَحُدُّ نصيب سيباستيان خويث، وقطعة أرض كان من المعتاد أن تكون حديقة مساحتها ٢ مارخال ونصف من أرضٍ للرى. بها بعض السياج الساقطة، تحدُّ منزل صاحب هذا النصيب. يُمنح قطعة أخرى من حديقة مساحتها مارخال ونصف، وبها شجرتا توت مميزتان، تحدان المنزل والحديقة المذكورة.

مُنحت قطعة أخرى من حديقة متاخمة للفرن والمنزل المذكور والتى مساحتها نصف مارخال مع شجرة توت متميزة، موجودة داخلها.//

فى اللحظة الأولى لتوزيع أراضى الرى التى تمت... الذى يكون نحو النهر، متاخمًا للطريق الذى/(*)

خوان بيردوغو

قرار الأملاك التى خُصصت لخوان بيردوغو، ساكن ومستوطن جديد فى منطقة أثيكيا دل بايى هذه، وقد دخل بدلاً من خوان دى ميدينا فى الحصة.//

(*) بهذه الجملة الناقصة تنتهى الفقرة فى الوثيقة الإسبانية. (المراجع)

منزل، فى منطقة أثيكيا المذكورة هذه، وهو المنزل الذى كان للسيد إرنانديث الياتى، بجوار الفرن، المتاخم لمنزل كان لغارثيا المنظرى. يُمنح مع كل ما يحتويه المنزل المذكور.

فى المرحلة التى تم فيها توزيع أنصبة الحدائق والبيوت كان نصيبه الحصة الرابعة عشرة .. وهى المرحلة الخاصة بحدائق من ثلاث قطع مساحتها ٢,٥ مارخال، وهى مجتمعة، مجاورة للساقية الرئيسية ومتاخمة لنصيب فرانثيسكو دى ميدينا وخوان مونتيرو، تحتوى فى داخلها على ست أشجار توت تُعطى له بسعر مقابل، هناك كذلك شجرة جوز مُنِحَ له نصفها، لأن النصف الآخر هو المكافأة الخاصة بـ خوان دى ميدينا، ...

فى المرحلة الأولى التى تمت فى مزرعة داهار الواقعة بالقرب من النهر، ومتاخمة للطريق الصاعد من المكان. فى التقسيم كان له النصاب الرابع الذى تم فى نصف قطعة أرض كانت للمنظرى، ومتاخمة للطريق الصاعد.

ملحق وثائقى رقم ١

شهادات دامغة

نقدم فى خاتمة هذا الكتاب بعض الأخبار المهمة عن المنظرى موجودة فى الدراسة التى قام بها الدكتور رفائيل ج. بينادو سانتا پيپّا الأستاذ بقسم تاريخ العصور الوسطى بكلية الفلسفة والآداب جامعة غرناطة. وهذه الدراسة بعيدة عن هدفنا من دراسة القائد الغرناطى ولكنها جذبت انتباهى إليها، حيث تفضل بإتاحتها لى، بل سمح بنشر تحقيق له عن بعض التساؤلات والاستقصاءات.

والأخبار الأكثر أهمية هى التى سندرجها توا، وهى التى وردت فى الوثيقة المفهرسة تحت رقم ٢٠-١٩٤-٣ فى محكمة غرناطة الملكية.

وفيما بين عامى ١٥٤٤ و١٥٤٩ توجد دعوى حول الحدود بين بلدتى إثنايُّوث Iznalloz وغوادا أورتونا Guadahortuna والثانية هذه نشأت حديثًا بعد الاحتلال المسيحى وابتعدت عن بينيار غير الآهلة بالسكان لأن "... غوادا أورتونا كانت تابعة لبينيار، ولكن فى عهد المسلمين كانت جبلاً ولم يكن هناك سكان...".

إن كل هذا الجهد كان لإيجاد شهود يوضحون سلطة بينيار وبالتالى يرجحون كفة غوادا أورتونا.

ومن الطبيعى أن يكون الشهود من الرجال المسيحيين الجدد لتلك الأرض فى تلك التواريخ.

أحدهم كان من سكان كوغويُّوس لكنه كان جنديا قديمًا لملكة بنى نصر فى بينيار وهو يؤكد أن قيادة مونتيخيكار وإثنايُّوث وبينيار كانت فى بينيار.

شخص آخر من سكان بوليـاناس Pulianas، يدعى إيرناندو الكابرىْ، يبلغ من العمر أربعة وسبعين عامًا ولكن عليه أن يتحدث عن طريق مترجم و"لديه أخبار عن مدينة بينيار منذ ٦٠ عاماً ... وقد عرفها هذا الشاهد منذ أن كان يبلغ أربعة عشر أو خمسة عشر عامًا، وكانت بينيار فى ذلك الحين تحت سيطرة المسلمين، وقد عاصر هذا الشاهد قائداً فى مدينة بينيار يدعى محمد المنظرى، الذى رحل إلى تطوان قبل أن تسقط غرناطة بقليل، وبعد أن غادر محمد المنظرى رأى هذا الشاهد أنه كان فى تلك المدينة قادة آخرون، الزناقى والموديخار، يقال إنهما كانا قائدين لمدينة بينيار منذ ذلك الوقت وحتى سقوط مملكة غرناطة... وقد رأى هذا الشاهد فى ذلك الوقت كيف أن مدينة بينيار كانت تتبعها مدن مونتيخيكار وأرينالس وإثنايُّوث وأراضٍ وقلاع أخرى كانت فى تلك المنطقة التى كان يحكمها قائد بينيار...".

فى شهادة ألكابرىْ المسهبة يوضح أن جده كان قائد مدينة إثنايُّوث وهو ما يعطى شهادته حول بينيار أهمية كبيرة.

دييغو دومان، هو شاهد آخر يبلغ من العمر ١٠٢ عامًا، ويعرف هذه المنطقة منذ ثمانين عامًا، ونرى أنه يوضح نقاطًا جوهرية.

وسوف نحاول أن نجملها أيضا وإن كان بعضها غير واضح فمن الممكن أن ذلك يرجع إلى تقدم عمر هذا الرجل.

"... هذا الشاهد لديه معرفة بمدينة بينيار منذ أكثر من ثمانين عامًا بل منذ تسعين عامًا – لأنه ولد ونشأ فيها – فى ذلك الحين كان يبلغ من العمر ثلاثين عامًا وقد رأى أنه كان فى مدينة بينيار قائد يدعى ابن سالم Abenzalema وعرف بعده قائداً آخر هو خايين Jayen وبعده جبران Jubran وبعده المنظرى والموديخار، وقد عاد المنظرى بعد ألموديخار وظل حتى استولى المسيحيون على الأرض ... وأنه لما خرج المسلمون من مدن إثنايُّوث وبينيار ومونتيخيكار وكانبريل، كانت مدينة بينيار تحمل رايتها الملونة فى الأمام دلالة على أنها كانت المدينة الرئيسية... فالقائد الذى كان يقيم آنذاك فى بينيار كان يحكم مدن إثنايُّوث ومونتيخيكار وبينيار وكانبريل... وبما أن

مدينة بينيار كانت على رأس تلك المدن، فكان يسكنها نبلاء غرناطة ومنهم المنظرى الذى ذهب إلى غرناطة وكان أحد النبلاء الفرسان المسلمين الغرناطيين...".

ويؤكد شاهد آخر على سيادة بينيار حيث "كان لدى الملك المسلم أربعون أو ثمانون فارسًا مسلمًا ممن كانوا يطوفون الأرض...".

أما فيما يتعلق بالمنظرى فأعتقد أنه يكفى أن أعرض باختصار بعض النتائج التى تستنتج من نص الكتاب، لكنها أكثر إيضاحًا فى ظل تلك الشهادات المنسوخة.

فليس هناك أدنى شك فى النقاط التالية :

أولاً: أن المنظرى كان قائدا لقلعة بينيار.

ثانيًا: أن مكانته ومنزلته بين نبلاء مملكة بنى نصر نشأت من أهمية القلعة التى تولى قيادتها.

ثالثًا: أنه عندما اندمجت بينيار مع إثنايُوث ومونتيخيكار فى سبتمبر من عام ١٤٨٥، كان المنظرى وقتئذٍ فى تطوان .

رابعًا: أنه فى الغالب أن الكثير من الفرسان المسلمين الذين كانوا تحت إمرة المنظرى انتقلوا معه إلى تطوان.

إن مدينة تطوان غرناطية المولد وغرناطية فى جوهرها حتى يومنا هذا، كما تجلى ذلك فى تطور تقاليدها وحياتها الدينية.

المؤلف فى سطور:

غييرمو غوثالبيس بوستو

– أستاذ التاريخ بجامعة غرناطة .

– له العديد من الكتب والأبحاث حول تاريخ المغرب العربى وعلاقته بإسبانيا .

– شارك فى العديد من المؤتمرات الدولية التى عقدت حول تاريخ العصور الوسطى والموريسكيين .

المترجم فى سطور :

– ممدوح محمد حامد

– مدرس اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر .

– ليسانس اللغة الإسبانية من كلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر بتقدير عام جيد جدا مع مرتبة الشرف .

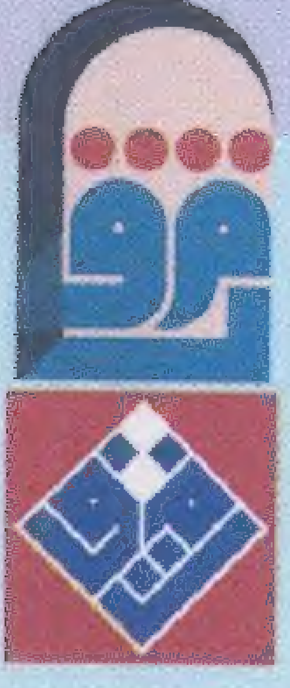
– الدراسات التمهيدية للدكتوراه فى جماعة سلمنكا بإسبانيا .

المراجع فى سطور :

- جمال أحمد عبد الرحمن .

- من مواليد ١٩٥٦ بقرية بنى مجد (أسيوط)
- حاصل على درجة الإجازة العليا (الليسانس) فى اللغة الإسبانية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف (١٩٧٩) ، كلية اللغات والترجمة ، جامعة الأزهر .
- الدراسات التمهيدية للدكتوراه من جامعتى سلمنكا ومدريد .
- حاصل على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف من جامعة مدريد المركزية (١٩٨٩) .
- فى عام ٢٠٠١ رقى إلى درجة أستاذ بقسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة ، جامعة الأزهر .
- له العديد من الكتب المترجمة والمقالات المنشورة فى مصر والخارج حول موضوعات مختلفة من الأدب الإسبانى والعلاقة بين الإسلام والثقافة الإسبانية .

التصحيح اللغوى : **رجب الصاوى**
الإشراف الفنى : **حسن كامل**



هذا الكتاب الثانى للدكتور غوثالبيس بوستر حول الأثر الأندلسي الموريسكى فى المغرب. وكان الكتاب الأول بعنوان "الموريسكيون فى المغرب" وقد صدر عن المشروع القومى للترجمة منذ عامين، وكان يتناول الوجود الموريسكى فى المغرب بشكل عام، أما هذا الكتاب فيتحدث عن منطقة مغربية محددة هى تطوان، ويذكر أن قائدًا أندلسيًّا هو الذى أعاد بناء المدينة بعد أن كانت أطلالاً. ويقدم الكتاب وثائق جديدة وجديرة بالمناقشة الهادئة. ونحسب أنه يضيف الكثير إلى من يريد دراسة تاريخ مغربنا العربى.

تصميم الغلاف: محمود مراد